صبحي فحماوي

على باب الهوى!

رواية

الفارابي
الفارابي

على باب الهوى!

صبحي فحماوي

على باب الهوى!

رواية

دار الفارابي

الكتاب: على باب الهوى!
المؤلف: صبحي فحماوي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2014
ISBN: 978-614-432-109-6

الإهـداء

إلى كل من لم يرشُ

وإلى كل من لم يرتشِ!

على باب الهوى

«..ومن ثم، فالشرق مدعو للاضطلاع بدور بارز في الغرب،
فها هو استقرار أوروبا يوشك أن يتزعزع،
والمراوحة الأوروبية التي هي أصلاً عفنة ومتشققة،
وكل القارة تميل وترنو نحو الشرق،
وسوف نشهد أموراً عظيمة».

فيكتور هوجو–Victor Hugo,Les Orientales.idem

من كتاب فاطمة المرنيسي (هل أنتم محصنون ضد الحريم؟)

«على باب الهوى»

رواية واقعية قلقة، وصادمة مدهشة.

أ.د. مدحت الجيار

من يقرأ عنوان هذه الرواية وهو يتناولها من على رف الكتب، يعتقد أن الروائي صبحي فحماوي عاشق ولهان، يعيش على باب الهوى، ويتنقل من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، بحثاً عن الحب والهوى، ولكنه من الصفحات الأولى الشديدة السخرية، يُغرقك في الضحك المبكي، وأنت تشاهد ما يفعله «الكلب الأمني» في مطار ميونيخ، الذي يفعل، أو يفعفل في ملابس حقيبة خالد، المسافر العربي إلى ألمانيا، إذ يقول السارد:

«يتقدم الكلب محاولاً الإفلات من جنزيره الذي يُكبِّل عنقه، فيعتلي حقيبة الولد خالد، بلا مؤاخذة، كما يعتلي أنثاه، ويأخذ يلحسها! ليست الأنثى التي يلحسها، وإنما يلحس الحقيبة وما فيها،

ويشمشم هنا وهناك، ويحشر أنفه بين ملابس اليافع المسكين يميناً ويساراً، و«من تحت لفوق، ومن فوق لتحت!» ويستمر هكذا غير مبال بكل أعراف ومواثيق «الأمم المتحدة ضدنا»، يفعفلها، ويُبَهدِل الذين خلّفوها، ويجعل أعاليها أسافلها».

وكعادته يسرد لنا الروائي **صبحي فحماوي** بسخريته المعهودة، في كل صفحة أو بعض صفحة قصة مدهشة مثيرة، تولد منها قصة أخرى، فتجد القصص والحكايات تتوالد، ويدفع بعضها بعضاً، مثل قصص وحكايات **«ألف ليلة وليلة»**، حتى يصيح الديك، فيتوقف **فحماوي** عن الكلام المباح..

وهذه الرواية التي تسرد أحداث يوميات من عام 1982، تأخذك من مطار عمّان في الأردن، مروراً بمطار ميلانو في إيطاليا، إلى مطار ميونيخ، وتصور لك كيف أنهم يُسكنون زملاءه في مبنى «مؤتمر قادة شباب الأرياف في العالم» المدعو للمشاركة فيه، كل في غرفة مفردة، ولكنهم وضعوه -استثنائياً- في غرفة مزدوجة مع زميل إيرلندي في المؤتمر، يبدو أنه يعمل مخبراً سرياً.. وتتجول الرواية بك مع رفاق شباب عرب وأجانب في ربوع ألمانيا ومدنها وقراها وقصورها وقلاعها الجميلة، فتلتقي **رئيس جمهورية بافاريا**، إذ يقول السارد هنا:

« يستضيفنا الرئيس الكبير في السن بالترحيب في قصره العتيق بقلعة أنديكس من دون بهرجة إعلامية، أو وزراء أو مسؤولين كبار، فتحتفي جماعته بعددنا الكبير، وذلك بإحضار برميل خشبي كبير من الجعة،

يشبه براميل النبيذ الضخمة التي كنا نشاهدها في أفلام (جوليفر في بلاد الأقزام، وجوليفر في بلاد العمالقة) المأخوذة فكرتاهما عن ألف ليلة وليلة، الرواية الأم..». وتزور قصور الملك لطفي الثاني الأثرية، ولا تبقى مدينة أو مكان في ألمانيا إلا وتزوره مع صبايا جميلات، وشباب متدفق الحيوية من مختلف دول العالم، برفقة السارد، الذي لولا روايته لما فتحت لك كل هذه الأبواب، لتطّلع عليها، فتزور متحف بوتسدام، المكان الذي عقد فيه قادة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وإنجلترا «معاهدة بوتسدام» بناءً على نتائج الحرب العالمية الثانية المنتهية، فتم تقطيع ألمانيا إلى عدة مناطق سيادية تهيمن عليها الدول العظمى بامتيازات آنذاك، وفي برلين تشاهد صورة «مناحيم بيغن» معلقة فوق رأس رئيس مؤسسة (دير شبيغل) الإعلامية..

وفي ميونيخ تشاهد استاد الألعاب الأولمبية حيث قَتَلَ كوماندوز الألمان فيه خمسة فدائيين فلسطينيين، ومن قمة عمارة سيارات (بي أم في) الشهيرة، تشاهد القطار التجاري المحمل بالسيارات اليابانية وهو يمخر في عباب مدينة ميونخ، فتستغرب هذا الاختراق الحضاري الياباني لألمانيا ملكة سيارات العالم، وتدخل ملاهيها الإباحية، ومراقصها البريئة، وقاعات محاضراتها العلمية، وأسواقها وجامعاتها، وتتناول الأطعمة في مطاعمها، فيقول لك أحد زملائك نكتة بذيئة، مفادها أن أحد رواد المطعم دخل مرحاض النساء بالخطأ وهو ثمل، فأخذ يبول، فلحق به عامل النظافة وقال له: «لا تفعلها هنا، فهذا

مخصص للنساء..».، فلم يلتفت إليه الرجل الواقف وهو يبول، فيكرر عامل النظافة: « قلت لك هذا مخصص للنساء!» فيقول الرجل الذي يبول: «أعرف. أعرف! وأعرف أيضاً أن هذا الذي أبول منه مخصص للنساء أيضاً». ورغم خدش الحياء في هذه النكتة إلا أن الواقعية السحرية التي يكتبها **صبحي فحماوي** لا تتعارض مع هذا التضمين، ما دام يوظف لمصلحة النص، وليس للمنظرة، وعرض الفضائح.

هل نقول إنها رواية «أدب رحلات»، أم إنها رواية «واقعية سحرية» بامتياز، إذ تقرأ عن الحرب الأهلية اللبنانية، وعن حرب «مناحيم بيغن» الذي كان في لحظات السرد نفسها يحتل لبنان كلّه، ويطحن المقاومة الفلسطينية عام 1982، فيضعف حزب الكتائب اللبناني، الذي كان مسيطراً قبل الحرب الأهلية، ليسيطر على لبنان مكانه حزب جديد اسمه «**حزب الله**»، فتضحك وترتعب وتبكي على حال الوطن العربي.

وهذا الشعور يشدك لمتابعة القراءة، ولا يترك لك لحظة لالتقاط أنفاسك من أول صفحة وحتى الصفحة الأخيرة، إذ تجد نفسك متورطاً في أحداث مدهشة، في نواحٍ مختلفة عن هذا الرعب، بعضها يدفع بعضاً، وحتى النفس الأخير، حيث يتوقف السارد بسيارته التي قطعت بلاد أوروبا من ألمانيا، مروراً بالنمسا ويوغوسلافيا وبلغاريا وتركيا لتصل إلى حدود «باب الهوى» السورية، فيتم احتجازه في قسم المخابرات، وذلك لسبب واحد، وهو أنه لم يدفع الليرات العشر رشوة لموظف أمن الحدود..

لاحظ مدى شوق العربي للعودة من بلاد أوروبا الغريبة عنه، إلى وطنه العربي الحبيب في سوريا، والتي يدخلها فرِحاً وهو يغني قائلاً: «على باب الهوى دقّيت! وفتح لي الهوى مرّيت!»، ثم يتابع السارد بلهفة العاشق قائلاً:

«أجدني أُغني وأنا أنتهي من بلاد الغربة الأوروبية التركية، وأقترب بسيارتي من نقطة حدود «باب الهوى» العربية السورية. كم أنا مشتاق للوصول إليها، ولتقبيل أرضها العربية التي أنبتتني عليها، فانتميت إليها! أمط جسدي من شباك سيارتي للوصول إلى حدود «باب الهوى» فأدخل إلى أرضنا العربية. أحاول أن أرمي نفسي من الشباك لأركع وأُقبّل أرضي العربية. أقضي الوقت بالغناء:

(ومن الشباك، لارميلك حالي، يا عيني... من كثر خوفي عليك ما بنام!) الثواني تتحول إلى ساعات وأنا أنتظر الوصول إليها بفارغ الصبر..وبعد مليون ساعة من الزمن الممطوط، أصل إلى الحدود. أوقف سيارتي فرحاً بين السيارات الداخلة، وبقفزات سريعة هنا وهناك أتابع معاملتها؛ من تعبئة عدة نماذج، وشراء دفاتر سيارة للتوقيعات، وأضع الطوابع المطلوبة، هكذا جاءت الطوابع مائلة على النموذج.. الشرطي يعمل لي مشكلة للسماء... «لك كيف بتحط الطابع مايل هيك؟ لك هادا لازم يكون قائم، مش مايل! لك هذه راح تعمل لنا مصيبة!» يأمرني بأن أتصور وأن أضع صورة هنا. أبحث عن المصور فأجده يُحضّر أدواته لحلاقة ذقنه. يجحظني بعينيه أن أنتظر! أنتظره

مرغماً، إلى أن ينتهي من جردها، ومسح الرغوة عنها بمنشفة مخططة معلقة على ظهره، فيلتفت إليّ ويقوم متمطِّياً وهو يتثنى بذراعيه، ثم يصورني مستخدماً هذا الثوب الأسود الذي يُدخل يده ورأسه ونصف جسده فيه، فيبدو ظهره مثل ظهر النساء المنقبات بستائر سوادهن ويقول: «يا كريم»، فيُخرج لك الثوب الأسود «بقدرة قادر» صوراً مما تشتهي الأنفس! ألصق «شبح صورتي» التي لم أتعرف عليها لشدة تشويهها لشكلي، في المربع المطلوب، وأدفع الرسوم المطلوبة حسب الأصول، وبعد كل هذا التعب والمعاناة، لا يبقى عليّ إلا أن أختم جواز سفري وأخرج بسرعة لأدخل الشام العريقة، فعمّان الحبيبة برمشة عين، وهكذا تنتهي مغامرة رحلتي الأوروآسيوية بسلام!».

ولكن هل تنتهي مغامراته الأوروآسيوية كما يعتقد؟ بالطبع لا، فما عليك إلا أن تتابع قراءة الرواية لتعرف ما حصل من مغامرات وغراميات وإرهاب مع هذا المسكين!

ولذلك لم يأت جزافاً هذا الإهداء الغريب في مقدمة روايته السابعة هذه، إذ نقرأ:

«**الإهـداء: إلى كل من لم يرشُ، وإلى كل من لم يرتشِ!**» إذ يقصد الروائي أن معظم بلاوي أمتنا العربية- وليست سوريا وحدها- سببها الرشى، والتي لا يتم تنفيذ عمل من دونها..

وأسلوب **صبحي فحماوي** «الواقعي السحري» بسيط ورائق، فيبدو وكأنه يتحدث معك مباشرة بلغته العربية القريبة من اللهجة العامية

الفلسطينية، وفي الوقت نفسه محكم البناء، فهو مهندس بناء حداثي، يتقن هندسة بناء النص الروائي، لتكون روايته سلة زهور منسقة أجمل تنسيق، أو لتكون حديقة غناء بديعة لم نطّلع على مثلها من قبل.

الكلب!

في العاشر من حزيران عام 1982 دُعيت لحضور مؤتمر دولي لقادة شباب الأرياف، وذلك في ميونيخ. كنت متشوقاً للمشاركة في هذا المؤتمر النوعي بالنسبة إليّ، فعملت المستحيل لحضوره. وإذ لم أجد مقعد طائرة في اليوم المحدد، فلقد قررت أن يكون سفري قبل يومين من ذلك التاريخ، وذلك على الطيران الإيطالي، فكانت التذكرة: عمان–ميلانو– ميونيخ.

أستغرب لماذا يختارون مواعيد «الطائرات الغربية» القادمة والمغادرة عمّان لتكون في أحلك الأوقات، بعد منتصف الليل بكثير؟

أتمشى- بطولي الفارع النحيل- في قاعات مطار ميلانو الذي هبطت فيه الطائرة في الساعة السادسة صباحاً، انتظاراً لطائرة أخرى ستحملني على بساط الريح بين ركابها إلى ميونيخ في الساعة الثامنة صباحاً.

أتفرج على المعروضات التجارية في السوق الحرة، وفي الاتجاه الآخر أشاهد بقايا امرأة عجوز تتكوم على مقعد عربة كهربائية كبيرة، تقودها موظفة في المطار، وبعيداً عنها أرى عاشقَين يافعَين يتضاحكان

وهما يتطايران كفراشتين، وعلى الجهة الأخرى تمر مضيفات طيران وهن يسرن معاً بلباسهن الأزرق الرسمي، الذي يبرز أنصاف أفخاذهن المحمية بالكولونات الشفافة، مثل سرب طيور بحرية...أراقب القادم والمغادر، فألتقي شاباً يافعاً يُعرِّفني على أنه فلسطيني من رام الله، وأن اسمه خالد، يقول لي إنه مسافر إلى أهله في ميونيخ على الطائرة نفسها.. أشعر أنني قد وجدت ونيساً على هذه الرحلة!

أسير مع رفيقي الجديد، الأقصَر مني قليلاً، والأكثر سمنة ، ونحن نتحدث في قاعات المطار عن أهل رام الله، الذين هاجر معظمهم إلى أمريكا وأوروبا، اللتين تنكح كل منهما القضية العربية الفلسطينية، فتنجب منها قضايا كثيرة، تجعلها مضطرة لأن تحفظ ماء وجهها، وذلك بأن تلم بعض لُقطاء هذه القضايا، وأن تضع في فم الجائع منهم فتات خبزها، بدل أن ترميه في حاويات القمامة، فيكبر الجائع بخبزها، ويتطبع بطباعها، فيخدم بلادها!

يأخذنا الحديث الفرِح المؤلمُ الساخر المعذِّب الضاحك، ولكننا ننتبه لنفاد الوقت، فننتفض مهرولين إلى حاجز استقبال المغادرين إلى ميونيخ، مما يلفت نظر رجال أمن المطار، الذين يتابعوننا ونحن نبحلق بمضيفة (اليطاليا) الجميلة، الواقفة ببدلتها الزرقاء السماوية خلف حاجز استقبال تذاكر وأمتعة المسافرين، والتي تقول لنا بكل رقة:

«أقلعت الطائرة منذ دقائق، في تمام الثامنة!» تقول هذا وهي لاتزال مبتسمة، ثم تشير إلى الذي يقف بعدنا بالدور.

لا نبتعد، بل نبقى متشبثين بالحاجز، كتشبثنا بجذع شجرة، في مهبات الرياح العاتية إلى السماء.

أشعر أنني قد خرجت من مدى جاذبية الكرة الأرضية، فكيف أعود إلى الأرض، أُمّي، بعد هذا الضياع؟

لا يخفى عليكَ منظر وجهي الخائف المرتبك.

وبينما هي تكلم المسافر الأوروبي الذي كان خلفنا فصار أمامنا، وتمدُّ يدها الرقيقة لتأخذ منه وثائق سفره، أقاطعها بقولي:

«كيف نتصرف في هذه الحالة؟».

تخفف الجميلة من توتُّرنا بابتسامة لا تفارق وجهها، وتقول:

«الطائرة القادمة والأخيرة لهذا اليوم ستقلع بعد ساعات ثلاث، فانتظراها، وتعالا قبل الموعد بساعة».

ولتأكيد الحجز تقوم المحترمة بتثبيت اسمينا على الرحلة اللاحقة، كي لا ننام في المطار إلى ظهر اليوم التالي، فأشكرها و«أحمد الله الذي لا يَقطع ولا يُضَيِّع!»، ونعود نموء في ممرات المطار، وكأن شيئاً لم يكن، إذ يقول لي رفيقي **خالد**: نحن الفلسطينيين «خدّ معَوَّد عاللطم!».

أتسكع مع الشاب الذي أعرف أنه يصغرني بحوالى خمس سنوات ، في طرقات المارين بين المطارات، ونحن نتحدث بكلام فارغ. «أيّ كلام يا عبد السلام!» الولد يحدثني بلهجة فلاحي غرب رام الله وجنوبها، الذين هو منهم، والذين يسميهم جارنا أبو سمير مازحاً:

«رَبع تشِلّتشُم»، فبدل عبارة: «على حساب الكُلّ»: يقول لي: (عحساب التشِل)، وبدل كلمة «وإلا»، يقول:(إنتشِلّا)، وبدل كلمة «نأكل» يقول «نو تشِل»!

ولقضاء الوقت، ندخل السوق الحرة، لنتفرج على هذه المعروضات المُشهِّية، فلا نبقي في قاعة المسافرين عرضاً إعلانياً للسفر بـ«اليطاليا» إلى بلاد أوروبا المسعدة إلا ونقرأه، ولا مرحاضاً للتبول إلا ويجرب كل منا جرابه!

أعدُّ الدقائق إلى أن يأتي الوقت، فندخل بلهفة إلى الطائرة، التي تقوم لتصل بنا إلى مطار ميونيخ بيُمن الله ورعايته، متأخرين عن موعد وصولنا ساعات ثلاث!

لا أنتبه إلى أن ميونيخ هذه هي بلد الألعاب الأولمبية السابقة، التي لا تزال تهتز متزلزلة لوقع حادث قتل الفدائيين الفلسطينيين، الذي تم داخل أحد ميادينها الرياضية الأولمبية.

ننزل مثل بقيّة خلق الله من الركاب، «ويا غافل الك الله!» نقدم جوازيّ سفرنا إلى مكتب الأمن يا حبيبي، يدققها الأمني، ثم يتحدث بالهاتف، وما هي سوى دقيقة ونصف من الهدوء، ومتعة مشاهدة مسافري المطار، والمناظر الجميلة التي تحيط بك، ومدى النظافة والتطور الحضاري الذي تنعم به هذه الألمانيا، وهذا السرب المتجانس من المضيفات المتناسقات القدود، اللواتي يُدرن رأسك بلباسهن الرسمي الأحمر، والمارات معاً بحقائبهن اللواتي يجررنها

خلفهن، واللواتي يبدو أنهن من الطيران الصيني، إذ أن مؤخراتهن مستقيمة مع ظهورهن، وكنت قد قرأت أن هذه المؤخرات الماسحة هي معلم جمالي لدى المرأة الصينية، بعكس ما لدى نساء بلاد الغرب، أو ما لدى نسائنا العربيات من إليات مربربة، ليقول عنها العراقي «عليكِ خوش قفة!»..وتدلّل يا مدلّل!

لحظات تمر كلمح البصر، آه والله كلمح البصر، «وهِبٍّ للنّبي!» وإذ بنا نفاجأ برجال الأمن يحيطون بنا كإحاطة السوار بالمعصم، ولكن بمنتهى الضبط والربط المُهذبَين. وفوراً يعتقلون جوازيّ سفرنا، ويدققون فيهما، ثم يجلبوننا بكل احترام وتقدير- الواحد يشهد الحق!- ويدخلوننا إلى غرفة خاصة للتفتيش.

ننتظر داخل الغرفة بقلبين يتكتكان لرعب المفاجأة..

تُحضَر حقيبتانا مُكتّفَتين بمنتهى الاهتمام والترقب، وكأنهما حقيبتا عروس جرباء، مزفوفة من مغارة أبيها **الغول**، فيأمر الضابطُ صاحبي **خالد** بفتح حقيبته، بلغة إنجليزية طبعاً لأننا لا نفهم اللغة الألمانية، فيفتح ابن الثامنة عشرة حقيبته بكل براءة وامتثال، وفجأة، يرعبُنا كلبٌ بحجم الجحش، وهو يتقدم نحونا بكل هيبة واقتدار، متصدراً موظف أمنٍ يسير مجروراً خلفه! أي والله، بحجم الجحش!

ولكن الدنيا ليست فالتة! فالجحش، أقصد «الكلب الأمني المدرب» مربوط بجنزير. وهذا الجحش الذي تستهزىء به، المدلدل اللسان، كحبل مجلخ السكاكين الطويل، يستطيع لو أُعطي الأوامر أن

ينقضّ عليك، وينهش أهلك، بل ويقرمش عظامك إذا ما..لا سمح الله، ولا قدّر، ولا كان! روح يا شيخ! الله يكفينا الشر، برّه وبعيد!

ورغم أن المحترم يحاول التخلص من الجنزير، والانقضاض على فريسته أمام قائده، الذي يمسكه ويُتَنِّح بجنزيره إلى الخلف، ليمنعه من اقتراف الإثم المريع، فأنت لم ترتعب منه، ذلك لأنه «ماسكه»!

والعبد لله، المدعو أنا، بصراحة فيَّ عادة سخيفة جداً، إذ كثيراً ما تراودني حكايات مضحكة في أشد المواقع المخيفة. قد يكون ذلك بهدف تناسي الرعب المتوقع، أو للتخفيف منه، فهذا الكلب المهول يجعلني أتخيَّل تلك الطرفة التي حكاها لي الأزعر **خالد** حول فتاة فلسطينية فلاحة بريئة، فوجئت وهي خارجة في طريق قريتهم بشاب يبول واقفاً خلف شجرة وارفة الظلال، فلم تملك المسكينة إلا أن رجعت مرعوبة إلى الخلف، فقال لها الشاب المحشور:

(أمرقي! أمرقي! لا تخافي! أنا «ماسكه»!) ولذا فأنا لا أخاف من هذا الكلب الشرس، ذلك لأنني أشاهد رجل الأمن «ماسكه!»

يتقدم الكلب محاولاً الإفلات من جنزيره الذي يُكبِّل عنقه، فيعتلي حقيبة الولد خالد، بلا مؤاخذة، كما يعتلي أنثاه، ويأخذ يلحسها! ليست الأنثى التي يلحسها، وإنما يلحس الحقيبة وما فيها، ويشمشم هنا وهناك، ويحشر أنفه بين ملابس اليافع المسكين يميناً ويساراً، و«من تحت لفوق، ومن فوق لتحت!» ويستمر هكذا غير مبال

بكل أعراف ومواثيق «الأمم المتحدة ضدنا»، يفعفلها، ويُبَهدِل الذين خلّفوها، ويجعل أعاليها أسافلها.

يفلس البطل الهُمام في اكتشاف أي شيء ممنوع، فينزل عن ركوبته متعباً، فيتم إخلاء سبيل الولد، ليستمر في طريق خروجه من المطار، غير ناظر إليّ، ولا مودعاً بالسلامة، وكأنه يشتمني، ويشتم الساعة التي التقاني فيها! أعذره، فالرعب الذي يلمّ بنا يجعلني لا ألومه، حتى لو بال في بنطاله، فهل هو فاضي للسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...؟

أعرفك أيها الجبان! أنت تمطمط الكلام، لتتجاهل الرعب الذي يعتريك، ويضعك في فوهة المدفع الموشك على الانفجار! قد يكون هذا صحيحاً، فلقد جاء دور حقيبتك يا حبيبي في التفتيش..

يقول لي شرطي أمن يشاهدني مرتعباً وهو يقف إلى جواري:

«لا تخف منه! إنه مُدرَّب ولا يعتدي على أحد!».

وعلى كل حال، فالكلب في عُرفنا نجس. ويقول شاعرنا في هذا الصدد:

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول.

أشعر بحرج كبير وأنا أتخيل ملابسي وهي تتعرض لفعفلة فم الكلب النجس وقلبه ولسانه، وأن كرامتي هي التي ستُداس في أضعف الاحتمالات، وسيتم اعتلاؤها ولحسها ثم فعفلتها، ولعن أبوها، فلا أملك إلا أن أبقّ الحصوة، وأقول للضابط:

«لو سمحت لي: أنا موفد بدعوة رسمية إلى مؤتمر «قادة شباب الأرياف في العالم»، والذي سيعقد بعد غد في (هيرشنج- ميونيخ)، وهذا هو كتاب الدعوة، ولا يُعقل أن لا أجد من يرحب بي في بلادكم سوى هذا الكلب! أنا أرفض التفتيش بهذه الطريقة، فإما أن تقبلوا حقيبتي التي خضعت للقانون، وفُتشت مثل غيري من سائر المسافرين في المطار، دون كلب يشمشم ويلحس، وإما أن تعيدوني إلى بلدي!».

يتناول الضابط المرتفع القامة والمزهوُّ بنجوم كتفيه كتاب الدعوة الذي سحبته من جيبي وكأنني أسحب سلاحاً، وأبرزه له فيقرأه، ثم يتناقش مع حاملي النجوم على أكتافهم في الأمر، في حلقة بانتوميمية يعقدونها وقوفاً إلى جواري بنجومهم المكتظة، ثم يقترب أحدهم مني، فيسألني عن علاقتي بالشاب خالد، فأقول له:

«مجرد علاقة مطار عابرة، فأنا لا أعرفه، وهو لا يعرفني من قبل».

فيلاطفني رجل الأمن قائلاً:

«نحن نعتذر لك. لا تقلق. أنت مُرحب بك. يبدو أن السبب هو تلقينا مخابرة تفيد أن شابين عربيين في مطار ميلانو قد تخلفا عن طائرتهما، وغيّراها متجهين إلى ميونيخ». ولكنه لم يقل لي إن الرسالة ربما قالت:

«يعتقد أنهما عربيان إرهابيان، قد يكون لهما ارتباط بزلزال اجتياح إسرائيل للبنان الذي يجري حالياً في عملية تسميها إسرائيل «سلام الجليل»، خصوصاً وأن ميونيخ لا تزال تحتفظ بملفات مرعبة لألعابها الأولمبية عام 1972!».

وهنا يشد قائد الكلب جنزيره، ويخرج من غرفة التفتيش آمناً مطمئناً، وهو يُحسِّسُ على رقبة رفيقه، وكأنه يشكره على قيامه بالواجب!

أجر حقيبتي بحيلي المهدود، وأنا أقول لنفسي:

«هذا هو أول الغيث! يا لطيف!».

فندق ميرنا!

كنت قد سألت قبل سفري من عمان، فقال لي أحدهم إن هناك حارة في ميونيخ يكثر فيها العرب، وتجد فيها فندقاً مقبولاً ورخيصاً اسمه **فندق ميرنا**، أعطاني عنوانه، فكتبته خطياً واحتفظت به.

أركب قطار الأنفاق يا أبو الشباب، الذي أشاهده يدخل مندفعاً في سراديب معتمة مثل ثعبان مصقول الجسد لانهائي الطول، ثم يخرج منها بكل جرأة واقتدار، جاحظاً نور الشمس المكسوفة بعد الظهر، فأرى عمارات وأشجاراً وشوارع فيها سيارات..مناطق نظيفة هادئة لا يمشي فيها أحد!

يوصلني القطار إلى محطة قريبة من المنطقة المقصودة، ومن مكان قريب تقف فيه سيارة أجرة، أنقر على شباك السائق، فينظر إليّ، ويفهم بالإشارة أنني أريد أن أستقل سيارته، يفتح الشباك فأعطيه العنوان المكتوب على ورقة، فيغلق كتاباً كان يقرأه، ويضعه في جيب السيارة الأمامي جهة اليمين، ثم يشير إليّ للركوب. يعجبني كون سائق الأجرة في بلادهم لا يستمر في سواقته حارثاً شوارع المدينة بحثاً عن زبون، بل يقف في جيب مُعد لوقوف سيارات الأجرة إلى يمين

الشارع، وبذلك يوفر بنزين السيارة، ويقلل من تلوث البيئة بغازات عادمها النفاثة، ويقلل من زحمة الشوارع باكتظاظ سيارات الأجرة المتدافعة وهي فارغة (عطّال بطّال!) فيجلس مرتاحاً في سيارته يقرأ كتاباً، فيتثقف، ولا يُضيع وقتاً في انتظار الزبون، ولكننا نحن العرب أمة لا تقرأ!»

يُشغِّل السائق سيارته التي تتحرك بهدوء، فتسير بسرعة منضبطة بين شوارع هادئة، فيوصلني إلى الفندق المقصود.

الوقت في ساعة الحائط المواجهة لي حوالى الخامسة بعد الظهر. يقف في وجهي موظف الاستقبال سميناً فارع الطول، فيكلمني بالألمانية دون ابتسام: «نعم؟ أي خدمة؟» أقول له بالإنجليزية: «أريد غرفة نوم بسرير واحد». وبناء على طلبه، أدفع له جواز سفري والنقود المطلوبة مقدماً ـــــــــــــــ أدخل غرفتي، فآخذ حماماً ساخناً ينعشني، ويغسل أعصابي، فيزيل عنها وعثاء السفر، ثم أتمدد على سريري دائخاً، فأنام القيلولة دون هز!

أصحو في المساء، فأفتح كتاب «أغاني الأغاني» وهو موجز لمجلدات أبي فرج الأصفهاني، وأقرأ منه قصصاً وحكايات تضحك وتدهش، ويستمر ذلك إلى وقت غير متأخر، فأغفو ثانية، لأرتاح من متاعب يوم شديد اللهجة!

في صباح هذا اليوم الثاني، أتناول إفطاري في مطعم الفندق بين نزلائه الكثر، ثم أخرج لأتفرج على الحي المتواضع المباني والشوارع..

جو شهر حزيران صيفي مع رطوبة معتدلة الحرارة، والشمس دافئة وغير حادة. عندنا في بلاد العرب كل شيء حاد! الشمس على رؤوس العباد حادة، وتدافع الناس بعضهم ببعض حاد، وكل واحد (يحشر أنفه في اللي له، واللي ملهوش) ويتدخل في شؤونك الخاصة بطريقة حادة، وعلاقة الموظف بالمواطن المُراجِع لإنجاز معاملته حادة، وعلاقة الحاكم بالمحكوم حادة، وقرون الفلفل طعمها حاد، وكرابيج حلب التي كانت حلوة، صار طعمها حاداً بعد احتلالات إسرائيل لفلسطين ولبنان وأجزاء واسعة من سوريا والأردن ومصر، وانتشارها من هناك إلى بقيّة أقطار الوطن العربي، والمرأة تلبس الثوب الأسود الحاد، ولهذا يقف العربي حادّاً على حِداده!

يقف هنا رجلان على الرصيف، يضعان أيديهما في جيوبهما. يبدو أنهما يتشمسان. أتفحصهما بنظراتي. أشاهد أحدهما يلف ساقيه على بعضهما لولبياً بطريقة فذلكة، فتكون اليسرى جهة اليمين، واليمنى جهة اليسار.

أتستغرب كلامي الفارغ؟ جربها، لترى أنها وجاهة سخيفة، والآخر الواقف معتدلاً مثل (تيس عاهرة!) يبصق على الرصيف، ثم يلتفت فيقول بلهجة عربية شيئاً لصاحبه الملتف على ساقيه! يبدو أنهما مقيمان في هذه المنطقة. أشعر بحرج لهذا المشهد! حتى عندنا في بلاد العرب يخجلون أن يفعلوها!

أستغرب لماذا يقفان قبل الظهيرة وهما يتشمسان مثل بطارق

الثلوج، ولا يعملان في بلاد الغربة؟ ولكن أنا ما لي ولهذان الـ..؟ ألم أقل لك إننا نتدخل في شؤون الآخرين بطريقة حادة؟

أبتعد عنهما باتجاه محطة الحافلات العمومية!

أقف أمام لافتة الحافلات، فأقرأ أن الحافلة تصل إلى هنا في الساعة الثانية عشرة ودقيقتين 12.02 وتغادر في الثانية عشرة وأربع دقائق12.04. أستغرب فلسفة الأرقام الألمانية هذه. هل من الضروري كتابة: «ودقيقتين..وأربع دقائق»؟! لماذا لا يكتبون (12) ثم (12.05) مثلاً؟

يصر فضولي- الذي لا يُصدِّق شيئاً- على الوقوف تحت اللافتة لمدة عشر دقائق، إلى حين وصول الحافلة المحترمة، لأتأكد من فلسفة الوقت هذه!

أُدهش إذ تأتي في تمام الساعة الثانية عشرة ودقيقتين. أصعد فيها لأتفسح دون دليل يُكلفني الشيء الفلاني، إذ أعرف أن الحافلة تسير في خط محدد لها، فتعبر عدة مناطق داخل المدينة، ثم تعود من هناك إلى المكان نفسه، في دورتها الخاصة بها، وهذه فرصة للتفسح في المدينة، ومشاهدة معالمها بأرخص الأجور.

وبالفعل تتحرك الحافلة في تمام الساعة 12.04 دقائق! صحيح يا عالَم أن النظام نظام! أشعر أن الغرب قد سبقنا لأنه يدقق في الوقت، ويوظف الزمن، ونحن نعرف أن «الوقت من ذهب، إن لم تحرص عليه ذهب»، وأن «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»، وكلام فارغ كثير

من هذا النوع، أقول «فارغاً» لأننا لا نطبقه، ولا نهتم به، حتى أنا الذي أنتقد هذا وذاك، متفاخراً بذكائي أمامك، وكأنني أنموذج النموذج، تطير طائرتي من ميلانو دون أن أشعر بالوقت، ولا أحسب له حساباً، فأتعثر بكل ما يلي ذلك!

الله يخرب شرّك يا عمي **أبو تحسين**، لاأزال أذكرك وأنت تعيد على عمي **أبو فادي** في كل مناسبة تلتقيان معاً المقولة نفسها، بينما أنا الصغير أتفحصكما بنظراتي! والله ما كنت أفهم من كلامك شيئاً! وعمي **أبو فادي** كان مُبَلِّماً مثلي، لأنه يريد أن يستر حاله مع صديقه الثرثار **أبو تحسين**، الذي طوال الجلسة ولسانه المندفع من بين بقايا أسنانه المسوّسة يُلعلع عن انضباط الألمان:

«يا رجل الألمان! لما الألمان! هذول الألمان يا عمي لما يقولوا الألمان شي! كانوا عندنا الألمان يا رجل في حيفا! الألمان شي مش معقول! صدقني إنْهم الألمان! زي ما بقول لك! وسوف ترى!».

المهم أنه يختم بقبقته غير المفهومة بقوله:

«وسوف ترى!» فيبقى عمي **أبو فادي** طيب القلب جالساً صامتاً وهو يختم مؤيداً كل كلمة يقولها صديقه، الذي يعرف عن قرب يهود الألمان، المهاجرين من بطش هتلر، والذين استضفناهم في حيفا بين الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، فتجمعوا هناك وقعدوا في حي قريب من البحر، تحت معبد عباس، ذي الحدائق الجميلة، ثم سكنوا متماسكين بلجوئهم إلى فلسطين، التي أحسنت وفادتهم في تلك

الأيام، (نحن يا خبيبي مساكين مظلومين..) يقول لك أحد المهاجرين اليهود، وذلك قبل أن يستقووا بنتائج الحرب العالمية الثانية، فينقضوا بتزويد الإنجليز والحلفاء على سكان حيفا، مثل انقضاض تماسيح المستنقعات الساكنة على غزلان الغابة المتطاردة خلف بعضها بعضاً في مجموعات مندحرة.

أتناسى التماسيح وغزلانها، فأتفرج الآن على ميونيخ الجميلة دون دليل، ودون معلومات عن الأماكن التي أشاهدها، إذ أنهم لا يتكلمون هنا مع الأجانب بغير الألمانية، رغم معرفتهم بغيرها.

الحافلة تتوقف ثم تسير، ومن شباكي أشاهد معالم كثيرة. هناك عمارة عالية ضخمة مكتوب على قمتها (BMW)، وبعدها برج محمول على أنبوب ضخم، ترتفع قمته في السحاب، تظهر بعده دائرة محلقة في الفضاء لملاهي الأطفال تشبه دائرة قزح[1]..

تتوقف الحافلة ـــــــــــ ثم تسير، وهذه منطقة واسعة مصممة على شكل استاد كرة قدم، وملاعب رياضية مدهشة، تظللها مجسمات عملاقة لخيام عربية، ولكنها حديثة التصميم ـــــــــــ لاحقاً فهمت أنها كانت للألعاب الأولمبية التي جرت في ميونيخ، والتي قَتَلَت فيها أسلحةُ الكوماندوز الألماني خمسةَ فدائيين فلسطينيين، كانوا قد

---

(1) هي دائرة قزح، وليس قوس قزح، كما شاهدها المؤلف في شلالات نياجارا، واحتفظ لنفسه بهذه الملاحظة، التي وثقها في رواية سابقة، وهي في الحقيقة دائرة مكبرة عن قرص عين الشمس!

احتجزوا رهائنهم من الرياضيين الإسرائيليين، بهدف تنفيذ إسرائيل الإفراج عن عدد من المعتقلين العرب في السجون الإسرائيلية[1].

ينتابني شعور بتشابه كبير بين السجون النازية والسجون الإسرائيلية لعشرات آلاف المعتقلين الفلسطينيين، وأستغرب كيف يرضى الإسرائيليون الذين يدّعون أمام العالم أنهم مظلومو التاريخ، أن يتحولوا إلى قاتلين ومهجِّرين لشعب بريء، لم يقترف أي ذنب ضدهم، سوى أنه قبل بهم لاجئين في بلاده التي سكنها منذ بدء الخليقة!

تستمر الحافلة في سيرها من شارع رئيس إلى شارع فرعي، بينما أنا أشاهد معالم ميونيخ وجمالياتها من العمارات المختلفة الأشكال

---

(1) ويكيبيديا- في 5 سبتمبر 1972م، أثناء دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ، حدثت مذبحة شاركت فيها غولدا مئير رئيسة وزراء (إسرائيل) بتعنّتها، حيث احتجز الفدائيون الفلسطينيون أحد عشر فرداً من الفريق الأوليمبي الإسرائيلي كرهائن، للمطالبة بالإفراج عن 236 معتقلاً في السجون الإسرائيلية معظمهم من العرب، إضافة إلى كوزو أوكاموتو من الجيش الأحمر الياباني. أحاطت الشرطة الألمانية بالمبنى، وتمركز القناصة على أسطح المباني المجاورة وبدأت المفاوضات مع الفدائيين بحضور وزير الداخلية الألماني الذي عرض عليهم في البداية مبادلة الرياضيين الإسرائيليين بعدد من المسؤولين الألمان، ولكن منفذي العملية رفضوا هذا الطلب، وعرضت السلطات الألمانية مبلغاً غير محدد من الأموال، ولكن هذا العرض رُفض أيضاً، لأن المطلوب هو تحرير السجناء الفلسطينيين. فتمت مهاجمة الجميع من قبل الكوماندوز الألماني الذي قتل كلّ الرهائن الإسرائيليين، وخمسة من الفدائيين الفلسطينيين، وشرطياً وطيار مروحية ألمانيين!

والألوان، والمجلّلة بالحدائق الغناء، والتي يصعب وصفها من دون تصوير أشكالها الهندسية الأندلسية الطابع، حتى تصل إلى نهاية طريقها، وتتوقف هناك، فلا أنزل مع آخر راكب، بل أبقى في انتظار عودتها في الخط نفسه، لتعيدني إلى الموقف الذي صعدت منه، وبالفعل أنزل في المكان نفسه، وأتجه إلى المنطقة التي سميتها «حي العرب».

وبعد ساعات من المشي والتجوال للتعرف إلى طابع الحياة هنا، أشعر بالجوع يتكور في بطني، وينهش معدتي، فيطل من عينيّ، ويدفعهما للبحث عن مطعم أتناول فيه طعام الغداء؛ وقد صار الوقت عصراً.

أصل إلى مطعم صغير قابع في الطابق الأرضي على يسار الفندق، مكتوب اسمه باللغتين؛ العربية والألمانية، **مطعم ميرنا** . أدلف إليه، فإذ به غاص بالزبائن الذين يضع كل منهم رأسه في صحنه، ويمضغ بصمت. يبدو أن بعض الزوار أغراب مثل حالتي، وأن بعضهم من سكان المنطقة. تأتي نادلة متوسطة العمر، معتدلة الطول، ومحشوة بسمنتها، ووجهها الأشقر الزهري المحمر، مثل رغيف الخبز المقمر إلى طاولتي الصغيرة، بعد أن مرت على بعض طاولات الزبائن ـــــــ مؤكدٌ أنها ألمانية. تقف أمامي، فأقول لها بالإنجليزية:

(وط دو يو هاف؟) فتقول لي بحزم امرأة ألمانية عسكرية آمرة:

«لا توطوط! هذا موجودا» تقولها بعربية جافة، ثم تشير بقلمها

الذي تكتب فيه الطلبات، إلى لوح محفوظ على الجدار، مكتوب عليه بالطبشور وبلغة عربية:

طبق اليوم: (بامياء مع الرز)، (فاصولياء مع الرز)، (بطاطا مع الرز) وتضيف بلهجة مكسرة: «أُتلب!» تقول هذا وهي تطاول لتتجه نحو غيري، وذلك لشدة حرصها على الوقت، أتدارك غلاء ثمن وقتها، وأطلب بامياء مع الأرز! تسجله على دفترها الصغير برقم (1)، وتذهب من دون أن تقول «حاضر». يبدو أنها تعرف أن الزوار، وحتى المقيمين في هذه الحارة من العرب مضطرون لولوج هذا المطعم، نظراً لرخص أسعاره، ثم لكونها أطعمة عربية الطابع.

وفي انتظار طبق الباماياء مع الأرز، أجلس أتفرج على جدران المطعم ومحتوياته، فأرى رجلاً ضخم الجثة يجلس خلف طاولة الحساب، وانتفاخ كرشه المندفع إلى الأمام يرتفع ليسند مساحات واسعة من صدره المتراجع إلى الخلف، وشعره الغزير الأشعث يهيمن على طاولة الإدارة بكلتا يديه، ويحتضن صندوق الآلة الحاسبة، وكأنه يحتضن العالم بين ذراعيه، ولا يرى غير فاتورة الحساب. لا يتحدث مع أحد. ومن خلال نظارته الطبية الواسعة، والتي تنزلق تحت حاجبيه الكثيفين على مقدمة أنفه الشَّعور، ينظر إلى الورقة الصغيرة، التي تأتي بها السيدة، فتغرسها على خازوق معدني صغير فوق الأوراق السابقة، والمكتوب عليها رقم الطاولة، ومبلغ النقود المطلوبة. يقبضُ القابضُ المبلغَ المقبوض دون أيِّ مجاملة، فيُنفِّض جيوب الزبون، ثم يتجاهله حتى دون ابتسامة. يبدو أنه عربي!

المرأة المُقَمّرة الوجه تأتي من خلف حجاب المطعم ومعها عشرة صحون مدرّجة فوق بعضها، ومملوءة بالطعام الطازج، الذي يتصاعد البخار الشهي من لحومه وشحومه، فتوزع الطلبات، ثم تجمع الفوارغ، بينما فوطتها تمسح الطاولات تحتها، ثم تعود وهي محملة بكومة صحون مأكولة، وقمتها مجللة بالعظام وبقايا الطعام. ليس لديها وقت للاستراحة أو شم نفَسها! تأتي وتعود بحركة نحلة متنفضة. درِب درِب درِب درِب! ولكنها نحلة وحيدة في صندوق نحل عامر بالأقراص، إذ أنني لا أشاهد غيرها! هل شاهدت نحلة واحدة تخدم صندوق نحل مكتمل الحيوية والحياة؟ أقصد كيف تسيطر هذه السيدة الواثقة من نفسها على خدمة كل هؤلاء الزبائن بهذه السرعة؟

أُدهش بمدى رعايتها لنظافة هذا المطعم، وبنوعية هذا الطعام الشهي! طبعاً طعام البامياء من يديّ أمي أشهى وألذ، ولكن الجوع هنا يفعل فعله!

أثناء وجبة العشاء يُفهمني العربي الجالس مقابلاً لي على الطاولة نفسها وهو يرش الملح على صحنه ثم يُلحقه بالفلفل، أنها زوجة صاحب المطعم، هذا المحاسب، صاحب الكرش المتين، والأغلب أنهما شريكان في العمل، وليسا مثلنا نحن العرب، حيث تتخلّف الزوجة عن العمل المهني، لانشغالها ببيتها وبأولادها، بينما يختلي الزوج برأسمال عمله المتراكم، فيجمع فائضه له وحده، لا شريك له! أقول لمقابلي الذي يمارس المضغ بكل جسارة، بينما أنا أشق رغيف

الخبز العربي الصغير المنفوخ، وأغمس لقمة منه في الباميا التي تتصاعد رائحتها الشهية مع البخار:

«لقد عرف الشريكان كيف يتزوجان!».

في صباح اليوم الثالث صرت أعرف كيف أركب المواصلات العامة، وكيف أركب قطار الأنفاق، ليوصلني إلى المحطة الرئيسة للقطارات، ومنها أركب القطار، فأخرج به من جاذبية ميونيخ، وأصل إلى منطقة اسمها (هيرشنج) على ضفاف بحيرة ساحرة الجمال اسمها إميلي.

توأمي اللدود توني!

تنزلني سيارة أجرة عند المدخل الرئيس لمبنى المعهد الكبير، الذي يغرق في جو غابة كثيفة الأشجار الوارفة الظلال، فيصادفني في مدخل المعهد رجل وسيم نحيف الجسم، في الخمسينات من عمره، يرتدي بدلة رسمية أنيقة زرقاء مخططة طولياً، تُظهره أطول من طوله الطويل أصلاً.. يستدير الرجل الأنيق نحوي منتبهاً إلى الضيف المشارك القادم من بلاد برّة، ومنتظراً أن أنطق بكلمة، فأقدم نفسي له، فيصافحني بحرارة، ويرحب بي قائلاً:

«تفضل اتبعني». ثم يحمل حقيبتي الكبيرة، ويسير أمامي، ليدلني على غرفة إقامتي ونومي أثناء المؤتمر.. أسأل أحدَهم عنه بهمس فيقول لي:

«إنه رئيس المؤتمر!».

«الله أكبر! رئيس المؤتمر، ويحمل لي حقيبة أغراضي!».

أركض خلفه:

«أرجوك يا سيدي! صاحب الحقيبة أحق بحملها!» فيقول لي:

«أبداً، هذا واجب الضيافة..إنه واجب!» ورغم تكرار رجاءاتي، إلا أنه يصر على كرمه.

نصعد بالمصعد، فيوصلني إلى الطابق الثالث، ثم يتوجه أمامي وأنا أتبعه إلى غرفة قريبة، فيهجم خادم الطابق، ويأخذ الحقيبة من الرئيس، ويفتح الغرفة، ثم يضعها في الداخل، بينما يلتفت الرئيس إليّ وهو يقول:

«هذه هي غرفتك، وأنت مُرحب بك. عمت مساءً!».

أُذهل لهذا التواضع الكبير!

يدفعني فضولي للتعرف على بقيّة أجزاء هذا المبنى الضخم، المجهز بكل وسائل الراحة..غرف نوم عديدة تفتح أبوابها على قاعة داخلية للراحة والاجتماعات الشخصية في الطابق الثالث، وفي الطابق الثاني غرف محاضرات متعددة، وقاعة مؤتمرات كبيرة، وطابق أرضي، فيه مطعم كبير، وفي الجهة الأخرى بركة سباحة داخلية مدفأة، وحولها ساحات واسعة، وإلى جوارها مرقص للترفيه، ومقهى أو بار للسهرات المسائية، إذ أنهم لا يشربون القهوة، بقدر ما يشربون البيرة، وأما الإدارة، فتقع في مبنى آخر مقابل.

تتم المحاضرات والحوارات يومياً باللغة الإنجليزية طبعاً، تليها ورشة عمل تطبيقية، ثم نذهب إلى الغداء عند الثالثة عصراً، فيعود كل منا ليختلي بنفسه قليلاً، أو يذهب إلى المكان الذي يريد، فالبعض يذهب ليسبح أو ليلعب تنس طاولة، أو لينام مثلي نوم القيلولة، استعداداً لسهرة طويلة.

أستغرب كون الإدارة تُنزل كل مشارك في غرفة نوم منفصلة، وأما أنا العبد لله، فيضعونني في غرفة مشتركاً مع شاب إيرلندي قصير القامة، في الثلاثين من العمر، أشقر الشعر الغزير الناعم، الذي ينسدل حتى رقبته، قال لي إن اسمه توني، ولم يقل لي إنه يحمل شهادة الثانوية العامة فقط، ولكنه قال إنه موعود بالعمل في إحدى «منظمات الأمم المتحدة»! من هو الذي وعده؟ ولماذا يعِدون ابن الثانوية، وليس أبناء الدكتوراه الذين يملأون الأرض، فأنت لا تعرف؟!

لا تعجبني إقامته ولا نومه هذا، فأنا معتاد أن أنام في غرفة خاصة بي وحدي، ولكنني لم أعترض على ذلك، فالضيف أسير المضيف، إلا أنني فهمت لاحقاً أن شابين إسرائيليين يشاركان في المؤتمر، قيل إنهما منذ وصولهما قد أبلغا أنهما نظراً لكونهما يهوديين مسكينين مُستضعفَين، فهما خائفان من كونهما مُستهدفَين من قِبل «الإرهابيين» العرب الكثيرين، الذين يشاركون في المؤتمر من مصر والعراق والمغرب ولبنان والأردن وتونس واليمن وغيرها. قلت لمن أبلغني المعلومة:

«لا أفهم كيف يكونون مستضعفين، وقد سيطروا عسكرياً ونفسياً على الأمة العربية، فاحتلوا معظم أرض فلسطين عام 1948، وبعد اجتياحهم بقيّة فلسطين، وأراضي شاسعة من بلاد العرب المحيطة بها عام 1967، ها هم اليوم يجتاحون لبنان كلّه، تحت اسم «سلام الجليل» ويدمرون المقاومة الفلسطينية هناك بسلام تام، بعد أن شرذموها مسبقاً بسلاماتهم، ويطحنون بسلام كل لبنان والسلام!».

لهذا أشعر أن وجود توني في غرفتي ليس «لِلّه فِلِلّه!» بل لرقابة أمنية! رقابة، رقابة! أقول في نفسي، فأنا لا أخفي شيئاً في حوزتي، ولا حتى في قلبي لأخاف عليه!

لا أعرف لماذا ركزوا عليّ! قد يكون ذلك لأنني «عربي» من أصل «أردني فلسطيني أردني»، إذ أن جدي عوّاد الصّدَقي لا تزال جذوره وعشيرته من الجوابرة في الطفيلة، وبعدما هاجر إلى فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر حيث لم تكن هناك حدود بين العرب، جاء مولد أبي ومولدي هناك، فصار انتمائي لمسقط رأسي فلسطين، حتى يتحرر الوطن!

هل مكان الولادة في «أم الزينات–حيفا» المكتوب في بطاقتي هو السبب، أم إن موضوع كلب المطار لا يزال يتردد صداه في ملفاتي؟

أتخيل أن لسانه الطويل العريض لا يزال ينساب من فمه المفتوح، متأرجحاً مهدداً متوعداً! فأقرأ لنفسي نفحات من شعر نزار قباني:

«حيث تلَفّتنا،

وجدنا المخبر السري في انتظارنا،

ينكش في أوراقنا،

يشرب من قهوتنا،

ينام في فراشنا!».

في هذا المعهد الذي يُدربنا على تطوير قيادتنا لشباب الأرياف، يبدأ تنفيذ برنامج النشاطات الجماعية بانضباط تام، إذ تتم المحاضرات

بإصغاء مطلق من قبل جميع الجنسيات، وشابة سوداء مجدولة الشعر المُلبّد من ليبيريا تنكش ما بين سنّيها بإظفرها الأحمر الطويل، وتكرر النكش والنكش لإخراج شيء عالق بينهما.

يلفتني المحاضر الطويل النحيل الجسم **الدكتور ألفونس** وهو يتحدث بنظاراته الطبية المعلقة فوق أنفه الطويل عن (توجيه شباب الأرياف للتأهل لمهن مختلفة، ليتخصص كل بمهنة مُحدّدة، سواء كان شاباً أو فتاة، فلا يشتت مهاراته؛ مهنة حداد، نجار، بلّاط، مُزارع نباتات، مهنة خدمة مَزارع الحيوانات، تركيب شبكات ري، وهناك مجال واسع للصيانة في الأرياف..)، ثم يسأل للمتابعة وللاطمئنان على المشاركة:

«وإلا، ما رأيك يا **شاؤول**؟» يثبت نظارته التي تريد أن تسحل عن أنفه ويكرر السؤال **لشاؤول** أكثر من مرة. وفي قضية أخرى يغير السؤال فيقول:

«وإلا ما رأيك يا **أوشر**؟» ونظراً لكثرة التكرار، أحفظ اسم الإسرائيليين **شاؤول**، و**أوشر**، فأقول في نفسي:

«لماذا لا يهتم الدكتور الذي كُله نَظَر إلا بهذين الإسرائيليين، فلا يسأل غيرهما، كنوع من المشاركة مع المتلقين؟ هل مطلوب منه أن يُدلِّلهما، ليثبت لأجهزة تسجيل المحاضرات، ولعدسات التصوير، ثم للمخبرين أنه يتعاطف مع أبناء اليهود الذين اعتدى النازي عليهم، ليطلع درجة في وظيفته، أو ليُثبّت في عمله، فلا يُطرد منه على الأقل؟ يا سيدِي! فليسأل من يريد، وليستبعِد من يريد، فلن نحصل على الدكتوراه في هذه الدورة التدريبية!».

ينتهي نشاط اليوم، فنذهب زرافات ووحدانا إلى مطعم المعهد لتناول طعام الغداء. ننتشر على طاولات المطعم. بعض شباب العالم الثالث يقفون أمام الأطعمة المعروضة على سطح الحاجز بالمجان طبعاً، فيجمعون أكواماً منها في أطباقهم، ثم يتجهون إلى طاولات المطعم ليأكلوا، ثم يخرجون وقد ترك كل منهم نصف جبل مكوماً فوق طبق الطعام! أمتعضُ لمشاهدة بقايا الأطعمة التي ستُرمى في الزبالة، ولكنني أعذرهم، إذ أنهم نادراً ما يرتعون في مثل هذه النِعَم المحرّمة على شعوبهم!

طلبوا أن تُقدِّم امرأة من جنسية مختلفة كل مساء طبيخ بلادها، فتطبخه بمواد يحضرها لها طباخو المعهد، بناء على طلبها مسبقاً، بينما هم يساعدونها في تحضيره، حسب معلوماتها، فتقدمه معهم على العشاء، وذلك بهدف تبادل المعرفة في أكلات جديدة، والأهم من هذا لكون تحضير الطعام هو نشاط من نشاطات شباب الأرياف؛ الشابات منهن بالتحديد.

لهذا العشاء صنعت مهندستان عربيتان من مصر، في حوالى الثلاثين من العمر، طعام «المسقعة»، وهي طبخة فرن عربية شهية من الباذنجان المقلي بالزيت، مع اللحم المفروم والثوم والبصل والفلفل، المسبّك مع بضع حبات حمص وقليل من الهال، أو ورق الغار، أو شرحات الزنجبيل، ممزوجة بدقة، لتُقدَّم، فتؤكل بشهية، ويتم تذوقها بلذة..تأكل أصابعك وراءها!

التَهم المشاركون- بخاصة الغربيون منهم- هذا الطعام العربي اللذيذ خلال نصف ساعة، وكثيراً ما كانت الأطعمة المحضّرة بأيدي زميلات أخريات من جنسيات مختلفة تبقى كما هي، ولا يُستهلك منها سوى نصف المعروض، أقل أو أكثر، ولكن في هذه الأمسية المصرية، تم تنظيف الأطباق، فتُشهر الصبيتان، ويرتفع علم مصر عالياً!

يجلس إلى جواري صديقي الألماني المهندس **باتريك** صاحب العينين الخضراوين والطول الفارع المعتدل الامتلاء، الذي استلطفته منذ بدء هذه النشاطات، فنأكل على طاولة واحدة في مطعم المعهد، فأراقبه وهو يضع في صحنه كمية محدودة من الطعام، وإذا انتهت، ولا يزال له نفس في الطعام، يعود فيضع بضع ملاعق أخرى، ولا ينهي طعامه حتى ينظف صحنه، فلا تبقى فيه ذرة طعام واحدة، فأقول له:

«لماذا تنظف صحنك يا **باتريك** إلى آخر حبة أرز؟»، فيقول لي بكل ثقة وهدوء:

«كي يجد فقراء العالم بعدنا طعاماً يأكلونه».

أُدهش من فلسفة الطعام الألمانية، التي تطبق نظريتنا العربية الإسلامية القائلة: «الاقتصاد في النفقة نصف العيش!» وقول رسولنا الكريم بما معناه:

«اقتصد في الماء ولو كنت على نهرٍ جارٍ» وقوله:

«فليملأ أحدكم ثلث معدته بالماء، وثلثها الآخر بالطعام، ويبقي الثلث الأخير للهواء» وقوله:

«فليقم أحدكم عن المائدة، ولا يزال له نفس في الطعام». وقوله: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

ولكننا ننتج النظريات، مجرد ثرثرة في الهواء، وهم يلتقطونها ويطبقونها! نحن نُبَذِّر مئات المليارات النفطية، وهم يقتصدون في حبة الأرز!

نحن المالكين فقراء، وهم المقتصدون أغنياء!

أُحدِّث أختي عائشة بالهاتف، فأوضح لها قصة تنظيف صحون الطعام، وعن ضرورة أن تكون صحون الحلويات صغيرة جداً، حتى لا يأكل الواحد منا نصف محتويات الصحن الكبير عليه، فيضطر لرمي النصف الآخر في القمامة هدراً للطعام، وأقول لها:

النعمة مقدسة هنا في ألمانيا يا أختي! فترد جارتنا أم حسن التي تتسمع مع أختي عائشة على الهاتف:

«ألم يجد أخوك شيئاً يحكي لك عنه من ألمانيا سوى حبة الرز؟

أهذا هو الذي تعلمه أخوك في ألمانيا؟

قولي لأخيك إن الناس هنا شبعانة، وإن الكلاب التي هي كلاب عندنا، لا تأكل غير اللحم، وأما الرز فتتركه في الصحن، ليُرمى في الزبالة!».

أصمت لدى سماعي ما تنقله لي أختي عائشة من تعليق وهي مكسوفة، ولا أزعل من جارتنا أم حسن، وذلك لأنني كنت أحترمها بصفتها جارتنا، ليس إلا!

بحيرة البجع!

بعد انتهاء برنامج اليوم، يسبح بعض الزملاء؛ شباب وسيمونَ وفتيات جميلات في بركة السباحة المُدفأة داخل المبنى؛ البيضاء الألمانية مثل الحليب، والسوداء الإفريقية الجميلة المصقولة مثل باذنجانة طازجة، والبرونزية البرتغالية الخارجة من الماء بمتنها المربرب اللّين تحت خصر يانع هضيم، وهي تواجهك بابتسامتها كتفتح وردة جورية في حديقة أندلسية، وأما السمراوان العربيتان من مصر فلا تسبحان معنا. يبدو أنهما محافظتان!

تقترب مني في بركة السباحة شابة باسمة جميلة المحيا شقراء ممشوقة القد، ثم تبتعد. أمعن النظر فيها وهي تدير عنقها المشرئب الطويل، عيناها زرقاوان بلون السماء الصافية الزرقة. تعوم مثل إوزة ناصعة البياض في بحيرة البجع، تعود إليّ فتحادثني وهي ترشق الماء بجناحيها الطويلتين، متلفِّتة هنا وهناك. أقول لها إنها تسبح بمهارة، وتعوم بجمالية انسيابة آسرة. تبتسم وتشكرني على هذا الإطراء.

تخرج معي من البركة، فنجلس نتحادث على الحافة، وأرجلنا لاتزال تلعبط في ماء البركة، تذكر لي أن اسمها هيلين. أجدني أتشهى

قسماتها بينما قطرات الماء تنقط من أطراف شعرها القصير، فتسح المتلألئة على جسدها الزهري النشوان، فأُعرفها على اسمي.

يختفي كل منا ليأخذ رشاش ماء نقي، ثم يجفف نفسه فيعود إلى شؤونه.

يتكرر جلوسي معها على العشاء، ثم نتمشى قليلاً على مسطحات النجيل الخضراء خارج المبنى الغارق في غابة داكنة الخضرة. نجلس على مقعد عريض تحت شجرة وارفة الظلال، بعيداً عن ضوضاء المدينة وعن حركة السيارات. نسمع خشخشة أوراق شجر تتدحرج على الساحة الواسعة المزفتة بين عمارتيّ المعهد، إذ يركلها الريح بأقدامه المتلاحقة. أشعر بغرور فتوة بدايات العشرينات، فلا أُعبِّر لها عن شهوتي بمفاتنها، وهي التي في نهاية العشرينات، لا تبوح لي بعشقها وافتتانها بي. نقضي الوقت ونحن نتحادث بقصصٍ ذوات مفارقات مضحكة.

نلتقي أنا وهيلين على الغداء بعد ظهر الأحد، حيث لا دراسة ولا تدريس، وهنا نتفق على أن نذهب لنتنزه على شاطىء بحيرة إميلي القريبة من المعهد. وكنوع من الرياضة نذهب إلى البحيرة سيراً على الأقدام وهي تحمل حقيبة نسائية كبيرة، فنصل إلى شاطئها في وقت قصير.

لا أرى سوى قوارب رومانسية صغيرة، تقف متجمعة على الشاطىء الساكن سكون الزجاج الذهبي اللمعان، وثلاثة قوارب

شراعية في الأفق القريب البعيد تشهر أجنحتها مثل ذيول حيتان تتلاعب فوق الماء، وفتى يجالس صويحبته على مقعد شاطئي، وآخر يداعب فتاته الخجولة على عشب نجيل الشاطىء الذي يكسو المدى بربيع دائم، وهذا يافع يتماهى مع معشوقته الزهرية في عش منزو تحت شجرة قصيرة تظللهما، فلا يشبعان من قبلاتهما التي تذيب فيهما كل شيء، فلا تعرف أيهما الذي يتقلب في جسد الآخر!

وبرمشة عين تخلع هيلين ملابسها، فإذ بها بمايوه سباحة ذي قطعتين رقيقتين، تظهر من أطرافهما ملامح مثيرة، ثم تُخرج من حقيبتها منشفة طويلة فتفرشها فوق النجيل، وتتمطط فوقها على بطنها وهي تقول لك: «ما أحلى حمام الشمس الساطعة هنا يا خليل!».

يطول وقت استرخائنا تحت أشعة شمس حزيران المطلوبة، بخاصة للأوروبيين الشقر. أرى هيلين لوحة فنية جمالية ساحرة أمامي بجسدها الزهري البض، المتوج في منتصفه بقُبّة أنثوية لبَنية فتية مقدسة، أشعر وهي تتقلقل بطراوتها أمامي أنها أجمل من أية حورية قيل إنها خرجت من البحيرة، ذلك لأن الحورية لا تكون ملك يمين عاشقها، بل قد تذهب به بعيداً وهي تتماهى مع الموج، وقد تأخذه معها فتغرقه في ثناياها، وأما هيلين فهي حقيقة منبسطة أمامي بكل جمالياتها، ولا ينقصني سوى أن أتحسس جسدها الزهري البض.

جو رومانسي ساحر لا يشوهه في عينيّ سوى صدمتي بمشاهدة ثلاث مداخن عملاقة عجيبة الاتساع في قمة الجبل البعيد عن البحيرة، يتصاعد منها بخار أبيض، فأعرف أنها مداخن مفاعل نووي يتوارى في

تلك المنطقة، ويختفي بين أغصان الغابة، وبعد هذا المشهد النووي، لم أعد أميز «الثور من الطحين»!

كنت قد قرأت أن مهاجمة الموساد الإسرائيلي للعلماء الألمان الذين كانوا يساعدون علماء **جمال عبد الناصر** في الخمسينات وبداية الستينات على إنشاء مفاعلات طاقة نووية، وذلك بالتهديد الإعلامي أولاً، ثم بإرسال طرود بريدية ملغومة، قتلت بعض من تخلف منهم عن العودة إلى بلاده، أو من رفض التحول للمشاركة في صنع قنابل نووية في مفاعل (ديمونة) الإسرائيلي في صحراء النقب الفلسطينية المحتلة، لتكون برداً وسلاماً على كوهين!

وأنا لا أفهم في النووي، ولا في طريقة توظيفه في توليد الطاقة، ولكن كل ما أفكر فيه هو حماية هذه الكرة الأرضية الساحرة الوجود من التدمير تحت أقدام الدببة الوحشية، والخنازير البرية، الذين يتخوفون من استخدامنا للقنابل النووية، وهم يعلمون علم اليقين أننا لا نملك منها شيئاً البتّة، بينما هم ينشئون لإسرائيل مفاعل ديمونة النووي بكل مستلزماته، فينتج أعداداً لا حصر لها من القنابل النووية، ويهدونها الغواصات القتالية، المجهزة لحمل رؤوس نووية، وفي الوقت نفسه يباركون قنابلهم الساقطة «برداً وسلاماً» على هيروشيما وناجازاكي، ولا ينطقون حتى بالاعتذار عن تلك الجرائم البشرية! ولهذا أقول:

«لماذا لا تكون أشعة الشمس، وغاز الهيدروجين، وطاقة الرياح هي مصادر توليد الطاقة النظيفة المستدامة؟».

أتناسى الموضوع، فأحدثها عن الفنون، وعن الدراما التي تشدني، وتجعلني أتحسس الحياة. أوضح لها وجهة نظري في «المأساة في المسرح» التي تجعلك تنصهر معها، فتذيب كل شرورك، وتطهرك، فتخرج منها تائباً من الذنب، كمن لا ذنب له. ولكن تجاهلها لحديثي، ونظراتها الغرائبية نحوي تشعراني أنها لا تهتم بالمسرح ولا بما يمسرحون، وكأنها تقول: «وهل هذا وقته؟» لا تقول ذلك، ولكنها تخرج عن صمتها قائلة:

«انظر إلى سحر هذه البجعات العاشقة، التي تتجمع بأعداد زوجية على سطح البحيرة البرونزية الغروب، ثم تتفرق زوجين زوجين، لتعود فتلتمّ من جديد، لتتماهى معاً هناك!»، أقول لها:

«أشعر وكأن بحيرة إميلي هي «بحيرة البجع» التي قصدها تشايكوفسكي!»

تحاول الخروج من كل هذا، فتسألني وهي تنظر إلى الأفق البعيد:

«هل تحب الرقص؟» فأقول وأنا أنظر إليها مشتهياً ليونة تضاريس جسدها البض الساحر المفرود أمامي، فاتحاً نفسي على التماهي فيه: «نعم أحبه!».

أستخدم كلمة «أحبه» كثيراً، وكأنني أريد أن أقول لها إنني «أحبها»، ولكن كسر جليدي المتحجر لم يتم بعد!

لا أعرف كيف يأخذنا الوقت، فبسرعة ومن دون سابق إنذار، تحتل سماءنا غيوم رمادية كثيفة متلبدة، فتختفي الشمس، ويبدأ رش

المطر. وقبل أن يزخ علينا بشدة، تقفز هيلين، وتلبس ملابسها على عجل، فنهرب باتجاه معهدنا، حيث لا ينفعنا في مثل هذه المواقف سوى الهرب! أركض معها متضاحكاً ولكنني أفكر متحسراً على المطر الذي لا يغيب عنهم صيفاً ولا شتاءً، وعلى القحط الذي يَفِحُّ في ربوعنا صيفاً شتاءً فقط!

يلفنا مساء اليوم التالي بعتمته وحيدين متضاحكين على مقعد خشبي عريض تحت شجرة عملاقة متهدلة الأغصان، فنتفق على أن نذهب مساء غد إلى مرقص تقول إنه قريب من المعهد.

نخرج في الموعد المحدد. المرح في جوانحي يكاد أن يُطيرني فوق الأرض، والفرح في عينيّ بجعتي البيضاء الغامقتي الزرقة كبحر لُجّيّ يلوِّن ما حول رموشها بتوشيحات زهرية، والبسمات المرسومة على خديها الرقيقتين المتوردتين تلفُّها، فتجعلها ملاكاً نازلاً من السماء.

نُعبِّر عن فرحنا ونحن سائرَين وذلك بلفِّ ذراعينا حول خاصرتينا، فنشعر بحنان اللفة ودفئها، واستكانتنا لها!

نصل إلى الملهى المتدثر في قبو عمارة تجارية، فننزل درجاته ونحن نتضاحك على أي شيء. ننتحي في زاوية بعيدة عن المرقص، فنجلس قليلاً على طاولة صغيرة، ننظر هنا وهناك لنتعرف على محتوياته. تلتقي نظراتنا فيبتسم كل منا للآخر بروح رومانسية.

تأتي النادلة فتعرف أننا غريبان فتُحدثنا بالإنجليزية وهي تُعرِّفنا

على اسمها، ورقمها تسعة، وأي إشارة منكما تطلباني بهذا الاسم، أو بهذا الرقم، فأكون معكما. تطلب هيلين كأس ويسكي، وأطلب علبة جعّة، فتسجل النادلة ذلك على دفترها الصغير وتذهب، بينما تُخرج هيلين سيجارة من علبتها، ثم تشعلها، وتسحب منها نفساً عميقاً، فتدخن بين المدخنين. أضمحل وأنا أُعبِّر لها عن كرهي للتدخين الذي يعبق أجواء البارات، ولهذا فأنا لستُ من روادها. لا تنتبه لما أقول وهي تنظر مشدودة إلى الجمهور الراقص من الشباب والشابات المتقابلين المتشابكين المتمايلين، وإلى الصبايا المتقافزات حولهم، وأحياناً تجد الواحدة منهن تدور كاللولب بيد عشيقها.

وعلى عجل تأتي النادلة بالشراب، فيرشف كل منا بضع رشفات، ونحن نسخن مع الجو الراقص.

تَخترقني نظراتها الفرِحة وأنا أجبن عن المبادرة، فتطفىء في المنفضة سيجارتها التي لم يحترق منها سوى ثلثها، وتشدني بيدها الرقيقة، فأقوم معها مشدوداً، ثم نبدأ الرقص.

أرقص كما تريد هيلين، ولكنها تشعر أنني لست محترف رقص، فتحاول أن تعلمني مبادىء الرقص، وهي تضع كلتا يديّ على جانبيّ خصرها المهضوم لتطوقانه، بينما هي تطوق عنقي بيديها الناعمتين، وهي الأقصر مني بعض الشيء، فتبدو وهي تلصق صدرها بصدري وتُدنو بوجهها من وجهي، وكأنها تريدني أن أُقبِّلها من فوق لتحت، ثم نبدأ الرقص بالتماوج مع الموسيقى واللف والدوران.

المُحرج في الأمر هو أنني «الطويل الهبيل» أكتشف في هذا المرقص أنني لم أرقص مع امرأة من قبل، وأنني لا أعرف الرقص، ولا التّنيُّل بنيلة!

لا تزال الجميلة وهي تراقصني تشرئب بعنقها الطويل ناظرة إليّ وكأنني أملُها المنشود، وتحلم بسهرة ممتعة، ولكنني أتقافز كراقص سيرك طويل يخفي في بنطاله ساقين خشبيتين تحت قدميه، ليس إلى هذه الدرجة، ولكنني خجَلاً مني، أشعر بهذا الإحساس وأنا أخطىء فأدوس على قدميها، فتتألم «يا حرام»! فأعتذر لها! فتقول بصبر من تنتظر الفرح:

«هذا لا يهم، واصل رقصك!».

نهتز ونتماوج ونلف غير مبتهجين.

لا يستمر الرقص، بل يتوقف حتمياً، وذلك لشعوري بالخجل أمامها، ومن جهة أخرى لصدمتي من حديثها خلال الرقص، إذ تقول لي إنها من جنوب إفريقيا!

لا أتمالك نفسي فأقول لها:

«ولكنك يا هيلين بيضاء زهرية شقراء، وجنوب إفريقيا تعني إفريقيا السوداء!» فتقول لي وهي تشيح بوجهها الذي اختفت السعادة منه:

«ولكنك لا تعرف أن جنوب إفريقيا لنا نحن البيض، وأن هذه مسألة تاريخية عبر أجيال، وليست وليدة سنة أو سنتين!» فأَرُدّ، وقد وجدتُ شيئاً أتفاخر به غير الرقص اللعين الذي خذلني:

«إن العرب سكنوا الأندلس ثمانية قرون، وخلقوا فيها حضارة متكاملة، علّمت العالم الغربي، وأخرجته من ظلام العصور الوسطى، وطورته لعدة قرون إلى الأمام، ولكنهم أخيراً أُخرجوا من بلاد هي ليست بلادهم، وجنوب إفريقيا هي للأفارقة، فلماذا لا تعودون إلى بلادكم؟

لم تجبني المصدومة بتفاهتي المغيظة! ولكنني أتابع استفساراتي على طريقة عربنا الذين لا يسألونك عن الأصل، بل عن «أصل الأصل؟» فأقول لها:

«من أي مكان أصلك؟» فتجيب متباطئة وكأنها لا تريد أن تُصرِّح بذلك:

«أبي جذوره من إنجلترا». تقول مربكة من هذا المحقِّق الفاشل في الرقص، «وأمي جذورها من إيرلندا».

«إذن عودي إلى بلاد الإنجليز!» أرفع رأسي وأنا أتباهى بخروجي من نفق الإحراج المظلم وأتابع قولي: «ودعوا جنوب إفريقيا للأفارقة!».

يتكهرب جوُّنا الراقص، وينطفىء مزاجها في الرقص، فلا يبقى لديها نَفَس، وكأنها تقول لنفسها:

«ما هذا الفيلسوف المجنون الذي ابتليت به هذه الليلة، غبي في الرقص، ويعمل نفسه أبو العُرِّيف في قضايا سياسة جنوب إفريقيا!» لا أسمعها، ولكنني أتخيلها تقول لنفسها:

«ما هؤلاء العرب الذين يتعثرون في الرقص، وهم يعيشون اليوم في القرون الوسطى، ومع ذلك يتشدقون بالحريات!؟» فأقول لنفسي المهزومة في الرقص راداً عليها، إنها لا تعرف (فرقة كركلا اللبنانية)، ولا (فرقة رضا للفنون الشعبية المصرية)، ولا (الدبكة الشعبية الفلسطينية) التي تجعل العرب أسياد الرقص في العالم، وحتى (رقصة الفلامنكو) الإسبانية هي من أصول أندلسية عربية الجذور[1]. ولكننا للأسف كمن يرقص في العتمة، فلا يراه أحد، ولا يسجل التاريخ له شيئاً يذكر، وحتى نحن أنفسنا نتنصّلُ من أمجادنا! لم يترك لنا يا هيلين حطام الهجرات، والبحث عن لقمة العيش من أجل البقاء، فرصة للرقص والفخفخة!

نخرج من ثورة الرقص الصاخبة بموسيقاها الممزوجة بدخان يعبق المكان، وينفخ في دماغي، فنعود إلى طاولتنا المستديرة الصغيرة، البعيدة خارج حلبة الرقص، وكل منا في حال، أنا المخذول بجهلي في الرقص، وهي المخذولة في اصطيادها من كانت تعتقده صيداً ثميناً، فتجده متخلفاً بكل أبعاده، فيجرع كل منا بقية كأسه وقوفاً، وأمد يدي لأدفع الحساب، فتصر على أن تدفع ثمن مشروبها، قائلة: «نحن نساء جنوب إفريقيا لا نقبل أن يدفع الرجل عن المرأة، بل يدفع كل منا ثمن

---

(1) حسب «قاموس الأكاديمية الملكية الإسبانية Diccionario de Real Academia Española يُعرّف الفلامنكو حرفيا بأنه: (نوع من الموسيقى والرقص نشأ في أندلسيّا ، وتأسس على الموسيقى والرقص الأندلسيين، ولعب الأندلسيون دوراً أساسياً في نشأته وتطوره، وهو يقوم على ثلاثة أسس: الغناء، والعزف على القيثارة، والرقص».

مشروبه». وبالفعل يدفع منا كل حسابه، ثم نعود بصمت إلى المعهد، فلا تكلمني السيدة الشقراء بعد ذلك، ولكن ابتسامة خافتة ترتسم على شفتيّ كل منا عندما تلتقي الأعين، دون سلام أو كلام!

صارت تتجاهل معرفتنا، وأنا بدوري أقبل تجاهلها، ما دمتُ قد أدَّيتُ الرسالة، ولو بلساني، وذلك أوسط الإيمان! أقول لنفسي:

«هذه هي أقل مساهمة عولمية منك في تحرير جنوب إفريقيا. لعل وعسى أن يأتي من يساهم معنا من العالم، لدعم عودتنا إلى أرضنا المحتلة في عكا وحيفا ويافا واللد والرملة!».

جماليات نساء بريطانيا!

يصحو توني ذابلاً، فيقوم مترنحاً، وقبل أن يقول «صباح الخير» أجده يغلق فوهة قاع المغسلة المثبتة على جدار غرفة النوم، ويضع جراباته المستعملة فيها، ثم يغسل وجهه فوق الجرابات، فيرغي ويليف وجهه بالصابون، ويحلق فوق الجرابات، ثم يمسح وجهه بالمنشفة دون غسل، ويبقي كل شيء كما هو في المغسلة، ويلبس ملابسه وهو يقول: «صباح الخير»، ثم يخرج.

وبعد تكرار هذه العملية القذرة مرتين أو ثلاث مرات، أخلع الخجل، وأقول له ممغوصاً:

«لماذا تترك جراباتك في المغسلة يا توني وتخرج، لماذا لا تغسلها وتنظفها، ثم تنشرها بعيداً، تاركاً المغسلة مفرغة، لأستخدمها بعدك؟» فيقول وهو يستدير نحوي بابتسامة سخيفة:

«أنقعها طويلاً، كي يكون غسلها أسهل!» أقول مستغرباً تصرفه:

«ولكنك عندما تخرج، فإن عمال التنظيف يعتقدون أن العربي هو القذر، إذ لا يمكن أن يتخيلوا أن (الإيرلندي الحضاري) هو الذي يفعلها، وحتى لو عرفوا، فإن التقرير إلى الإدارة سيأتي مقلوباً، ليكون

الضحية هو الجاني، تماماً كما يحتل الإسرائيليون بلادنا ويقتلوننا، ثم يقولون إننا «إرهابيون!» يجيب مستهتراً بكلامي وهو يضحك:

«ما داموا يعتقدون ذلك، ويبعدون التهمة عني، فلماذا أهتم؟ دعها تنتقع!».

هل يريد توني تشويه سمعة العربي بأي شيء، حتى لو بالمغسلة؟ أشعر بكوني محاصراً في عيشي معه، بينما يرتاح وهو يحدثني عن علاقته مع زميلة لنا إيرلندية شقراء، محمرة الخدين رقيقة اسمها ماريا، يقول لي إنها خطيبته، وبعد أخذ ورد، أفهم أنها مجرد صديقة له تعرّف عليها في هذه الدورة بصفتها إيرلندية، و«هلا قرابة، هاتي لك حُبّة!»، ولكن يبدو أنها صداقة في العمق، إذ كثيراً ما كان يغيب في غرفتها غيبات النسر، وقد ينام هناك، أو لا أعرف أين يختفي إذا تأخر في السهر!

ومن حديث إلى حديث أفهم أن توني هو أحد قادة شباب الأرياف في منطقة دبلن، وبالتحديد مشرف على معهد تعليم الريفيات الإيرلنديات في مشاغل الخياطة. يُحدثني فيغمُّ على قلبي ببساطته المتناهية، وتقديمه لي كل المعلومات التي يريدها هو، بينما يشنف أذنيه ليسمع مني كل ما أقول.

أسأله ونحن نتسلى مساءً بقضاء بعض الوقت في غرفة النوم، عن علاقته مع الصبايا اللواتي يراقب تعليمهن، فيقول لي وهو يضحك، مبدياً عن سن داخلية مكسوّة بالذهب، مشبوكة بجسر معدني مع بقايا سن سوداء مهترئة، يبدو أن التسوس قد نخرها فأعدمها:

«أنا يا خليل مغرم بجمال أجساد الفتيات الإنجليزيات، بخاصة فتيات مدينة بيرمنغهام المشهورات بأنهن يملكن حجم الكمال لمقاس الجسد الأنثوي، أكثر من بنات أي مدينة بريطانية أخرى!»، يقول هذا وهو يخلع منامته، ويرميها على سريره، فيظهر جسمه القصير بهيئته الشقراء النحيلة، التي تشبه طرح البحر ويتابع:

«آه ما أحلى أجساد الفتيات! لا تقل لي شكل الغزال، ولا شكل الملائكة. المرأة يا خليل هي أجمل مخلوق في الدنيا، ولذلك استطاعت بجمالها أن تغوي آدم الجبار العظيم، وتسقطه من الجنة مثل الرطل، لتُمرغ أنفه بتراب الأرض! آآآآه!» يتأوه بحرقةٍ ثم يتابع قوله:

«المرأة جميلة فقط لو أنها تتخلص من تبعاتها! وأما أنا فلقد دربت نفسي على أن لا أتورط بتبعاتها، إذ أتناسى طلباتها الكثيرة، وأتفرغ للالتصاق بجمالياتها، لا أفكر بغير ذلك، ولهذا تقتلني فتيات «شيفيلد» صاحبات أجمل إليات في بريطانيا!».

ومن دون أن يلتفت إليّ، يتحدث توني بصوت هادىء وهو يلبس ملابس الخروج للسهر:

«لا أعرف لماذا تثيرني مؤخرات النساء، وتجعلني أسير خلفها أينما اتجهت، خصوصاً وهي تتلقلق يا صديقي، طالعة نازلة أمامك بليونة ورخص! يقولون إنها مرتبطة غريزياً بثديي الأم المرضعة، واللتين يهجم الطفل عليهما، ويحتضنهما وهو لا يزال مغمض العينين، فلا يرى شيئاً غيرهما!».

لا أجيبه على حديثه هذا الذي لم أفكر في دقة مواصفاته من قبل، وحتى لو فكرت فيها، فليس في متناولي أجساد ملكات جمال لأقيس انتفاخاتها وتخصُّرها، أو لأقوم بالتعامل معها!

يخرج رفيقي اللدود، ويغيب غيبات النسر طوال الليل، إلى أن يعود في صباح اليوم التالي للاستعداد للمحاضرات!

وفي الأمسية التالية تجده يسهب في حديثه عن جماليات النساء، ما دامت سيرة وانفتحت، وأحياناً عن سأمه من **ماريا** التي تطالبه بالزواج منها، بينما هو لا يفكر بالزواج، وإنما يريد فقط الاستمتاع بممارسة حب متحرر، وبين هذه وتلك يعرج **توني** بالتلميح لي أن الشابين الإسرائيليين **شاؤول وأوشر** محترمان..

لا أعلق على هذا الأمر الذي لا يخصني.

وبعد أن عرف أنني لست إرهابياً كما يريدون للعربي أن يكون، وأدركَ أن ليس لي علاقة بالسياسة، ولا أتحدث عنها، ولا أنشط في سبيلها، وأنني حائط واطىء، يسهل أن ينط من عليه، يتجرأ، فيعود يطؤني بحديث متطاوِل:

«ما رأيك بهما؟» فأقول مضطراً للإجابة:

«لا تعليق لي عليهما، ما دمت لا أختلط بهما! أنت لا تعرف يا توني أن هذين الشابين قد أخذا أرضي، وهدما بيتي، وقتلا أهلي، وناما في وطني معتبرين أنه وطنهما، وليس هذا فحسب، بل عملا على طرد من لم يمت من شعبي إلى بلاد الصحاري العربية البعيدة، كي لا يبقى

من جماعتنا مُصرِّخٌ يطالبهم بالعودة إلى دياره!»، فيَعلِكُ توني بكل برود متجاهلاً وجهة نظري وهو يبتسم بهدوء:

«ولكنهما بصراحة يريدان أن يتحدثا معك على انفراد. لماذا لا تحادثهما؟ فإذا طلبا منك شيئاً لا يعجبك وذلك بحضوري وبشهادتي وعلى مسؤوليتي، ارفضه يا صديقي، وبذلك ينتهي اللقاء!».

أشعر باختناق من علكته التي تكاد تسد حلقي، فأبُقُّ العلكة قائلاً له:

«أحادثهما على انفراد؟ بماذا سيتحدثان معي وهم ينفذون كل هذه الجرائم يا توني؟!» يتململ اللئيم على جانبيه ثم يقول بحنكة مراوغ:

«ها هي إنجلترا تحتل بلادي إيرلندا، وأنا الإيرلندي أتحدث مع زميلنا الإنجليزي جاك في هذا الملتقى وكأن لا خلاف بيننا! الاحتلال شيء، والعلاقات الإنسانية شيء آخر يا خليل، فما المانع أن تتحدث معهما؟» أحتار وأنا أكلِّم نفسي:

«لماذا يصر هذا الإيرلندي البعيد عن بلادنا على إتمام صفقة لقاء مرفوض كهذا، وعلى مسؤوليته وبشهادته؟ يبدو أنهم قد جندوا هذا «الطرح» الأشقر الفاشل في دراسته، والذي يقول إنه يعمل قائداً للسيدات! قد يكون مخبراً يتجسس على ما تعرفه السيدات عن الأعمال الثورية لرجالهن أو أقاربهن في «الجيش الجمهوري الإيرلندي» ضد الاحتلال الإنجليزي لبلادهن. لا شك أن سكنه معي في الغرفة نفسها لم يكن بريئاً، ونحن الغرباء، «يا غافل لك الله!».

لا أخفي عليك، صرت أدقق في تصرفاته، وصار طيف المتنبي يراودني بحضوره، ويهمس في أذني قائلاً:

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى   عدواً له، ما من صداقته بُدُّ!

يلحّ عليّ توأمي اللدود بعد ظهر اليوم التالي، يطلب أن ألتقي الإسرائيليين؛ **شاؤول وأوشر**، فأقول له:

«هل أنت مُصِرّ على هذا اللقاء؟».

يبقى واقفاً يحدق بي، وكأنه يستعطف الموافقة..

أنظر في عينيه المتلهفتين لتحقيق اللقاء المطلوب!

يُقشعر بدني هذا الذي يدفعني دفعاً للقاء لم أفكر بحدوثه ذات يوم، ولم أستعد نفسياً لتقبله..لقاء مع أناس احتلوا بلادي، وقذفوني بعيداً عنها، والآن يأتون ليجلسوا معي! ماذا يريدون مني بعد أن شردوني إلى خارج الوطن؟ هل يريدون أن يتسلوا بي وهم يشاهدونني أعود أمامهم منهكاً من التخبط في رمال الصحاري العربية؟ هل لديهم متعة القط الذي يتسلى بملاعبة فأره الذي اصطاده وكسّر مجاذيفه، فلم يعد للفأر أجنحة يطير بها أمام هذا الوحش الكاسر؟

كنت وأنا يافع قد شاهدته بعينيّ فوق باب المغارة، عصفور يتيم، يرفرف يرفرف بجناحيه، وهو لا يستطيع الابتعاد في طيرانه! مكانك طِر! حدقت جيداً في جناحيه المرفرفتين، فشعرت برعب شديد وأنا أرى فم أفعى مفتوحاً على آخره، وهي تقف وجهاً لوجه أمام العصفور الطائر أمامها، بينما هو لا يقوى على التحليق في الجو

أمام سيالها المغناطيسي! أبهذه الطريقة يصطادون جواسيسهم من الفلسطينيين ومن العرب والعالم، أوَهكذا يُرسِّخون أمثال هذا التوني اللدود؟ إنه السيال المغناطيسي إذن!

صدقني أنني رغم هذه المخاوف والشكوك، سأخوض معهما هذه التجربة وحدي!

سأقبل أن ألتقي هذين الإسرائيليين، وأن أتحاور معهما!

سأوافق على أن أعيش تجربة الحوار مع عدو يقود شباب الأرياف في أرضي المحتلة! ولم لا؟

لماذا لا نتعرف على الأطباق الطائرة التي تغزو الأرض وما عليها؟ لماذا لا أكون حاوياً، فأتحدث مع الأفعى، دون أن أتأثر بسيالها المغناطيسي، ولا أعطيها الفرصة لتعضني؟ وحتى لو عضتني، فإنني لست أول شهيد يموت بيد الأعداء!

أتحسس وجهي وجسدي! هل أنا ممغنط ومشدود «بأمراس كتّان إلى صُمِّ جندلِ؟».

قد تتوقع أن أعمل لك من نفسي بطلاً، فأقول لك إنني أرفض هذا اللقاء الفخ! أبداً.. أجدني كالفراشة التي تحوم حول النار. أواجهه بقولي:

«لا مانع لدي! أوافق على طلبك أن ألتقيهما وأتحدث معهما، لأرى كيف سيكون هذا الحديث، وما هو هدفه؟!».

أقول هذا بكل جسارة، وأنا أسأل نفسي بكل قلق:

«هل تتخاذل بموافقتك هذه؟

هل أنت نذل حقير؟

هل سيصطادونك «صيد الحمامِ؟» أم إن القصة بخواتيمها؟»".

يبتهج توني متوهج الوجه الأشقر النحيل، وهو يفتح فاه بابتسامة النجاح فتظهر أسنانه المهترئة الملتصقة بالذهب، ويكاد أن يرفرف بذراعيه القصيرتين، وكأن طوله الطّرْح قد ارتفع مترين وهو يحقق نجاحاً عظيماً! لا يتوقف أمامي، بل يختفى من وجهي حاملاً معه البشرى! يذهب مسرعاً وكأنه (ميكي ماوس) يستطيل بجسمه وينطلق مع الريح!

بعد ليلتين من ذلك اليوم، يجيئني فيقول:

«لقد رتبت لك معهما لقاءً في الساعة الثامنة من مساء غد، في هذه القاعة العلوية، أمام غرف النوم».

***

الساعة الآن تشير إلى ما قبل السابعة مساء، وهو يخلع منامته بهدوء، ويلبس ملابس الخروج.

«إلى أين يا توني؟» أسأله مباشرة.

ليست من عادة الغربيين الذين تعودوا على الحرية الفردية والانطلاق إلى حيثما يريدون أن يخضعوا لمثل هذه الأسئلة الشخصية.

يلتفت إليّ وهو يلبس جرابات نظيفة، كان قد مضى على نقعها في المغسلة يوم وبعض يوم، ويتبعها بلبس الحذاء، قائلاً:

«لدي موعد مع صديقة جديدة، امرأة طفولية الوجه والجسد، تعرفت إليها في حلقة التطبيقات العملية لهذا اليوم. لو تعرف يا خليل كم أحب أجساد الفتيات الرقيقات النحيفات، ذوات الإليات الممتلئة والخصر النحيل، بخاصة أولئك النساء الإيرلنديات الشماليات في بلفاست، طفوليات الوجوه، حيث تجد أن ملابسهن أصغر بكثير من مقاسات نساء أي مدينة أخرى في المملكة المتحدة. لم أتمالك نفسي هذا اليوم وأنا أعمل مع هذه المرأة المتوّجة بملامح طفولية، فتواعدنا على الخروج معاً لنسهر خارج المعهد». فأقول له وقد أغراني الحديث:

«أستغرب دقة تفاصيلك لمواصفات أجساد النساء، هذا الميدان الذي لم أسبر أغواره بعد. يبدو أن خبراتك واسعة في هذا المجال، فهل أجساد بنات بلفاست مختلفات عن أجساد غيرهن من بنات مدن بريطانيا؟ يقول وقد انتهى من ترتيب هندامه، ووقف بملابسه الرسمية:

لو كان لدي وقت لحدثتك بالتفصيل المدهش عن نساء مدينتي ليفربول وليدز، فهن يملكن أكبر النهود التي أعشقها وأغرق في ثناياها، وأما فتيات شمال شرق بريطانيا، فلهن أجمل السيقان اللواتي أتمنى لو أركع بينها، مبتهلاً، وطالباً الشفاعة!».

«وماذا عن فتيات لندن، هل لهن مواصفات مختلفة يا توني، أم إنهن خليط من هذه وتلك؟» فيقول ويده تقترب من باب الغرفة الذي لا يزال مغلقاً:

«أشعر أن فتيات لندن يتمتعن بأكثر الأجسام إثارة في بريطانيا!» أقول له وأنا أضحك ساخراً:

«هل هذه هي الخبرة التي خرجت بها من تخصصك في قيادة شابات المدن، متجاهلاً شابات الأرياف، اللواتي أعتقد أنهن روافد نقية لجماليات نساء المدن الملوثة بيئياً؟» فيقول وهو يمسك يد الباب للخروج:

«إن حياة الرجال لا معنى لها دون عشق النساء. لقد فشلت في كل عمل قمت به ولكنني نجحت في عشق النساء!».

أشعر أن الحديث عن جماليات النساء يلذ للرجال، إذ أنه يثير فيهم هرمون التستستيرون الدافق للرجولة والحيوية الذكورية، ولهذا أحاول أن أنتشي بعالمه النسوي الذي لا يزال يحدثني عنه، فأقول له بشغف الجائع:

«لم يبق جزء من أجساد النساء البريطانيات والإيرلنديات لم تحدثني عنه سوى الأكتاف والأذرع، فهل لهن جماليات مدهشة يحكى عنها؟!».

يعود عن الباب، ويجلس على سريره قبالتي، مسروراً بشعوره أنه خبير في ثقافة أجهلها، وأتعلق بمعرفتها، وقد يكون هذا الحديث هو طعم الصنارة، الذي يصطادون به أغبى السمك، ويقول:

«تسألني عن هذه الجماليات الأنثوية، فأفيدك أن فتيات مدينة مانشستر يملكن أفضل الأكتاف والأذرع، فيما تملك فتيات مدينتي بريستون وريديتش أكثر الصدور تسطحاً، وهذه الأخيرة ما لا أحبها في بريطانيا».

ينظر توني إلى ساعة معصمه. أشعر أنه مستعجل للذهاب إلى صديقته الجديدة. يقوم ويخرج، تاركاً إياي وحدي أعتصر دمي الفائر في شراييني، لقلة حيلتي، ولوجود أولويات تبعدني عن استقطاب النساء!

وهذه العلاقة غير الصادقة من طرفه مع ماريا، تجعلني أحاول الانتقام منه فأُسرِّب لها شيئاً من شعوره الزاهد تجاهها، فعندما ألتقيها خارج الدرس، أقف معها، فألاطفها كثيراً، وعندما نكون معاً في العمل التطبيقي الجماعي الذي يلي المحاضرات أقترب منها وأطيل الحديث معها. الصبية رقيقة بريئة خجولة، وكأنها قادمة من ريف العصر الروماسي الجميل. أقترب من خديها الأبيضين المشوبتين بحمرة ذات شقار زهري شهي، فأوشوشها في أذنها بأنها ذات جمال ساحر، ثم أسألها أين اختفى توني، قاصداً إثارة قلقها حول هذه العلاقة!

صارت تشعر بتعاطفي معها، فتمر بطريقها وهي تنظر إليّ بودٍّ فتغمزني بعينها الجميلة باسمة، تعبيرَ «مرحباً» بين الأصدقاء بالمفهوم الإيرلندي!

عدة لقاءات وأحاديث شخصية صرنا نتبادلها في أي مكان نلتقي داخل المعهد، فأجدها تشكو لي عدم مصداقية توني في علاقته معها، ويزداد اقترابها مني في كل مناسبة، فأُسلِّم عليها وأنا ألتقيها بقبلات أطبعها على خدها الزهري الساخن بتعطُّش، فتدير لي خدها الرقيق الآخر على طريقة «من قبّلك على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر» فأطيل

القبلة المُستدارة وأنا أشم أريجها، بينما هي تستكين مستمتعة، ثم تنظر إليّ بعينيها الخضراوين بتدلُّه وهي باسمة خجلة. أشعر أنها تتصرف معي بمنتهى البراءة، ولا تتحدث بشيء يُستشف منه الشك، مما يؤكد لي أن لا علاقة تجسسية لها بتوني، الذي يبدو وكأنه يبحث عمّن يخلعها منه، كي يتفرغ لعلاقة حميمة مع نساء غيرها.

تسهر ماريا إلى جواري هذه الليلة في مقهى المعهد.أضحك مستغرباً غياب توني، فتقول لي:

«لا أعرف أين يختفي منذ أسبوع، وحتى إذا مرّ عليّ، فيبدو وكأنه يعرفني كأي زميلة غريبة عنه!».

أحاديث كثيرة في القيل والقال، تحدثني عن بلادها الإيرلندية، وكيف أن الفقر وظلم الاحتلال الإنجليزي في بلادهم جعلا كثيراً من الإيرلنديين يهجرون وطنهم إلى الأمريكتين.

الحزن يطل من عينيها الهاربتين كطائرة مخطوفة، أتأمل فيهما، فيزداد تعاطفي معها، وتعلقي بها، فأقول لها إنها طيبة وبريئة، والأهم من هذا كله إنها جميلة جداً، وإنني أحب ملقاها، فيزداد احمرار وجنتيها اتساعاً على مساحة وجهها الأبيض الزهري.

تعزف موسيقى الرقص قريباً منا. أتمنى لو أتعلم الرقص بين ذراعيها، بعد أن فشلتُ فيه مع هيلين التي لم أعد ألتقيها، أعرض عليها رغبتي، فترحب بذلك، وفي المرقص تأخذني، تعلمني إياه خطوة خطوة.

ضع يدك اليمنى على خاصرتي اليسرى،
ضع يدك اليسرى على خاصرتي الأخرى،
ضمني بين يديك،
طوقني بذراعيك،
دعني أتعلق بكتفيك،
راقب حركة رجليك،
تابع عزف الموسيقى،
لندُرْ معاً ملتصقين،
نتماوج في حفل الرقص،
كل منا بجناحين.
أُرقص وتثنَّ مثلي،
واجهني داعبني لاعبني.
أرقص واهتزّ كما تبغي،
فأنا ظل يتبع جسدك
لولب بين أصابعك يدور
يتماهى بين ثناياك
يكتب كلمات فوق سطور
دعنا نجعل هذا الحفل، كالدر المنثور!

أنتشي وأنا أسمع تغريدها هذا، فأتشجع وأتقن الرقص في دقيقتين، فتواصل رقصها معي إلى أن يأتي الفاصل.

تتوالى اللقاءات المسائية فنسهر في بار المعهد، وفي كل مرة تعزف فيها الموسيقى آخذها معي إلى المرقص، وخطوة خطوة، أصير راقصاً جيداً في مثل هذه المناسبات، يشجعني على المتابعة دفء الخدين الزهريين المُشعّين بمودّتهما!

في هذا المساء نشاهد فرقة موسيقية هاوية من شباب الأرياف، مكونة من ثلاثة عازفين متعفرتين بشعورهم الكثة وبصلعة قائدهم التي يستعيض عنها بإطلاق لحية سوداء شَعورة، فيبدعون بعزفهم، ويشعرونا أن نشاطات الريف ليست كلها نباتية وحيوانية.

وما أن ينطلق عزفٌ راقصٌ من آلاتهم المتناطحة، بدل المسجل الذي لم يكن يتعفرت معنا على حلبة الرقص، حتى يطلب زميلي التونسي **عبد الودود** الجالس إلى طاولتنا من الزميلة النروجية **بريجيدا** الجالسة معنا أن يراقصها، فتستجيب الجميلة له، وهذا يفتح نفسي على مرافقة **ماريا**، التي تقوم معي بكل سرور. نرقص، و**عبد الودود** يراقص زميلته التي تشبه قالباً من الجبنة البيضاء قريباً منا، ومع التسخين أشاهد التونسي يُقبِّل **بريجيدا** قبلات حارة في وجهها مقترباً من شفتيها، فأراها تبعد وجهها عنه بأدب، فينزل بشفتيه إلى رقبتها، مما جعلها تنظر إليّ وهي لا تزال تراقصه بمنتهى الأدب والاحترام للمكان وللرقص الذي قبلت به. ونظراً لكون **عبد الودود** لا يعرف اللغة الإنجليزية، ولا النروجية تعرف اللغة الفرنسية التي يتقنها زميلي بموجب الثقافة الاستعمارية، أجدها تستنجد بي بلغة إنجليزية، قائلة:

«أرجوك يا **خليل** أن تقول له إنني ما زلت عروساً وأحب عريسي، وإنني لا أطيق قبلاته التي تخرجني عن طوري!».

وبدل أن أبلغه بذلك، وأتدخل بما لا تحمد عقباه، فقد يزعل مني زميلي العربي، «الهجين، الذي وقع في سلة تين»، أضع وجهي في وجه **ماريا**، التي تتدله عليّ وتبتسم بسعادة غامرة، بينما أحتضنها بدفء وحنان، فأوشوشها في أذنها، شاكراً قبولها دعوتي للرقص معي، فتقول لي:

«أشكرك على دعوتك لي، فأنت تسعدني!».

وبعد عدة اهتزازات ودورات واقترابات وابتعادات، تعود البريئة تشكو لي همومها وهي تراقصني قائلة:

«لا أرى الطيبة في **توني**، بل أراه لا مبالياً، وأحياناً أجده يجرح مشاعري بعلاقاته العلنية، بعكسك أنت الذي تهتم بمرافِقتك، وتُشعرها برعايتك لها، وتمسُّكك بها. أتمنى لو أكون معك، لو أعيش معك، فأكون لك، وأسافر معك إلى بلادك العربية، التي أتخيل أنها ستكون جميلة!».

تشجعني الموسيقى الراقصة مع فراشة طائرة أن أغني لها وأنا أراقصها، مترجماً لها تلك الأغنية الفيروزية التي تقول:

«يا **ماريا**، يا مسوسحة القبطان والبحرية،

يا مسوسحة القبطان!

يا ماريا، يا طالعة من البحر ردي عليّ،

يا طالعة من البحر!

قالوا بنيّة بعيونها نيسان عم يِتفيّا،

بعيونها نيسان!

جننتيني يا بنت يا شقرا،

لا تنسيني في حيكُن سهران!».

لم تتوقع ماريا أن تسمع مني غناء عربياً بهذه الرومانسية الساحرة، وهي أيضاً رومانسية دافئة وحنونة، وبسيطة كحمامة برية أضاعت الرفيق، فتلتقي ذكر كش الحمام، فتعشقه من أول لقاء!

لست ذكر كش حمام ولا نيلة، ولكنني تشجعت هذه المرّة لأُصاحب صبية أعرف أن توني يتسلى بها وبغيرها. وفي الحقيقة يشدني إليها شكلها الرومانسي الجميل، وقلة حيلتها، لدرجة أن «القطة تأكل عشاءها»! هذه الشخصية التي لم ألاحظها في المرأة الألمانية الجادة العملية. قد يكون في داخلي غيرة من توني، الذي أشعر بروح صبيانية أنه لا يستحق هذه اللؤلؤء البحرية ما دام..!

تسحر ماريا بهذه الأغنية الفيروزية، فتقول لي منذهلة:

«ما هذه الأغنية الساحرة يا خليل؟

أنت تذيب ثلوجي وتجعلني أتعرى أمامك لشدة الحر!

كنت أتمنى أن أسمع من توني مثل هذا الشعر الجميل،

وأن أحس بهذه العواطف الدافئة،

ولكنه شاحب بارد!».

لا أسألها ما إذا كانت له رائحة، ذلك لأن رائحة جراباته لا تزال

تشعرني بالاشمئزاز، ولكنني أسألها بناء على هذا الحديث الراقص (سلو) أن نكمل رقصتنا على انفراد بعد انتهاء السهرة، وذلك في غرفة نومها، فتتمنّع بخجلها.. تصمت قليلاً، ثم تقول:

«لقد وعدني بالزواج بعد أكثر من لقاء، ويا ليته يرتبط بي وحدي، فأنا أراه يصاحب غيري، ولا يتورع عن ذكر تفاصيل مخزية عن علاقاته الغرامية لدرجة تغيظني منه. لم يعد يحبني يا خليل! إنني أكرهه!»

أترجم لها بيت أبي النواس الذي يقول:

«فقُلتُ الوَعْدَ سيدتي فقالتْ كلامُ الليل يمحوهُ النهارُ».

تبتسم مندهشة من احتواء الثقافة العربية على مثل هذه المقولة، وتقول: «إن التعابير الشعبية الحكيمة متشابهة في مختلف بلاد العالم!»

أكرر طلبي بقولي:

«ما رأيك أن نكمل المشوار؟».

تنظر في عينيّ، بينما دمعتان حزينتان تنسابان من عينيها الخضراوين على خدها الأشقر المتوهج ناراً، مثل الشفق الأحمر قبل المغيب. أضع خدي على خدها فأجده ساخناً ملتهباً، فأوشوشها في أذنها مؤكداً لها زيارتي المرتقبة بعد ساعة من الآن.

تضع رأسها في الأرض خجلة مبتسمة، وتصمت بلا معارضة، ثم تتركني خارجة من المرقص إلى غرفة نومها مسرعة، بينما عيناها لاتزالان ترنوان إليّ أن....!

السلام، والسلام!

«أمام غرف النوم، أمام غرف النوم!» أقول لتوني مؤكداً وأنا أضم ذراعيّ إلى صدري! وبالفعل يأتي شاؤول وأوشر في الموعد نفسه. نلتقي في تمام الساعة الثامنة مساء، دون ابتسامات، ودون مصافحة.

أول مرّة أقف فيها وجهاً لوجه أمام عدو قتل أهلي، وقتل فيّ طفولتي، وسرق مني كل شيء. وطني، وثروتي، وتراثي، وحضارتي، ومسح بكرامتي مؤخرته، فعشت ممسوخاً أينما ذهبت!

نجلس أمام غرف النوم على المقاعد التي لا يشغلها أحد في مثل هذه الليالي، فنبدأ التعارف بحضور المُنظِّم توني، بقولي:

«ما هو المطلوب في هذا اللقاء»؟ فيقول شاؤول الكثيف شعر الرأس بعينيه البُنيتين المُذبّلتين بتواضع مُصطنع:

«عرفنا أنك أردني من أصل فلسطيني، فطلبنا لقاءك لنتعرف عليك، ولنُعرفك بأنفسنا، ونحن لا نريد شيئاً منك يا خليل إلا أن نكون أصدقاء معاً».

يتحدث كثيراً بكلمات كأنها مسجلة على أسطوانة مشروخة، عن

السلام وما أدراك ما السلام، الذي لم أشعر به منذ ولدت، ولن أراه حتى وفاتي التي لا أعلم متى ستكون.

وقبل أن ينهي حديثة، يعرج ممتدحاً الرئيس **أنور السادات**، الذي أرسى قواعد السلام في «الشرق الأوسط»، وأنهى الصراع في «الشرق الأوسط». و«شَرَقَ الأوسطَ في الشّرقِ الأوسط»! وأضاف **أوشر** الخفيف شعر الرأس لدرجة الصلع قائلاً:

«ما لنا وللحُكام يا **خليل**، نحن يهوديان من أصل عراقي، كنا نعيش في بغداد بسلام وهدوء ومحبة، وكان والدي ساعاتياً مرموقاً في مهنته، وكان والد **شاؤول** طبيباً محترماً في بغداد، ثم قامت الوكالة اليهودية بخداعنا، وذلك باستخدام كل الوسائل من ترهيب وترغيب لتهجيرنا من هناك إلى إسرائيل، ومثلكم وجدنا أنفسنا مهجرين من بلادنا. نحن مثلكم مظلومون. والآن وبعد أن وجدنا أنفسنا هكذا في بلدين متجاورين، نريد أن نفتح صفحة جديدة من السلام مع بعضنا بعضاً، لنكون جارين متعاونين في السلام!» وقال **شاؤول** مؤكداً بيده المرفوعة مفتوحة نحوي:

«نحن نريد أن نعمل معاً لتحقيق السلام في الشرق الأوسط. السلام هو خريطة طريقنا».

يستغربان صمتي الذي زاد على ربع ساعة وأنا أبحلق بعينيّ وأشنِّف أُذنيّ على اتساعهن، ولهذا يشير **شاؤول** إليّ بالتعليق على ما سمعت، فأقول له مختصِراً من الآخر، وبكل هدوء:

«ما دمتم يهوداً عرباً من العراق، وتعترفون بالظلم الواقع على كلينا معاً، فلماذا لا تعودون أنتم إلى العراق، وبالمقابل نحن نعود إلى حيفا ويافا وعكا؟» فيقول ذو الشعر الغزير بصوت منخفض:

«هذا أمر مضى وانقضى، ولا نستطيع إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء. نحن أولاد اليوم يا خليل. نحن نبحث اليوم عن السلام في المكان الذي نعيش فيه والسلام». يرتفع صوتي قليلاً:

« أنا أعتقد أن كلاً منكما ضابط في كتيبة عسكرية معينة، ويحمل رقماً عسكرياً محدداً، ويشارك في العمليات العسكرية التي لم تتوقف منذ بداية اللعبة الدامية وحتى انتهائها، بينما أنا لم أحصل على فرصة التدرب على السلاح في يوم من الأيام، ولم أدخل الجيش في حياتي، فمن هو الذي يمارس السلام على أرض الواقع، نحن أم أنتم؟».

ينظران ومعهما المرافق الخاص توني إليّ باهتمام غير مريح، بينما أواصل حديثي بصوت بدأ يرتفع تدريجاً:

«أنتم معجبون بتسويق كلمة السلام في الشرق الأوسط، ولكن السلام لديكم هو استسلام الوطن العربي كله، لتقوم مكانه إمبراطورية إسرائيلية! لاحظوا أن علمكم عبارة عن خطين أزرقين، هما نهر الفرات من الشرق، والنيل من الغرب، فوق أرض بيضاء تسطع فيها النجمة، بياضاً يمتد إلى ما قبلها وما بعدها، وما فوقها وما تحتها.. كل أرض، وربما كل الكرة الأرضية، تريدونها مستسلمة، بيضاء من غير سوء تجاهكم، فما دمتم شعب الله المختار، فكل ما تعتقدونه من

نزعات وما تفعلونه من آثام، هو مقبول ومتحقق، وفي اعتقادي أن هذا أكبر من أطماعكم! صحيح أنكم تسيطرون على الحصة الأكبر من رأس المال العالمي، وتوظفون أصحاب المصالح والمرتزقة الأجانب لخدمة أغراضكم». أنظر إلى توني، ولا أقول:

«مثل هذا التوني»، بل أواصل قولي:

«وتعتمدون على النفوذ الغربي لتسخير بعض ولاة العرب ليتحكموا برقاب أبناء جلدتهم، بهدف حماية كيانكم.. إنكم لا تبحثون عن سلام آمن لكم، ولا لغيركم، بدليل ما يفعله جيشكم اليوم في لبنان من «مذابح» تسمونها «سلام الجليل»، فأنتم تنظرون إلى العربي نظرة دون، ترونه مجرد جمل تائه في الصحراء، وتنسون أن هذا الجمل قادر على البقاء والمقاومة رغم كل الظروف القاسية المحيطة به..».

يبتسم شاؤول ساخراً من سذاجتي، بينما أواصل التعبير عن موقفي:

«تنسون أننا لسنا ساذجين وأبكاراً مثل الهنود الحمر الذين داهمهم الانقراض على حين غرّة، بل نحن (خدّ معوّد على اللّطم.) منذ حرب طروادة والإسكندر المكدوني، وهولاكو والصليبيين، ونابليون والاستعمار الحديث، الذي قرر إلزامنا بحمل إسرائيل على أكتافنا كأمر واقع، ونحن نقاوم الاعتداءات المتكررة على بلادنا..».

ينظر شاؤول وأوشر إلى بعضهما بعضاً وهما يستهجنان كلامي المجنون هذا، فأتابع قولي بنبرة صوت تعلو تدريجاً، فيكاد يسمعها ساكنو الغرف المحيطة بنا:

«لست أدري أي ذنب اقترفناه ضدكم، فلقد طردوكم من بلادكم الأوروبية، ليتخلصوا منكم، فيحققوا بذلك أحد وجوه انتصارات الحرب العالمية الثانية، تحت ادعاءات شتى، ولم يجدوا لكم مكاناً أجمل من بلادنا، فقذفوكم إليها، ولكننا نحن المسالمين استقبلناكم في فلسطين أحسن استقبال، فسكنتم بين بيوتنا، وعشنا معكم وتعايشنا معاً، ومعكم زرَعنا وصنَعنا وتاجرنا بروح الجار للجار..».

يستمر صمتهم مترقبين نهاية حديثي، فأتابع قولي بصوت يزداد علواً، وأنا أؤشر بإصبعي الشاهد ويدي مضمومة:

«تقولون إن النازيين صفعوكم صفعات قاسية، فأتيتم لتردوا الصاع صاعين لنا، وليس لهم. ولكننا لا نستحق منكم أن تقتلونا أطفالاً وشيوخاً وشباباً، وتجرفوا بيوتنا، وتشفطوا مياه آبارنا، وتخلعوا أحسن الشجر المثمر في حقولنا، وتوقفوا الشمس حتى تبيدوا مدننا، وتطردوا من لم يمت من مشردينا ليتقدّدوا في الصحاري العربية..!».

يتململ كل منهما للوقوف وإنهاء الحديث الذي فُتح لكي لا يغلق، فأواصل حديثي قائلاً بصوت يرتفع متساخناً أكثر فأكثر:

«ولكننا ومع كل هذا الهوان البادي علينا، والذي وضعَنا فيه حكامُنا الفظّون الغلاظ القلوب، فلسنا ضعفاء، وما دمنا على شواطىء هذا البحر المتوسط اللعين، فإن قدرنا هو مقاومة كل عدوان على أرضنا.. وأما ما تقولانه عن «سلام كامب ديفد»، الذي لا نحفظ منه سوى مقولة مناحيم بيغن:

«إذا كان الليكود يعدكم بـ(إسرائيل الكبرى) من النيل إلى الفرات، فأنا أعدكم بـ(إسرائيل العظمى) من المحيط إلى الخليج!». هذا هو السلام الذي تريدونه، أرضاً تخرج لكم بيضاء من غير مقاومة! ولكنني أقول لكم:

إن السلام الذي عقده معكم أنور السادات لن يتم إلا بعودة الفلسطينيين المهجرين في مختلف بقاع العالم إلى وطنهم في عكا وحيفا ويافا..إلى فلسطين من غابات الجليل إلى صحراء النقب..».

أُعيد ترتيب جلستي على المقعد، ثم أقول:

«نحن لا نمانع في عيشكم في فلسطين؛ مواطنين آمنين، نعيش معكم في دولة ديمقراطية حقيقية، تماماً كما جاء إلى بلادنا مهاجرو الشركس والشيشان وألبانيا ويوغوسلافيا، وكما جاء الأرمن، وها هم يعيشون اليوم معنا إخوة محبين محبوبين، لا نفرق بين أحد منهم.. هذا هو السلام الشامل الذي سيبقى!

تعتقدون أنكم تَقتلون فتنتصرون، ولكنكم لا تعرفون أنكم كلما قتلتم، تورطتم في جرائم تفوح روائحها اليوم على تلفازات الكرة الأرضية..تعتقدون أنكم تحاصروننا، ولكنكم لا تعرفون أنكم أنتم المحاصَرون من قِبل مليار ونصف مليار مسلم ومسيحي وعربي، لا تستطيعون ذبحهم، ولو استخدمتم كل أسلحة الدمار الشامل التي تخبئون!».

يحنق شاؤول وأوشر على كلامي الذي أقول، ولكنهما يبقيان

صامتين لأكمل حديثي، فيفهمان ما يقوله هذا «العربي المغفل»، فأتابع قولي:

«لقد قتل الصليبيون في باحة المسجد الأقصى وحده خمسة وسبعين ألف مواطن مسالم، كانوا محتمين في ساحات بيت الله، وقتلوا مائة ألف مسلم كانوا محتمين داخل أسوار معرّة النعمان[1].. وقتلوا وقتلوا، ولكن النتيجة حسمت في معركة حطين[2]، فعاد الفرنجة إلى بلادهم، وعادت بلادنا بعد مائتي سنة إلى أصحابها، عربية الأرض واليد واللسان! وحتى لو قعدتم في بلادنا ثمانمائة سنة فلن تستقروا فيها، فلقد قعد العرب في الأندلس ثمانمائة سنة، وصنعوا فيها حضارة مذهلة، ولكنهم أُخرجوا منها، لأنها ليست أرضهم العربية!».

يُفاجآ ومعهما توني بهذا التدفق المعرفي، الذي لم يكونوا يتوقعونه! لا يعجبهما كلامي، فيقاطعني شاؤول قائلاً:

«لو عرفنا أنك ستكلمنا بهذه الطريقة، لما كنا قد أتينا أصلا للحوار معك!».

ولإنهاء الحديث يقدم لي أوشر بكل لطف وبراءة قلماً وهو يقول: «لم نتفق معك، ولكننا نحاول خلق علاقة ما. أقلّه، أرجو أن تقبل هديتي هذه لك!».

أنظر إلى الهدية، فهي قلم حبر من النوع الثقيل، مكتوب عليه حروفاً بالعبرية، وبالعربية(إسرائيل)!» فأقول له:

---

(1) كتاب أمين معلوف (الحروب الصليبية كما يراها العرب).

(2) – معركة حطين – قادها صلاح الدين في 4 تموز 1187م.

«أعتذر عن قبول الهدية!» فيقول بدبلوماسية هادئة:

«إذا كنت ترفضه لنفسك، أعطه لأخيك الصغير، مجرد ذكرى سلام!».

«لو قبلته وأعطيته لأخي الصغير، فسوف يسألني قائلاً:

«من أين أتيت بهذا القلم يا أخي؟» فسوف أجيبه بقولي:

«هذا هدية من الذين أخذوا أرضك الفلسطينية يا أخي، وأعطوني مقابلها قلماً». وقد أُفسر قلمك هذا بأنه (قلم) باللهجة المصرية، أي (صفعة)، وباللهجة المدنية قد يكون (ألم) موجعاً، وقد يكون القلم في عرف ابن الشارع خازوقاً، لا أستطيع أن...!».

لا يضحكون على الخازوق، بل يستمرون بانضباطيتهم، ويقول أوشر وهو يعيد قلمه إلى جيبه:

«لا نملك إلا أن نحترم وجهة نظرك، ولو أننا نختلف معك في كل شيء».

نقوم معاً، فننهي اللقاء دون مصافحة، فيمضى ثلاثتهم في طريقهم، بينما أنزل وحيداً إلى القاعات الأرضية، حيث ألتقي الزملاء والزميلات في بار المعهد!

أقنعة إفريقية!

تسكن في الغرفة المجاورة لي صبية سوداء من أواسط إفريقيا، مصقولة الوجه، معتدلة الطول، ممتلئة البطن والوركين بلا إفاضة، كانت مساء أمس تسهر معنا في مقهى المعهد، ونحن نتحدث في أمور شتى، ونتعرف على عادات وتقاليد كل منا، فقالت إن اسمها أبيبة، وإن مهنتها في بلادها هي تعليم النساء الريفيات صناعة الأقنعة الإفريقية، وهي مهنة تحتاج إلى معرفة لثقافات القبائل الإفريقية، وتفهُّم فولكلور البلاد التي تريد التعبير عنها، مع فنية مدروسة، وحرفية عالية في القص والتشكيل، وتجسيم الشخصيات، وحفظ الخشب من عوامل التلف، ودهانه، وجعله قابلاً للاقتناء في بيوت الميسورين الأفارقة، لتعيش روحها معهم بصفتها رصَداً لهم، وطوطماً تحميهم من الأرواح الشريرة، والأشباح الهائمة، وبعضها تُجسد لهم آلهتهم، فيعبدونها أو يَتيمّنون بها، وبعضهم يضعونها على وجوههم في الحفلات الشعبية، وكذلك في الأفراح، وقد يستخدم بعضها في الأتراح أيضاً. وأضافت أن معظم إنتاج هذه الأقنعة يكون للتصدير إلى بلاد الغرب، التي تحب فنون الأقنعة الأفريقية، إذ ترتبط عندهم بفنون التمثيل وبالشخصيات المسرحية..

تشدني معرفة ثقافة هذه الأقنعة وجو صناعتها أكثر من غيري من الزملاء، وذلك لشدة عشقي للمسرح، ولإيماني بأن وجه الإنسان ما هو إلا أحد الأقنعة البديلة التي يستخدمها، ولا يلبث أن يغير أقنعته التي يتقمصها في كل مناسبة، ولهذا فأنا أقتنيها وأجد أن رفوف مكتبتي تتزيا بهذه المعلقات، التي أتخيلها تتحدث معي حيناً، وتستحضر لي عوالم الشخصيات التي أتخيلها أحياناً، فتؤنس وحدتي، إذ ألتجىء إليها لتحميني من عالم متلاطم، يمور بالرعب من شرور الإنسان.

ومما قالته أبيبة لنا نحن المتجمعين من بلاد الدنيا حول طاولة واسعة مشتركة تضُمّنا في سهرتنا عن العلاقات الاجتماعية هناك:

«إن الرجال المقتدرين عندنا يتزوجون بكثير من النساء، إن استطاعوا تمويل حياة الزوجات وأولادهن، وقد يتزوج شيخ القبيلة بعشرين امرأة أو أكثر». تابعت قولها وهي تراقب نظراتنا المستغربة ودهشتنا من هذه الزيجات:

«وأما الطلاق عندنا فيتم بمجرد الهجر، ولا مانع أن يأتي رجل آخر ميسور الحال، ودون مراسم زواج، فيَلِمُّ المطلّقة، التي تُذبِّل عينيها أمامه، أو تتعلق به راغبة، أو تستسلم له، فتسير خلفه، لتصبح من أهل بيته!». وعندما تجرأتُ فسألتها عن وضعها الاجتماعي، قالت لنا إنها تعيش مع رجل يجمع خمس عشرة امرأة في بيته الكبير!

وللخروج من ظلمة أدغال شلالات إفريقيا المتصحرة القاتلة، أُغيِّر الحديث ذا الشجون، فأسأل صديقي المهندس باتريك مجرد سؤال في مجال معرفة تفكير الآخر:

«ما رأيك في الرئيس الألماني؟ هل تؤيده أم تعارضه؟» طبعاً نحن في الوطن العربي في غياب الديمقراطية التي نقرؤها في وسائل الإعلام ولكننا لا نراها على الأرض، ونظراً لأن لا أحد يستشيرنا في تعيين الحاكم الذي يَطُبُّ علينا كالقَدر المستعجل، ليتولى أمرنا، فكثيراً ما نسأل بعضنا بعضاً أثناء لقاءاتنا أو سهراتنا مثل هذه الأسئلة، ولكن **باتريك** يستغرب هذا السؤال، فيقول:

«الرئيس رئيس! نحن ننتخبه بطريقة ديموقراطية، وما دام يمثل الأغلبية، فهو في محل الثقة، ومن ثم، فلا نتساءل حول تأييده أو معارضته، إلى أن يحين موعد الانتخابات القادمة، وعندها نستطيع أن ننجحه أو نسقطه، بصناديق الانتخاب!».

***

نلتقي أحياناً بعد الظهر، فنسبح في بركة المعهد، فتقف إلى جواري، شابة جميلة بيضاء زهرية، ممتلئة الجسد بغير إفاضة، طافحة النهدين بعض الشيء، عرفت أن اسمها **ألبرتينا**. تبدو في العشرينات من العمر. وما يدريك، فهؤلاء النساء لا يظهر عليهن الكبر، فقد تكون في الثلاثينات من تعتقد أنها في العشرينات. وآداب التعارف لا تسمح لك بسؤال امرأة عن سنها، ولا عن وزنها، وذلك منعاً لإحراجها، في الوقت الذي تتمرجح المرأة فيه بعمر الرجل الأكبر منها، لتثبت له أنها تَفضُله بشيء، ولو أنه عمرها الأصغر!

ولكن عقلي الذي يسير على قضيب واحد، يجعلني أضع رأسي

في الأرض كلما تقترب مني هذه الجميلة الفارعة الطول، فما بالك وهي تقف شبه عارية وسط البركة، مثل عمود شمع أبيض شفاف، يشع نوراً وحيوية؟ هذه المرة وقفَت في وجهي في شبه تحدٍّ تقول:

«أريد أن أسألك: هل تكرهني يا خليل؟» فأجيبها بإحراج :

«أبداً! ولماذا أكرهك، فأنت شابة مهندسة مؤدبة وجميلة؟» يسرّها ما تسمع، مما يخجلها ويجعلها تقول:

«أراك كلما نظرت إليك، تشيح بوجهك عني، وكأنك تكرهني!» فأقول لها:

«في الحقيقة إنك جميلة جداً يا ألبرتينا، وأنا شاب لا أقاوم إغراء هذا الجمال، وكلما أنظر إليك، تنهار مقاومتي، ولهذا ترينني أبتعد عن النار التي تكاد تحرقني إذا اقتربت منك!».

تبتسم الفتاة بدلال، ولا تكمل حوارها بل تغطس في مياه البركة لتطفيء نيرانها، ولكنها لا تختفي عن ناظري!

حكايات كثيرة أسمعها أثناء سهراتنا في هذا البار حول طاولة مقهى المعهد العولمية الغاصة بالزجاجات الفارغة والمملوءة بالشراب، والتي تستمر حتى الثانية عشرة ليلاً، والفتاة الجميلة ألبرتينا الجالسة إلى يميني، بوجهها الباسم وجسدها الفائر، تكاد ترى الجنس الفرويدي يتدفق من عينيها، وهي تنظر إلى الألماني باتريك، الذي كثيراً ما يتجاهلها بدماثة، وبتصنع البراءة معها، بينما هي مغرمة بالتحرش الناعم به، فلا تجد منه تجاوباً، فتجدها تقول لك لتغيظه (والحكي إلك يا جارة):

«إن الألماني يقضي عمره في العمل، ولا يتوقف عن العمل إلا ليشرب البيرة، وإذا انتهى من شرب البيرة، فلا يفكر في شيء يعمله إلا أن يعود ليعمل!».

يفهم **باتريك** قصد **ألبرتينا** التي كأنها تريده أن يتوقف عن العمل فيلتفت إليها، فيقول أمامنا نحن المتحلقين حول الطاولة الكبيرة مبرراً شرب الألمان للبيرة: «يقولون: إذا كان الإنجليزي مشهوراً بالويسكي، والفرنسي مشهوراً بالنبيذ، فإن الألماني مشهورٌ بالبيرة!».

ينتبه الشاب اللبناني **جوزيف دبانة**، الطويل النحيل الأشقر، بملابسه الكاكية الخفيفة الخضرة، فيسبل شعره الناعم العسلي المنساب على رقبته، ثم يمسح شاربيه البنِّيين الغليظين المفرودين فوق شفتيه الرقيقتين، وتحت أنفه المعقوف، مثل جناحي صقر يستعد للطيران، ويقول محتجاً على تجاهل المشروب اللبناني الشهير من هذه المقولة:

«لم تذكر يا **باتريك** أن اللبناني أيضاً مشهور بالعرق الأوزو!».

ولكن الطرح **توني** الذي زرعوه ليشاركني السكن في حلقي، يتململ بقامته الصغيرة، ويعترض بتحريك رأسه جهة اليسار ليظهر جلياً لصاحب العَرَقِ، وهو يقول:

«نحن لا نصدق قولك هذا يا **جوزيف** إلا إذا أحضرت لنا زجاجة (أرك أوزو) لبناني، لنتذوقه، ونعرفه حق المعرفة!» يضحك الجميع، ويطالبونه بالتذوق، فيعدنا **دبانة** بزجاجة، يقول إنه أحضرها معه من

لبنان، خصيصاً لمثل هذه المناسبات، ليشربها معنا في ليلة ليلاء، فنصفق له جميعاً مبتهجين بالوعد!

تفوح رائحة اليانسون أو الشومر البري اللذيذ في سهرة العرق الموعودة هذه، فتكسر الحواجز بيني وبين جوزيف دبانة، وتجعلني أسأله عن الحرب الأهلية التي تحرق الأخضر واليابس في لبنان، فيقول لي:

«ولك يا خيّي، هدول اللبنانيين عيلة واحدة، بيحبوا بعض، وبيسهروا مع بعض، ولكن عندك جهات خفية، بيثيروهم بطريقة بتجنن، فبينزلوا يقوسوا على بعض، طاخ، طيخ، طاخ، طيخ!» يمسد شعره الطويل المنساب على رقبته، ثم يتابع قوله:

«في الحرب الأهلية التي يخوضها أفراد العائلة اللبنانية، بعضهم ضد بعض، دون معرفتهم أنهم يتقاتلون بالوكالة، نيابة عن جهات غريبة مُريبة، تتصارع فوق ساحتنا لتحقق كل منها النصر لها، وليس للّبنانيين، فيَقتُلون ويُقتَلون. حرب أنت لا تعرف فيها، من قتل من؟ مجرد إطلاق نار، يأتي من جهات متعددة، فيصيب جهات متعددة! إنهم يطلقون النار. الجهة الشرقية تطلق على الجهة الغربية، والشمالية على الجنوبية، والجنوبية على الشمالية، وعند الظهيرة تنطلق سماعات اللجنة المشتركة، معلنة أن الهدنة ستكون في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ولمدة ساعتين فقط يمنع فيها إطلاق النار، فينزل المسلحون بجميع طوائفهم القتالية والحزبية وفئاتهم التقدمية والرجعية والملكية والجمهورية

واليمينية واليسارية والجهوية والفئوية والشبابية والعجائزية والشرفية والقوّادية والعلمانية والدينية والإقطاعية والاشتراكية والعواطلية والمهنية والانتهازية والمرتزقة والمتطوعة للشرِّ مجاناً بهدف المرجلة والتحدي.. ينزلون إلى وسط المنطقة العازلة ليشتروا من بعضهم أكلاً وشرباً؛ جبنة ولبنة وزيتوناً وعرقاً ولحمة كبة نيِّة، ويتبادلوا الأسلحة اللي بتعجب كل واحد منهم من الثاني، فيجلسون ويأكلون ويشربون ويصلّون ويسكرون ويناموِن مع بعضهم بعضاً ويقومون، ثم يتبادلون الأسلحة التي اغتنمها كل فريق منهم من الآخر، أو يعيدونها بالتبادل أو بالمقايضة أو بالمحبة أو بالخاوة أو بالرجاء أو بالقوة، وهذا البيروتي بيحب بنت من الجماعة اللي بيقاتلهم، وهذا المقاتل الجبلي، صاحب المسدس، يلتقي مع المتطوع المدني، الذي لا يملك سوى ساعة معصمه:

«من أين لك هذه الساعة الحلوة!».

«من أين لك هذا الفرد الحلو!».

«ما رأيك تبدل، الساعة بالمسدس؟».

«الساعة بدل الفرد!».

«لأ، الفرد بدل الساعة!».

يتبادلون كل شيء، ويشربون الشاي والقهوة والعرق مع بعضهم، وعلى طاولة واحدة، منهوبة مع كراسيها من أي مطعم أو مقهى مهجور، وليس له من يحميه، ثم يعود الجبلي إلى (الجَبَال- هكذا

يلفظ «الجبل» ممطوطاً) بلا مسدس، ولكن معه ساعة جميلة، فيقابله رفاق (الجَبَال) بأسلحتهم الحديثة، فيسأله أحدهم:

«ولك من أين لك هذه الساعة؟».

«تبادلتها مع ابن المدينة».

«بدلتها بماذا؟».

«بالفردا».

«والآن أنت بلا فرد؟».

«لكن معي ساعة!» يستغرب الرفيق غباء الجبلي، فيقول لـه:

«لكن لو اليوم تحداك واحد، وسحب فرده عليك، وقال لك:

هيك وهيك لأختك! فهل تقول لـه:

الساعة خمسة ونص؟».

يضحك كل المقاتلين على حامل الساعة وعند انتهاء الساعتين المذكورتين، بيعلنوا انتهاء الهدنة، فبيقوم كل واحد إلى سلاحه، ويهرب بسرعة باتجاه خندقه، ثم يأخذون بالتراشق على بعضهم، كل باتجاه الآخر. وهات يا رش المطر، وهات يا تدمير وقتل، وهات يا بحور الدم! ولكن النتيجة أن الشيوخ بتبقى شيوخ، والناس بتموت، وبييجي بعدها ناس، وعندكم في الإسلام بيقولوا:

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لفسدت الأرض..».

«يبدو أنها حكمة ربانية، لتخفيف سكان الكرة الأرضية اللي بتشيل عن ظهرها، حتى ما تزيد حمولتها، وتقوم توقع، ويوقع معها كل من عليها فان!»

هذا **الجوزيف** بَلوة مصَبّرة، ونكتة متحركة، يضحكهم معاً، ويبكيني أنا وحدي الذي أنصت إلى تحليلاته الخبيثة بصمت، ولكنه ينحاز في تحليله، فلقد بدأت الحرب الأهلية بشرارة أطلقها حزب الكتائب اللبناني داخل حافلة ركاب في عين الرمانة، في 13 نيسان 1975، وكان كل ركابها فلسطينيين، مما أدى إلى مصرع 27 فلسطينياً.

ولكن النتيجة بعد خمسة عشر عاماً من (الطاخ طيخ) أن موازين القوى قد تغيرت، وحتى الشيوخ والرؤساء أنفسهم لم يعودوا، فلقد حدثني **جورج ضو** وهو أحد أصدقائي اللبنانيين الذي التقيته في فندق البريستول أثناء زيارتي لبيروت بعد انتهاء الحرب الأهلية قائلاً:

ولك يا خيي، كنا في بيروت إذا قطعنا البلاد من حاجز إلى حاجز، يسألوننا:

(من أي حزب إنتوا؟)

فحتى لا نقع مع حزب يساري يقتلنا، أو حزب يميني يتفنن في تعذيبنا، أو حزب تقدمي يلعن أبو اللي خلفونا، أو حزب رجعي يدفنّا تحت الأرض، أو حزب لا نعرف مين هو يحرقنا، في هذه الحرب اللي ما حدا فيها عارف (مين قتل مين)، ولذلك نبقى على الحياد، فنقول لهم:

(نحنا مواطنين، مش من أي حزب، نحنا غلابى مسالمين، من حزب الله!).

ينتفض **جورج ضو** وهو يفاجئك بقوله:

«اكتشفنالك يا حبيبي فجأة إنه تخلّق لنا حزب جديد اسمه (حزب الله) وصار هو أهم حزب بعد الحرب!

تغير ميزان القوى يا خليل، وصار «الكتايب» هم الأضعف، بعد أن كانوا هم الأقوى! فأقول لصديقي اللبناني: يقول المثل عندنا:

«شاحني وشحته، ومن عزمي جيت تحته!».

يضحك ضو الذي كان حزيناً على الحرب وعلى نتائجها التدميرية، بينما ملامح وجهه توحي بأن ضوءه قد خفت كثيراً مع الزمن الذي لم يبق منه سوى بقايا مهترئة، مقارنة مع ما كان وجهه نضراً قبل خمس سنوات، يوم كان يعمل إدارياً في عمان!

ما لي وللحرب الأهلية اللبنانية التي لم أشاهدها، ولم أستطع حتى أن أصل لأتعرف في تلك الزيارة الأخيرة على مخيمي صبرا وشاتيلا، الواقعين في قلب بيروت، واللذين تم إعدامهما إعداماً جماعياً وقبر جثث بقاياهما تحت أرض المخيمين، وذلك بالتعاون التنظيمي، والتكاتف الأهلي، والتضامن الإقليمي، والدعم الدولي، وذلك بممارسة أخوية حارة لم يسبق لها مثيل ــــــــــ وكان مخيم تل الزعتر قد تمت محاصرته بإحكام من جميع الجهات، ثم التداور عليه بمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة والرشاشات والدبابات والطائرات والصواريخ العابرة القارات والأقمار الاصطناعية والنيازك الكونية والزلازل الأرضية، إلى أن تم إعدامه إعداماً جماعياً وتسويته مع الأرض، ومسحه عن الخريطة بجنزير دبابة، ثم إطفاؤه مثلما تطفىء

شعلة سراج كاز ناعس دائخ، بنفخة من فمكَ ـــــــــــــــ (سبُفّ)!
ـــــــ (فيَـبُفّ)!

وأما في منطقة بعيدة عن التل الذي تفسخ واندثر، فإن بقايا أيتام فلسطينيين لا تزال جراحهم لم تندمل بعد، ينتشرون على سفوح الشاطىء، وهم يلتقطون الزعتر، ليقتاتوا به بعد أن قُتِل أولياء أمورهم، فتعذر عليهم الحصول على رغيف خبز!

يتمرجل بعض الأعراب فيقتلون مخيمات الفلسطينيين بدم بارد من دون رحمة، ويمسحون آثارهم تحت مسببات أمنية مفتعلة لا علاقة لسكان المخيم بها، ولا يعرف أحد سبباً لها، سوى أن الولاة العرب يفسرون عُقدهم النفسية، فتجدهم يعالجون مرض العنة الوطنية لديهم وضعف رجولتهم، فيفتحون معارك تشعرهم بالبطولة، وذلك بمحاصرة شُجاعة لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين المُسخّمين، ويأخذون بالتقويس عليهم بدم بارد، فيتصاوبون عليهم إلى أن يقتلوهم قتلاً جماعياً، لأنهم الحائط الأوطأ دائماً!

أعتذر! فلقد نسيت نفسي وعيناي تغرورقان بالدموع، فلا أرى من هم حولي. الآن أرى ألبرتينا تدير وجهها نحوي بصفة أنني في الدرجة الثانية بعد الألماني. قال لي صديقي **باتريك** قبل أيام:

«يكفي أن هذا الشيء مكتوب عليه (صنع في ألمانيا) ليكون في قمة الجودة..».. وأنا أقول:

يكفي **باتريك** نفسه أنه صناعة ألمانية، ليكون في الدرجة الأولى.

لا أعرف نحن العرب في أي درجة نأتي في عرفهم، ولكنني حسب الموجود، آتي في الدرجة الثانية، ولهذا فهي تتجه نحوي لتُعرِّفني على نفسها بأسلوب مرح:

«أنا بنت باردة مسقعة من هانوفر». فتقول لي صديقتها النروجية بريجيدا، الجالسة إلى يساري، معلقة على تصريحها المازح هذا:

«خذ حذرك من هذه الدلفينة، إنها تشرب ليتراً من الويسكي في سهرة واحدة لكي تدفأ!».

تتطور علاقتي ببطء مع هذه الدلفينة الجميلة، إلى أكثر من قول مرحباً، والسهر معاً برفقة الزملاء في بعض الليالي، وتتنامى بيننا علاقة احترام متبادل مع الأيام، فتعرِّفني أنها عضو اللجنة المشرفة على «معرض هانوفر الزراعي الدولي»، الذي يعقد مرّة كل عام هناك..

بعد غداء هذا اليوم، نخرج معاً من المطعم، فأقول لها:

«اليوم سأذهب إلى السوق، فهل أحضر لك معي شيئاً؟» فتقول:

«اشتري لي موزة واحدة!».

لا أعرف لماذا تختار الموز بالذات دون سائر الفواكه.. والأهم من هذا أنني أستغرب كيف يشترون هنا موزة واحدة، ونحن العرب لا نشتري الموز، نظراً لعدم وجود النقود معنا، وإذا كان في جيوبنا سيولة، فلا نشتريه إلا بالثلاثة كيلوغرامات، أو بالصندوق مرّة واحدة، «إن شالله ما حدا حوّش!» هذه كلمة موزة غير موجودة في قاموسنا، اللهمّ إلا إذا كانت امرأة بدوية اسمها موزة!

الشراب في هذا البار على حساب المشتري طبعاً. أشتري علبة جعة بسعر مارك واحد في هذه السهرة الطويلة، إذ لا يعرف الألمان أن يشربوا أو يعرضوا عليك غير الجعة. يقول لي باتريك وهو يحسدني على هذا الشراء البذخ:

«طبعاً يا عرب! لديكم بترودولارات كثيرة!» فأقول له:

«يا رجل، إن صناعة ألمانيا من منتج واحد فقط يزيد إيرادها على كل إيرادات النفط التي يتحصل عليها العرب مجتمعين، فما بالك بالصناعات الأوروبية والتجارة المذهلة! وحتى النفط، فبعض العرب يحصلون على الفتات من عائداته، والباقي يذهب إلى جيوب الغرب، والسماسرة، والعاملين عليها!».

وعبارة «العاملين عليها» هذه كلمة مطاطة، لا يكشف أسرارها المذهلة إلا الله، والضالعون في العلم!

بعد الشرب، يتجلى الواحد منا، وتعزف الموسيقى للرقص، فتقوم ألبرتينا تراقصني وهي تحدثني عن جماليات هانوفر، بينما أنا ألصق وجهي بوجهها، وفم كل منا يوشوش أذن الآخر. تدعوني لزيارتها هناك، فأقول لها إنني أتمنى أن تأتي الفرصة فأزورها هناك في موعد «المعرض الزراعي الدولي». تذكر لي أنها مستقلة عن أهلها رغم أنها غير متزوجة، وأنها تسكن وحدها في شقة مكونة من غرفة نوم واحدة وملحقاتها، ولكنني أستغرب تلك الحريات التي لا تعطي للمرء فرصة الحياة مع إنسان آخر يتحدث معه، فيشعره أنه موجود، وهذه الفردية

تجعلك لا ترى أمام وجهك غير المرآة، ولا تستطيع أن تطلب مساعدة من قريب إذا مرضت، أو إذا احتجت شيئاً، أو وقعت في مصيبة ما! لا أسألها عن ذلك لأنها ستجيبني أن البنك سيقرضها، وأن الصديق الذي تحبه قد يكون معها حين الطلب، وأن الشرطة سيخدمونها هم ورجال الدفاع المدني والقضاء إذا ما..! ولكن كثيراً من المصائب قد تأتي على حين غرة، ولا تنتظر الدفاع المدني ليأتي يا **ألبرتينا**! وهنا أتذكر ما قاله لي رجل فلسطيني ألماني يعيش في ميونيخ عندما سألته عن هذه الفردية، بينما كنا نأكل في مطعم **ميرنا**:

«صدقني أن انزعاجك من تدخل الأقارب والأهل في شؤونك الداخلية في بلاد العرب، ومن حشر أنوفهم في خصوصياتك، التي لا علاقة لهم بها، هو أصعب بكثير من ألم الوحدة والفراغ، الذي تتحدث عنه في بلاد الحريات الفردية!».

تتكرر سهراتي في البار مع **ألبرتينا** في الليالي اللاحقة، مع ما تأتي به هذه العلاقات من معرفة وثقافة وبهجة سعيدة، فنتضاحك كثيراً ونحن نستمتع بهذه السهرات الجماعية!

لم أكن في هذه السهرة أعرف أنني سأبني معها علاقة ودية بعد المؤتمر، وذلك بالمراسلة، وأنني سأكون رجل أعمال معروفاً، وستكون لي علاقة تجارية مع ألمانيا سببها **ألبرتينا**، التي ستوجه لي بعد عدة سنوات بطاقة دعوة تجارية لحضور (معرض هانوفر الزراعي الدولي)- طبعاً هم يزورون بلادنا من دون بطاقة دعوة، ولا

تأشيرة سفر مسبقة، تحتاج قبل دخولك إلى سفارتهم بالتحزم بمئات الوثائق لإثبات حسن سلوكك، وخلوّك من كل آفات الإرهاب، وأن معك رصيداً يكفي لتمويلك وتمويل الذين خلّفوك- ولم أعرف أنها ستُعرِّفني داخل المعرض على صاحب مصنع للبيتموس الألماني، الذي سأستورد منه حاويات من بالات التربة الورقية الطحالبية الألمانية «البيتموس»، هذه المادة العضوية الهامة لأوعية نباتات الزينة الداخلية، وللحدائق ولمسطحات النجيل الخضراء، بما فيها ملاعب كرة القدم..

ولا أعرف أنني سأزور برفقته بعد انتهاء أيام المعرض، الشارع الأحمر المتوحش في مدينة هامبورغ المشغولة بمطاحنات عالم الشحن والموانىء، فأتذكر أغنية عفاف راضي:

(كل يوم في المواني يابا كل يوم في المواني،

وآه عالمواني يابا، آه عالمواني!)[1] ولم أتخيل أنه سيأخذني معه ضمن مجموعات سياحية لمشاهدة عروض جنسية مذهلة، يتم اقترافها أمامنا على خشبات مسارح سياحية منظمة، تمنع التابوهات سرد تفاصيلها، كي لا تلوث هذه الصفحات البيضاء النقية بنتائجها المستهجنة. ولا أعرف أننا سننتهي من هناك فننتقل برفقة صاحب الأرض الثرية إلى سهول بريمن، لمشاهدة المصنع الزراعي النوعي فوقها، حيث تحتفظ الأرض بأوراق أشجارها المتحللة تحت الماء،

(1) أغنية عفاف راضي (كل يوم في المواني) كلمات عبد الرحيم منصور، تلحين بليغ حمدي.

مع ما اختلط بها من طحالب مائية، فتتجمع من سطحها وحتى أعماق باطنها وكأنه نفط أوروبي. أراضي يا رجُل، كلها (بيتموس)، تهز الأرض بقدميك، فتجد أن سطح التربة الإسفنجية الهشة المضغوطة يهتز تحتك. وآليات ضخمة تقص الأرض بعمق كبير، بشكل طولي، ثم تقصه بشكل عرضي، فتخرج مكعبات ضخمة من البيتموس، يجمعونه هناك، ثم يَنقل قطار ذو ثلاث قاطرات، مكعبات البيتموس، من موقع المنجم السطحي إلى مصنع مجهز في طرف الأرض، تجده يفرمها ويضيف لها مواد وأسمدة، ثم يعبئها في بالات بلاستيكية خاصة بالشركة المنتجة، ليصدروها في حاويات الشحن البري إلى كثير من دول أوروبا، وأيضاً بالشحن البحري من ميناء هامبورغ، أو من ميناء روتردام الهولندي الأقرب إلى بلاد كثيرة، ومنها بلاد العرب الصحراوية، وأنني سأصبح وكيلاً لها في الأردن.

لم أكن في هذه الجلسة أعرف أنني سأنزل في مطار فرانكفورت كالعادة، فأهاتف ألبرتينا، التي ستفرح كثيراً لدى سماعها صوتي، معتقدة أنني أتحدث معها من بلاد العرب، وعندما تتأكد من وجودي في فرانكفورت، تملي عليّ عنوان بيتها في هانوفر، وبصفتي أحمل رقم هاتفها، فلن أضيع..

ولم يكن في بالي أنني سأركب القطار المتجه من فرانكفورت إلى هانوفر. المسافة بعيدة بين البلدين، رغم أنها جنات على مد النظر، والقطار السريع مريح وجميل جداً، لدرجة أنه يذكرني بمفارقة قطار

الحجاز الذي أمرتنا ثورة لورنس العرب، صاحب «الربيع العربي الأول»، الذي وعدنا بتخضير صحاري الثورة العربية آنذاك، وتحضيراً للتخضير الثوري، قام بعمل ثوري مروِّع، إذ خلّع أسنان سكة حديد الحجاز، التي كانت شرايين وأوردة القلب في الوطن العربي، فصارت بقايا عربات القطار التاريخي العريق، المقطوم عندنا في عمّان، تسير خرِفةً وهي تتأتىء، فيتدرّج القطار التُّحفة في مشيته المدخنة رويداً رويداً على سكة بلا أسنان، فيضحك عليه الأطفال كثيراً في (وادي الرمم) وهم يستقلونه باتجاه بقايا «قصر المشتى الأُموي»، الذي أخذ الخبراء الألمان واجهته الرئيسة، وهم يساعدوننا في البحث عن آثارنا، التي والحمد لله، لا يعرفها أحد في بلادنا غيرهم، فأعادوا بناءها عندهم في برلين، لتكون متحفاً أُموياً أصيلاً هناك.

ولكن قطار(هانوفر) ليس مثل (قطمة) قطار الحديد الحجازي، إنه ينطلق كالثعبان السحري المنساب بسرعة الصاروخ، إلى أن أصل إليها.

ها هي ألبرتينا في انتظاري في الوقت المحدد بشوق عارم، نلتقي بعناق وشوق كبير عند باب المحطة. تمدُّ يدها الجميلة لتحمل حقيبتي وتضعها في مخزن سيارتها الأوبل الحمراء الصغيرة، فأصر هذه المرّة على حملها مهما كان كرم الضيافة الألمانية، متعذراً بكونها أنثى أولاً، وبكون الحقيبة ثقيلة، فتتركني أحملها وهي تقول مُعتدّة بنفسها، إنها تستطيع حمل حقيبة من وزني، فأنتبه إلى أنها صناعة ألمانية عفيّة،

رغم أنوثتها الجميلة ولا شك، وذلك ما يوضح مقولة زميلتنا **بريجيدا** إنها تشرب ليتراً من الويسكي في سهرة واحدة، دون أن تسكر تماماً، خصوصاً إذا دخلت في مداعبة شيطانية.

توصلني بسيارتها الجميلة إلى فندقي المحجوز لي من قِبلها، وعلى نفقتي الخاصة طبعاً، بصفتي رجل أعمال هذه المرّة. تقول لي إن الوقت مساء، فتأخذني لنتعشى في مطعم قريب على بيتها، نجلس هناك نتحدث أمام جماليات حديقة هندسية أندلسية فريدة التنسيق، ونتشهى لذة الطعام الساخن، ونتذكر أيام «المؤتمر الدولي لقادة شباب الأرياف»..

وبعد العشاء تدعوني لزيارتها في شقتها، التي نصلها في الطابق الثاني من عمارة سكنية تحمل الطابع الألماني العريق، فأدخل أتبعها إلى عشٍّ مكون من صالة صغيرة، تتعمق فيها غرفة نوم واحدة بسرير مزدوج فاره الأغطية، وعلى الجدار لوحتان إحداهما أصلية لفتاة مستلقية على السرير وهي شبه عارية. أقول لها: «إنها تشبهكِ»، فتقول إن صديقاً رسمها لها وهي في حالة بين الصحو والسكر، وأما اللوحة الثانية فهي نسخة عن لوحة للفنانة الألمانية (**روزميري تروكل**)، تعبر عن امرأة حداثية، تعيش وحيدة في العالي، فوق، فوق، ولكنها مكبلة داخل شبكة صيد. وفي الزاوية يقبع مطبخ معلقة قلاياته وأدواته على الحائط، يفصله عن غرفة الجلوس المترين حاجز، يوضع عليه ما يخص الطعام والطبخ والأكل تباعاً، وحمام ينزوي إلى الداخل، وخزائن مبنية

في الحائط، وفي الزاوية الأخرى طاولة مكتب يُكتِّفها كرسيان، وفي الثالثة تلفاز يجلس أمامه مقعدان، ومنضدة وأشياء أخرى..

كنت قد أحضرت لها معي زجاجة (ويسكي بلاك ليبل) أشاهدها تضعها على منضدة صغيرة محشورة بين المقعدين حيث نجلس، وتفتح غطاءها، ثم تحضر كأسين للشراب، وطبق مكعبات ثلج، تضعها جميعها فأعبىء كأسي بالثلج، ثم أضع القليل من الويسكي، ولكنها بعدي تصب الوسكي في كأسها إلى منتصفه دون ثلج. نشرب ونحن نتذكر مفارقات المؤتمر، ونضحك كثيراً، لدرجة تقول معها إنها لم تضحك فتفش غليلها هكذا منذ ذلك المؤتمر العتيد!

وبعد ساعة من الشرب الممزوج بالضحك، تقوم ألبرتينا، فتدخل الحمام وتغيب قليلاً، بينما أنا أحدق في اللوحتين المعلقتين على الحائطين، وأحاول أن أفهم منهما شيئاً واحداً، فإذا بي أراها وقد دارت الخمر برأسي تخرج غير واضحة المعالم وقد بدلت ثيابها، ولبست غلالة قصيرة شفافة، تكشف جماليات جسد ألماني رومانسي الطابع، فتجلس على السرير، وتدعوني للجلوس إلى جوارها، وهنا يبتدىء الكلام يحلو..

في صباح اليوم الثاني تأتيني ألبرتينا. أجدها تنتظرني في بهو الفندق، نلتقي فتصطحبني بسيارتها الحمراء إلى المعرض الزراعي الدولي، بصفتنا نشترك في قضايا الزراعة، والذي كان قد صادف افتتاحه قبل يومين، فصار يومنا هو الأخير في المعرض، وبصفتي

مهتماً بالنباتات ومستلزمات الحدائق، نصل معاً إلى جهاز يشبه حفارة الأراضي والشوارع وتقطيع الصخور، يتصل خرطومه بخزان سائل من السماد، ولإعلامنا تقول الصبيّة الفنية المشرفة عليه:

«إنه يتسع لمترين من السماد السائل المشبع بالأكسجين، وهو يعمل لثقب الأرض المغطية لجذور الأشجار، وضخ الأكسجين تحتها، بهدف تهوية جذورها المستضعفة، ثم تغذيتها بالأسمدة السائلة لتنشيطها، فتعود الشجرة خضراء قوية نضرة».

ولكن الخرطوم طويل، وآلة ثقب الأرض ثقيلة، وتحتاج إلى شاب قوي البنية، ليتعامل معها طوال اليوم بين الأشجار والحدائق. وهنا تقول الشابة العارضة:

«هل تريد أن تراها وهي تعمل؟» فأقول بفضول التاجر:

«نعم أرجوكِ!»، ودون تأخير تخرج معنا، فتشغِّل الجهاز الضخم، ثم تحمل طرف الخرطوم ذي المقدمة الفولاذية الثقيلة، وتغرسه بكلتا يديها في الأرض، وتضغط بحذائها الرياضي المقوى لتغرس الفوهة الفولاذية في باطن الأرض، فتصل إلى ما تحت جذور الشجرة، ثم تحقن بمكبسه هواء الأكسجين، ثم تغير الزر، فيضخ الجهاز الأسمدة المركبة السائلة بدل الهواء. أنظر إلى هذه الفتاة معجباً بأدائها الذي لا يوصف، فأسألها:

«هل أنت مهندسة زراعية؟» فتقول:

«أنا حدائقية موظفة في هذه الشركة». فأتابع قولي معجباً بقوتها ونشاطها واندفاعها في العمل:

«لو كان عندي سبع نساء من نوعك، لسيطرت على حدائق الأردن كلها!» تضحك ألبرتينا، وتضحك معها الفتاة، متوقعة مني شراء عدد من هذِه الأجهزة التي تحتاجها أشجار حدائقنا البائسة!

وقبل أن ينتهي يومنا تعرج بي لتعرفني على تاجر التربة الزراعية[1]، الذي يستقبلنا بحفاوة بالغة داخل جناحه الصغير المشارك في المعرض، ويشرح لنا معلومات كثيرة أسأله عنها، ثم يودعنا بعد أن اتفقت معه على زيارته في بريمن، حيث موقع المصنع والعمل..

ينتهي اليوم الأخير من أيام المعرض، فأخرج مع ألبرتينا، ونذهب لنتغدى في مطعم يقدم المأكولات الألمانية التقليدية، فتسألتني:

«ماذا تأكل؟» فأقول لها:

«إنني آكل أي طعام، ما عدا (لحم الخنزير والقشطة والمايونيز والزبدة والكتش اب)، فأنا لا أطيقها! فتطلب لكل منا حبة بطاطا كبيرة مسلوقة، وعليها معجون قشدي أبيض، وشريحة لحم عجل كبيرة، جيدة الشوي، وسميكة لدرجة أنها مكعبة تقريباً، مع زجاجة نبيذ أحمر، تختارها بمعرفتها، مع بعض المقبلات. أزيحُ القشطة عن البطاطا، وأقطع بالسكين قطعة من مكعب اللحم، فأجدها طرية طيبة، تشعرك بالفرق الكبير بينها وبين لحم «الباربورغر» التجاري العولمي، الذي لا آكله!

بعد الغداء تأخذني ألبرتينا إلى حديقة فريدة في نوعها، أراها

---

(1) (بيتموس) وهو خليط من طحالب وأوراق زراعية متحللة تحت الماء.

مشكلة من مسطحات النجيل مع تضاريس طفيفة، تشبه مسطحات ملعب (غولف) صغير، تتوسطها بحيرة مائية سطحية الأعماق. تقترب الساعة من الخامسة مساء، فتقول إنه موعد انطلاق حفل موسيقي مائي مذهل، فنتجه لنقف وسط حشد لجمهور كبير العدد يتجمعون لهذه المناسبة، ووجوهنا باتجاه البركة الطبيعية الشكل، الساكنة المياه، والممتدة بين الربوات المنخفضة، إلى أن تصدح موسيقى سمفونية للموسيقار الألماني العبقري (يوهان باخ).

فكرة هذه البحيرة الهانوفرية عبقرية، فما أن تعزف الموسيقى، حتى تفاجأ بانبعاث نوافير مياه البركة على أشكال أوبرالية متنوعة، فتجد نساء ورجالاً مائيين يرقصون بملابس مزركشة، أو حرباً مائية تشتعل فتنطلق النيران الحمراء. إنه أوبريت موسيقي صادح يجسد الشخصيات والحركة والأداء بنوافير المياه فيؤثر فيك بمشاعر تبعث في مخيلتك المتعة والنشوة، وتثير فيك كثيراً من التخيلات والأسئلة الفنية!

ينتهى الحفل فنذهب لنتناول العشاء في مطعم يقدم مأكولات مختلفة تقرر ألبرتينا أن تطلبها لي حسب ذوقها، مرافقة لزجاجة نبيذ أحمر معتق. وبناء على معرفتها بجنوحي لحضور حفلات موسيقى الجاز، تأخذتني إلى نادي جاز هانوفر (Poogie Bell Band, Jazz Club Hannover) لنحضر حفل فرقة (بوجي بل) التي سحرتني نفخاتها الساكسفونية وخشونتها التي تدخل الذهن فتتسلل في البنية

التحتية للدماغ، لتجدها تُدلِّك الجسد فتهُزُّه وترويه بمتعة تُرقِّص كل خلاياه، متعة تنتشي الروح بها وتغرق في ثنايا أصواتها الأثيرية، فنسهر هناك حتى يتجاوز الوقت منتصف الليل بكثير، ثم نخرج سكارى ولسنا بسكارى، لننتحي في عشِّ بيتها الذي يشبه الحُضن، فنشرب بقيّة محتويات زجاجة الويسكي حتى نجفف عروقها، فأشاهد ألبرتينا تُلحوِس فم الزجاجة بحثاً عن نقطة مارقة..ولا أذكر بعدها كثيراً مما حصل، سوى أنها كانت تتلوى على السرير مثل سمكة زبيدية أُخرجت توّاً من الماء.

نسيت نفسي بتلك الأحداث المستقبلية، إذ لم أكن أعرف أن علاقتي مع ألبرتينا ستتطور إلى تلك الدرجة، بينما نحن لا نزال نشرب الجعة ونتضاحك في بار «مؤتمر قادة شباب الأرياف في العالم»، حول طاولة مستديرة واسعة، غاصة بزجاجات النبيذ والجعة والشمبانيا، المملوءة منها والفارغة، والواقفة منها والنائمة لشدة سكرها، يحيط بها ثمانية من الزملاء، أهمهم هذه التي تسعدني.

وفجأة يقف زميل كريم من دولة ملاوي الإفريقية، فيقول:

«إن مشروب هذه الطاولة كله على حسابي!» فيدهش الأوروبيون لهذا الكرم الكبير، والذي نتقبله كلنا بشكر عميق، فنغني له أغنية فكاهية مرحة، تزيد أساريره ابتهاجاً ونشوة!

***

في هذه الليلة، آوي متأخراً إلى غرفة نومي، بعد سهرتي مع الشباب والصبايا في مقهى المعهد، فأشاهد شاباً من أواسط إفريقيا يدخل خلسة بعد منتصف الليل إلى غرفة نوم جارتي الصبية الإفريقية أبيبة، المتزوجة من رجل موسر معه خمس عشرة امرأة! أراقب دخوله، فأرى أن بابها مشقوق، كي لا يحتاج إلى رن جرس، أو قرع الباب الذي أُغلق تماماً بعد دخوله، فأقول لنفسي:

«ما معنى هذه الزيارة الليلية لها؟ ولماذا يجيء من غرفته البعيدة إلى جارتي بعد منتصف الليل، وليس قبل المنتصف؟ هل نسي أن يكمل لها بقيّة الحكاية، فيجيء ليوفيها حقها حتى يطلع الصباح، ويصيح الديك، فيخرج عن الكلام المباح؟».

صحيح أنه كان يرافقنا في تلك السهرة التي أفاضت فيها أبيبة الحديث عن غُلب المرأة المظلومة في أدغال شلالات إفريقيا الميتة من العطش، وعن نهب المستعمرين الديمقراطيين الحضاريين لكنوزها، وقتل المعارضين الإفريقيين، وتصفية الذين يطالبون ولو بشراكة لشعوبهم مع البيض في جمع الغنائم! ليلتها قالت المظلومة ساخرة وهي تضحك بغُلبين:

«إن المستعمرين يَستقرِدون[1] رجالنا الأفارقة، فينتقم رجالنا من المستعمرين وذلك باستقرادنا نحن نساءهم!».

ضحكوا على هذا الظلم الإنساني المحزن، بينما كنت أتوجع

(1) نسبة إلى القردا

بضحكي، لأنني أشعر بشعورها نفسه تجاه المستعمرين الذين كانوا يستقردون اليهود في بلادهم الأوروبية قبل الحرب العالمية الثانية، فينتقم اليهود منهم باستقرادنا نحن الفلسطينيين!

لم أشاهد هذا الإفريقي العاشق يرافق زوجة الشيخ الخامسة عشرة، متيماً في النهارات الماضية، ولكن يبدو أنه في هذه اللحظات المعتمة ينير ليل الصبيّة، فيستمتع أبو المسك بغزالته، ويمتعها بأيلها، بينما أجلس في غرفتي متسائلاً:

«هل تكون المرأة خائنة لزوجها إذا أحبت مارق الطريق، وهي تضغط بأسنانها في الانتظار، بصفتها الزوجة الرابعة، أقصد الرابعة عشرة؟».

***

يتقافز **شاؤول وأوشر** اللذان لا أراهما خارج أوقات الدرس الرسمي، ولم يسبق لهما أن شاركا في سهراتنا على طاولات المقهى، أو لقاءاتنا الفردية، أو رقصاتنا الجماعية، حيث الجميع يسهرون كل ليلة ببراءة ومرح، ولم أشاهدهما مرة واحدة في المسبح المدفأ، الذي يتوسط قاعة المعهد. ها هما في العصرونية قبل المساء يلاعبان طفلين صغيرين بكرة القدم في الساحة الخارجية أمام مبنى المعهد، ويركضان خلفهما هنا وهناك، مقابلين لهما في الساحة المعبّدة الواسعة، التي تخلو من سيارات المعهد وزواره بعد الدوام.

أسأل عن الطفلين، فيقال لي إنهما ابنا رئيس المؤتمر. أستغرب

هذا! فمن أين أتيا بالطفلين؟ ولماذا يلعبان معهما، بينما لا نجدهما يسهران مع الزملاء؟. أشاهدهما نشيطين هنا، ومهتمين بملاطفة الطفلين ورعايتهما أشد الاهتمام، وكل منهما يرعى طفلاً، ويدربه على التحكم بالكرة، وقذفها باتجاه الهدف:

العب! العب!

هنا! هنا!

امسك الكرة.

رائع، رائع!

الآن أفهم لماذا يتجاهلون التعامل مع زملائهم المتدربين، بعدما شاهدت بأم عيني كيف يمسكون برأس المعهد من روحه، فيتبعُ الجسدُ كلُّه رأسَ المعهد وروحه المُتلَفة!

أتخيل في هذه اللحظة كيف يهاجم الذئبُ المتمرسُ صغيرَ الغزال، فيمسكه من خيط رقبته، فيصير جسدُ الغزال مثل الشريطة المدلاة بين أنياب الذئب، فإذا تمت السيطرة على الرأس، تمت السيطرة على الجسد، وما دام رئيس المعهد يضع أطفاله بين أرجلهم، فإن الدكتور **ألفونس** مضطرٌ لأن لا يرى بنظارته التي تنزلق على أنفه الطويل في قاعة الدرس غير **شاؤول وأوشر** ليتحاور معهما ويلاطفهما، وكأنه يعتذر لهما عن كل تاريخهم الذي حمّلوه إياه على كاهله منذ السبي الصغير، وكذلك «الطّرح» **توني**، فهو مضطر لأن يعمل ليلاً نهاراً لخدمة أغراضهم، كما سحبني في تلك الليلة لينظمني جاسوساً في الخدمة!

إنهم يعرفون أن لا جدوى من ضحكات وفرفشات جمهور الناس المغفلين على طاولات المقاهي، من مختلف بقاع العالم، وأن الجدوى لا تكون، إلا بالسيطرة على الرأس. السيطرة على رأس المال!

فاوست، الذي باع نفسه للشيطان!

بعد ظهر السبت الذي يسبق عطلة الأحد، تأتي سيدة ألمانية إلى المعهد بتنسيق مسبق، يُعرّفنا المشرف عليها أنها متطوعة ريفية لخدمة أغراض المؤتمر، وأن اسمها **مونيكا**، ويقول إنها ستأخذ ثلاثتنا لزيارة بيتها لمدة أربع وعشرين ساعة، بهدف التعرف على نموذج لحياة عائلة ريفية بافارية، أنا وصبية هولندية جميلة اسمها **أنجليكا**، **وأوشر**. السيدة **مونيكا** في الأربعينات من عمرها، نشيطة مرحة وباسمة، تتحرك بكل ثقة في النفس، شكلها جميل، وطولها معتدل، وتبدو ذات شخصية قيادية.

وقبل أن ندخل إلى سيارتها المرسيدس البيضاء من آخر طراز، ودون تبريرات تدعو **أوشر** ليجلس إلى جوارها، فيستجيب الشاب بكل ثقة، ويجلس في المقدمة، ودون تكريم الهولندية لأن تكون أولاً، تشير السيدة **مونيكا** إلى **أنجليكا** لتجلس إلى جواري في المقعد الخلفي، فنربط الأحزمة حسب أوامرها، فتنطلق بنا على طريق البراري المفتوح للسيارات المسرعة في سهوب بافاريا الجميلة، وغاباتها المتداخلة مع

المزارع الواسعة، فنصل بعد ساعة ونصف من الانطلاق في الطبيعة الساحرة، إلى مزرعة ريفية منعزلة بين الأراضي الزراعية.

يستقبلنا زوجها بطوله الفارع، وضخامة جسمه المتمرس بالعمل، بكل حفاوة وترحيب، فيعرّفنا على أن اسمه **مايكل**، ويدعونا للجلوس والاستراحة من السفر، ويستقبلنا أيضاً رجل عجوز يتحرك جالساً على كرسي عجلات المعوّقين، نفهم بعد تقديمها له أنه والد السيدة. تقدمه ابنته ليرحب بنا، فتقول له:

«هذه **أنجليكا** من هولندا»، فيرحب بها بابتسامة مُجهدة من رأسه.

«وهذا **خليل عربي**»، فيرحب بي بإيماءة متعبة.

«وهذا **أوشر** من إسرائيل».

أشاهد العجوز يتمسمر على مقعده، ويتصلب رأسه المشدود على جسده المهدود، ثم يدور دورة بعجلاته إلى الخلف، وبعد ثانيتين من الهروب، يستدير المُقعدُ بعجلاته بحركة مسرحية قوية، ويرفع يده المُقدّدة باتجاه **أوشر**، ويقول له بالإنجليزية:

«ولكن أنت من دعاك لتأتي إلى بيتنا؟ أنت غير مرحب بك هنا!»

فتسرع السيدة لتشجب حديث أبيها المُقعد، وتكلمه بلغتها الألمانية التي لا أفهمها، ولكنني فهمت من زوجها فيما بعد أنها طالبته باحترام الضيوف دون تمييز، وأن **أوشر** مرحب به في بيتهم، ليحظى بالضيافة الأرحب!

أُدهش لما أشاهد وأسمع، ومع هذه المفارقة لا أعرف كيف

اختفى أوشر من المكان بطريقة سحرية، كل الذي أعرفه أنه لم يعد بيننا، ويبدو أنه قد رجع إلى المعهد في (هيرشنج).

لماذا رجع؟ وكيف رجع؟ ومن الذي أرجعه؟ لا تسألني، لأنني لست مهتماً بغير التعرف على هذه المزرعة النموذجية، والاطلاع على كيفية ممارسة حياة ريفية حضارية حديثة فيها.

تبقى أنجليكا في البيت مع السيدة مونيكا، لتتعرف على مطبخهم وطعامهم وشرابهم، بينما يأخذني الرجل القوي المرح مايكل في جولة بين أبقاره، حيث ندخل إسطبلاً كبيراً جداً، لا أعرف لماذا يرفعون سقفه إلى السماء، على شكل هيكل صفيحي مجسم هابط من الفضاء، وفي قلبه خمسون بقرة حلوباً. وبين أبقاره التي يستعرضها لي فخوراً يسألني مازحاً، هكذا ودون مواربة:

«هل نكحت هذه الصبية الهولندية الجميلة؟» فأقول:

«لا طبعاً!» فيقول:

«إذن لا خير فيك، ولا في علومك!» ويقهقه عالياً!

أشاهد الأبقار تأكل السيلاج المجفف، وفوقه العلف المُركّز، وإحداها تشرب من صحن مثبت على عمود أمامها، تضغط عليه البقرة بذقنها، فيصب الماء في الصحن، وعندما ترتوي ترفع رأسها، فيتوقف صنبور الماء عن التدفق.

يأتي موعد الحليب المسائي، فيُلبس مايكل شفاطات الحليب بأضرع الأبقار، كل بقرتين ثلاث بقرات يسيطر عليهن معاً، وأما

الحليب الممتص، فهو يذهب إلى داخل الهيكل عبر مواسير صاعدة منتشرة هابطة متجمعة، مثل أوردة الدم المنتشرة داخل الجسم، لتصل في النهاية إلى القلب، أقصد إلى خزان الحليب الذي نصل إليه معاً خارج الهيكل، وهو عبارة عن ثلاجة أسطوانية كبيرة من الحديد غير القابل للصدأ، تحفظه بارداً إلى أن تأتي سيارة جمع الحليب، والتي هي أيضاً ثلاجة دائمة التبريد، على شكل خزان أسطواني كبير تمر على المزارع بشكل دوري، فتشفط الحليب من خزان كل منها، ويسجل العداد الآلي فاتورة، فيعطيها سائقها إلى صاحب المزرعة، أو يضعها فوق الخزان، وينطلق بسيارته المُبردة إلى مزرعة أخرى..

يقول لي مايكل الذي يبدو هانئاً سعيداً وهو يعرض حال مزرعته: «هذه دورة يومية للحليب، وأما الأعلاف المركزة فإن شاحنات توصلها إلى مزرعتنا بناء على طلبنا بالهاتف». ولدى سؤالي، أفهم منه أن لا صراع على مصادر الأعلاف، بعكس ما هو عندنا في بلاد العرب، ولا صراع على بيع الحليب الطازج، الذي كثيراً ما يُغشُّ عندنا، أو يستبدل تماماً بالحليب المجفف الذي لا هو حليب، ولا ما يحلبون، بل قد يكون زيوتاً مهدرجة، أو لا أعرف كيف يغشونها، لتكون على هذا الشكل الذي يشربه العرب «هنيقاً مريقاً، وفي بطونهم يستنصحون!».

هذه التقنيات الحظائرية الألمانية في عامنا 1982م، والتي لا أتوقع أن تؤهل حكوماتُنا العربية مزارعينا، ليكون لديهم مثلها، ولو في عام 2050، إذ لا تزال سيارات نقل الحليب بالبراميل- في عز الحر-من

المزارع إلى المصانع حتى اليوم هي شاحنات غير مبردة، فيصل الحليب ساخناً من حرارة الإيمان، وفيه مليارات الجراثيم المتكاثرة على الطُرُقات، بينما أصحاب المليارات لا يخافون من رقابة المواصفات والمقاييس، ولا يحسبون حساباً لعمارات مكافحة الفساد، التي تجدها متضخمة بضخامة ضخمة في أضيق الأماكن السكنية، ولا يأبهون لكل الحكومات مجتمعة! ما هو السبب؟ أنت أعرف مني بذلك!

يجيء الليل فنجلس لنسهر. تُحَضِّر السيدة **مونيكا** العشاء هي و**أنجليكا**، فأرافقهما لأتعرف على طريقة صناعتها للطعام، فترحب بي قائلة:

«هل تريد أن تشارك بصناعةِ شيء من طعامكم لتقديمه في العشاء؟» فأقول لها: «إن الوقت لا يسمح، وحتى لو سمح فلستُ طباخاً ماهراً، ولكنني أستطيع أن أصنع لك صحن سلاطة عربي».

أطلب قفازات بلاستيكية رقيقة، فألبسها، وأفرم البندورة والبصل فرمة ناعمة، وأضيف إليها بعض أوراق النعناع المفرومة، ولا بد من إضافة شريحة من الفلفل الأخضر الحار مفرومة فرمة ناعمة، وأرش عليها الملح، ثم أخلطها بيدي المغلفة بالقفاز البلاستيكي، فأعصرها وأعصرها، ثم أخلطها وأخلطها، وأصب عليها ثلاث ملاعق من زيت الزيتون، وبالملعقة الصغيرة أتذوقها، لأتأكد من توازن ملحها وحرارة فلفلها، ثم أقول لها:

«ما رأيك؟» تنظر الصغيرة من قِصَر طفولتها المدعبلة إلى أمها

الأطول منها فوق فوق..يبدو أنه لم يعجبها صحن السلاطة الشهية فتقول:

«خرائي!» هكذا تقولها بكل بساطة غير طفولية:(شايزي!) فتؤنبها أمها المضيفة لنا، مستنكرةً هذا التعبير(الشايزي)!

لا أذكر مَن أكلَ السلاطة اللذيذة، التي لا يعرف ميزتها إلا المتذوقون لأطايب الطعام!

وخلال السهرة، أقتربُ من الرجل العجوز، وأسأله باسماً:

«لماذا لم ترحب بضيفك **أوشر**؟» فيقول العجوز منفعلاً:

«أولاد الـ... يطالبوننا بتعويضات مذهلة، مقابل جرائم النازي الذين يقولون إنه قتلهم، وكأنه قتلهم وحدهم، فسكتنا ودفعنا بصفتنا مهزومين، ولكنهم انتقلوا إلى فلسطين ليقتلوا أبناءها، ويشردوا كل من لم يُقتل منهم! المخيف في الأمر أنهم يُظهرون أنفسهم ضعفاء مساكين، باحثين عن السلام، بينما هم لا يفعلون شيئاً سوى القتل والدمار، وإثارة القلق والتوتر في العالم! الفلسطينيون الذين استقبلوهم في بلادهم، وتعايشوا معهم، واستضافوهم خير استضافة لا يستحقون منهم كل هذا القتل والتشريد!».

ينفعل العجوز بهزهزة مقعده المتحرك على عجلات بيدين عجفاءتين، وهو يتابع قائلاً:

«هم لا يعرفون أن صورة اليهودي الذي كان مسكيناً مُحاصَراً في الجيتوهات الأوروبية قد تغيرت في عقول الناس الذين يشاهدونهم

بالتلفازات على كل الكرة الأرضية وهم لا يقدمون شيئاً للإنسانية سوى القتل والدمار.. تراهم لا يعبأون بأحد وهم يَعتقِلون ويَسجنون ويُعذِّبون ويقتلون».

يحرك رأسه المجهد بانفعال وهو يتابع قوله:

«هم لا يدركون أن العقل البشري يُسجِّل ويُضمِر، ويُكوِّن انطباعاً لا يمحى من ذاكرته، وأن التاريخ لن يغفر لهم هذا القتل المستمر!».

يواصل قنابله التعبيرية وهو يغمض عينيه كي لا يرى من حوله فيقول:

«هم لم يقرأوا **فاوست** الذي باع نفسه للشيطان من أجل المعرفة. ولكن هؤلاء باعوا أنفسهم إلى الشيطان من أجل التحكم في رأس المال العالمي، وللسيطرة على منابع النفط، والمصادر الطبيعية المتواجدة في الصحاري العربية، لينطلقوا من هناك حسب أطماعهم، فيسيطروا على العالم كله. لقد استطاعوا الهيمنة علينا، وإقناعنا برفض هتلر الذي دمرَنا بسلوكه الفردي! قلنا آمين! ولكنهم لم ينتبهوا إلى أنهم يقومون بتدمير وقتل أكثر بشاعة، وأنهم سيواجهون النهاية المحتومة نفسها!».

يفجر العجوز هذه العبارات وهو متوتر. ولإنهاء هذا الحديث الذي أحرجها، تقوم ابنته فتوجّهه بعجلات كرسيه إلى غرفة نومه، وتغلق الباب عليه!

أحاول الخروج من تأثير حديث العجوز على حضورنا، فلا أجد غير سؤال **مايكل** و**مونيكا** عن قصة حبهما وزواجهما، فتقوم المرأة وقد احلوّ الكلام، وتحضر لنا نوعاً من الجعة التي لا يستغني عنها بيت

ألماني، ومشروباً منعشاً مسكراً إذا زيد عن حده، يدعى (شنوبس)، وهو نوع من الفواكه المخمّرة، بالصنعة الألمانية المنزلية، تقدمهم على المنضدة إلى جوار إبريق ماء وعدة كؤوس، ليختار كل منا ما يناسبه، فأفضلُ شرب الماء، فيقول لي مايكل الذي كسر الحواجز الرسمية فصار صديقي:

«لماذا الماء؟» فأقول وأنا أتناول كأس الماء خجِلاً: «عندنا مثل يقول:

(لا شيء يروي كالماء)» فيقول ضاحكاً وهو يرفع كأس الجعة: «وعندنا مثل يقول: لا شيء يروي كالبيرة!».

تقدّم السيدة كأساً صغيرة من (الشنوبس) إلى الصبيّة الهولندية، بحجم فنجان القهوة التركي، وتدلق في فمها محتويات كأس أخرى، بينما يحدثنا زوجها عن قصة غرامهما، وهي تنظر باسمة إلى أنجليكا التي تجلس بيننا بكل صمت وأدب، فيقول:

«كنا قد ذهبنا صبيين فقيرين إلى معهد تعلُّم الحلب وخدمة الأبقار في منطقة قريبة من هنا، ونظراً لابتداء اسمينا بحرف الميم، كان عملنا يأتي دائماً في مكان واحد، وبعد تخرُّجنا، جاء ترتيبنا في العمل معاً لدى رجل عجوز يملك هذه المزرعة، فعملنا لديه عدة سنوات، إلى أن وقعنا في الحب، بينما وقع العجوز في الوفاة.. حزِنّا عليه كثيراً، ولكننا فرحنا كثيراً عندما أعطونا حق الأولوية في تملكها بسعر مخفض، وبالتقسيط المريح، الذي رحنا نجمعه معاً من توفير المزرعة..وبعدها

صرنا نُحَسِّنُ ونطور..إلى أن أحدثنا بيت السكن، وأنجبنا هذه الطفلة الجميلة، وها نحن نستمتع بتضييفكم معنا!».

بعد دورة الحلب الصباحية، تشرب الأبقار ثم تُخرج من الخان، فتسير في موكب جماعي «تغيير جو» مشمس رطب دافىء جميل، وكأنها تعرف طريق نزهتها، وتسعى للتمتع برعي طعام شهي في الهواء الطلق، ويسير مايكل خلفها بجرّاره متعدد الأغراض، بالطبع أنا أركب إلى جواره، بينما هو يوجّه أبقاره إلى أرضه المستطيلة الشكل، وذات العشب الأخضر، المسيجة بأسلاك شائكة، والتي مساحتها حوالى مائة دونم، وهو يجعل لها في كل يوم مساحة محددة لترعاها.. بحيث يضع أمامها سلكاً كهربائياً، ومثله خلفها، يعملان ببطارية ذات ذبذبات منخفضة، تلسع، ولكنها لا تؤذي..فترعى الأبقار اليوم في هذه المساحة المحددة بالأسلاك الأربعة، وغداً في المساحة التي تليها، وما أن ينتهي الشهر، حتى تنتهي أجزاء الرعي المحددة، فيعيدها لترعى في المساحة الأولى، التي رعتها قبل شهر.. كل يوم مساحة جديدة، والسماء هناك تمطر يومياً يا حبيبي، أو يوماً بعد يوم، فتنبت الأعشاب، وتغسل ما علق عليها من روث الأبقار وبولها خلال الشهر الماضي، الذي يتحول إلى سماد عضوي طبيعي، فتعود الأعشاب بعد الشهر نقية خضراء نضرة يانعة! ماذا تريد أجمل من هذا المرعى، وأنظف من هذا الحليب؟

يتركها السيد مايكل ترعى على مهلها، بينما نعود معاً إلى هيكله الفضائي الكبير، فيغسل الأرض وينظفها تحت مهاجع الأبقار بكل

جد وإتقان، ثم تتبعه زوجته برش القش على الأرض النظيفة المبلطة بالإسمنت، وتعبئة المعالف بأغذية السيلاج المجفف، أو بالتبن والأعلاف المركزة، فيتعاونان على الحياة التي تزهو لهما مع الطفلة السعيدة، التي كنا قد شاهدناها هذا الصباح وهي تذهب إلى الروضة بحافلة صفراء جميلة تتوقف عند باب بيتهم، فتزوِّدها الأم بحاجياتها، وتمسكها بيدها وهي تصعدها إلى الحافلة، ثم تستقبلها بعد الظهر فرحة سعيدة بعودتها..

أنتبه إلى عدم وجود عمال وافدين للخدمة في مزرعة السيد، ولا خادمات شرقيات في مطبخ السيدة!

أسأل مايكل عن المشاكل التي يتعرضون لها في حياتهم المزرعية، فيقول بكل ثقة وسعادة باسمة على وجهه:

«لا مشاكل لدينا، فلوازم المزرعة تصلنا بسعر ثابت، وبشكل منتظم، ومبيعاتنا تتم أيضاً بسعر ثابت وبشكل منتظم، وكما تشاهد، فكل ما نحتاجه نجده بين أيدينا». يضحك فيقول:

«لا تستهن بالمزارعين، فنحن في اتحاد المزارعين وحدنا نستطيع إسقاط الرئيس اليوم، وذلك بسحب الثقة منه في البرلمان، ولذلك تجده شديد الحرص على إرضاء فئة الفلاحين والمزارعين، أكثر من حرصه على إرضاء أهل المدينة، رغم كثرتهم العددية، ذلك لأنهم لا يتكاتفون معاً في مثل هذه الأحزاب، بقدر ما يبحث كل منهم عن مصلحته الذاتية في الصناعة، أو التجارة، أو السياحة!».

لا أستطيع أن أقول له إن المزارعين والفلاحين عندنا يتم إفقارهم لمصلحة أصحاب رأس المال المتربصين بالبقرة الواقعة، ليهجموا عليها، ذلك لأن رأس المال المتوحش ينطلق من بلاد العم كارل ماركس الألماني، ليبول في بلادنا!

بعد قضاء أربع وعشرين ساعة في بيت المزارعين الأكارم، تعيدنا السيدة **مونيكا** إلى المعهد، فتجلس **أنجليكا** هذه المرّة إلى جوارها، بينما أعود جالساً في المقعد الخلفي كما أتيت، وكل منا يفكر في شيء مختلف!

بافاريا الجميلة!

نتوزع في غرف المعهد بعد المحاضرات، فنعمل في مجموعات، ونحاول تعلم العمل الجماعي الأكفأ في النتائج، كي نعلمه لشباب الأرياف في بلادنا، يأتي الدَّور عليّ في الحديث فأقول في كلمتي لأفراد مجموعتي:

«كان فلاحو بلادنا يمارسون العمل الجماعي بالطبيعة، فإذا بنى أحدهم غرفة، فإن الجيران يشاركون في بناء البيت وتطيينه، وإذا كانت هناك بقرة ذبيحة في الحارة، فإن لحومها توزع على الجيران والأقارب، إذ لم تكن هناك ثلاجات لتخزين اللحوم، وبالمقابل عندما تكون الذبيحة واقعة لدى بيت آخر، ينوب كلاً من الآخرين حصة. كانت الزراعة جماعية بالتعاون، والحصاد جماعياً والدفاع عن الحارة أو الحي جماعياً، وحفلات الأعراس جماعية، ومناسبات الأتراح جماعية، والعمل الجماعي كان صلب حياتنا الريفية، بعكس الفردية والعمل الفردي الذي رسّخه تفرُّدُ رأس المال أخيراً في المدينة والريف معاً، وطغى به على العمل الجماعي الذي يُشعر الإنسان بإنسانيته، وبكونه جزءاً لا يتجزأ من دفء مجتمعه، فلا يشعر بالسعادة في حياته

دون وجوده ضمن مجتمع، يتفاعل معه ويحبه. وحتى الصراع الريفي يُشعر الإنسان بوجوده داخل مجتمع، ينتمي إليه؟».

هذه السعادة تشعرني بها زميلتي البرتغالية باتريشيا! قد يكون دمها العربي الأندلسي الأسمر الحامي، المشوب ببشرة قشتالية زهرية هو الذي يجعلني أذوب شغفاً في تلابيبها، وأتحسس بلقائها دفء الحنان والألفة. أجدني أشتهي هذه الصبية البرتغالية المعتدلة الطول وامتلاء الجسد، وأنا أتملى رقتها وريعان شبابها وابتسامتها الحيية في وجهي، فأنتظر بزوغها في الصباح عند باب المحاضرة، وهي تقترب مني متسائلة عن برنامج اليوم، فأجيبها وأنا أسعد بحنانها الذي يشع دفئاً يبدد برد الشمال.

وخلال سهرتنا هذه الليلة في بار المعهد تقول لي:

إن برنامجنا ليوم غد هو زيارة عدة مناطق في جمهورية بافاريا، فأتفق معها على أن نترافق في صباح اليوم التالي.

ها أنا أجلسُ إلى جوارها في حافلة المعهد التي تأخذنا بين تعرجات الوديان السحيقة، وقمم الجبال الشاهقة، ذات الغابات الكثيفة السوداء، فتوصلنا إلى تاج الجبال، حيث يتربع قصر الملك لطفي الثاني المعلق في السماء، والمختفي فوق الضباب الذي يكسو سفوح ذلك التاج الذهبي، فيحاكي الشمس وهو يطل من القمم الشاهقة على بحيرة شتارنبرج المتلألئة في القاع، وكأن القصر يغسل قدميه في مياهها الفضِّية.

نَمُرُّ بكل هذا فأرى القصر من خلال عينيها العسليتين، اللتين تتناوبان مع إشراقة الشمس المطاردة بين الغيوم الشاردة، لتطلان عليّ ببريق أشعتهما الساحرة. وفي العلا نقتحم أسوار القصر الحصينة، فندخل قاعاته، ونتجول في غرف النوم المجللة بهيبة ملكية، والتي لاتزال حتى اليوم بستائرها الحريرية الحمراء المذهبة السميكة، وبسريرها الملكي الواسع ذي الأعمدة الرباعية العالية المطلية بالذهب، ومقاعدها المصنوعة من خشب الورد، والمحمية من الزوار بأسيجة من الحبال، كي لا يلمسوها أو يجلسوا عليها، مع رقابة مشددة من موظفي القصر، وذلك كي تبقى شاهدة على ذلك العصر.

تنط الفرحة من عينيّ في هذه الربوع الرومانسية، وأنا أسير مع أفراد المجموعة برفقة **باتريشيا**، وأحياناً مبتعداً بها عن الركْب، فأطوّق خصرها ثم أبتعد عنها وأنا أغني مترجماً لها أشعار ابن زيدون وولّادة بنت المستكفي، كالديك الرومي الذي لا يتورع عن الانحراف عن مسيرته بريشه المجنح، ليدور حول أنثاه بخيلاء.

نتجول داخل القصر، فنسمع حكايات يسرّبها إلينا الدليل حول عيش الملك منفرداً، وأنه كان شغوفاً بالموسيقى، لدرجة أنه رعى الموسيقار العظيم **ريتشارد فاجنر**، بينما كان لا يحب أن يرى الخدم، ولا سائر الناس العاملين في قصره، لدرجة أن الطعام كان يصل إليه في أوقاته المحددة دون سابق إنذار، من طابق المطبخ المختفي تحت الأرض، فيُرفع على طاولة مجهزة بكل محتوياتها، وذلك بمصعد

سطحي، من دون صندوق أو أعمدة للحماية، بخلاف سائر المصاعد، فتتوقف قاعدة المصعد عند مستوى سطح بلاط القصر، لتكون الطاولة بارزة فوقها، وكأنها قد جُهِّزت بكل محتوياتها ومتطلباتها، ووُضعت في هذه القاعة المخصصة لتناول الطعام الملكي، دون وجود خدم، فلا يُحرِّك الملكُ في الطاولة شيئاً سوى أنه يتناول الطعام وحده لا شريك له، وما أن ينتهي حتى يضغط على زر، فتنزل طاولة الطعام مع بقاياه بالمصعد إلى طابق الخدمة، فيتناولها الخدم بالجمع والتنظيف والترتيب، وقد يكون بالتهام ما لذ منها وطاب!

نتجول خارج القصر فنشاهد كيف كان الخدم يوقدون الحطب في عدة مواقد، يفتح كل منها وجاق النار للخارج، بينما قاعدته التي تشتعل فيها النار تظهر مندفعة في امتداد مغلق داخل القصر، فتدفىء قاعاته الداخلية بلهيب يستعر في الخارج، دون أن يمر أحد من الخدم في بلاط الملك، ليشاهده فيزعج وحدته المريبة!

يقول الدليل: «إن للملك الذي ربما كان لديه شذوذ في بعض ممارساته اليومية قصوراً عديدة، ولهذا قيل إن بذخ الملك **لطفي الثاني**، واستدانته من الدول الأجنبية لإنفاقه المطلق قد أفلس ميزانية الدولة، وإن هذا قد يفسر سر إغراقه بطريقة غامضة وهو لا يزال في ريعان شبابه، بعد أن كان يتنزه في قارب رومانسي في بحيرة **شتارنبرج**، التي كانت تُضمر له شيئاً مخيفاً في تلك الأمسية، ولكن اكتشاف جثته على بعد أمتار ثلاثة من شاطىء البحيرة، رغم أنه كان سباحاً متمرساً، هو الذي يجعل المرء يحار في أمر نهايته!».

ينتهي يومنا مع غرق الملك الشاب، وأنا غارق في تلابيب باتريشيا!

لم نكن على علم بأنهم قد رتبوا لنا زيارة مسائية إلى رئيس جمهورية بافاريا، قد يكون السبب هو قربنا من القلعة التي يربض فيها الرئيس، وقد يكون التعتيم لدواع أمنية.

يستضيفنا الرئيس الكبير في السن بالترحيب في قصره العتيق بقلعة أنديكس من دون بهرجة إعلامية، أو وزراء أو مسؤولين كبار، وجماعته يحتفون بعددنا الكبير، ابتداء بإحضار برميل خشبي كبير من الجعة، يشبه براميل النبيذ الضخمة التي كنا نشاهدها في أفلام (جوليفر في بلاد الأقزام، وجوليفر في بلاد العمالقة) المأخوذة فكرتاهما عن ألف ليلة وليلة، الرواية الأم. كان تكبير الأشياء في تلك الأفلام وتصغيرها يذهلاننا ونحن صغاراً، ويشعرانا بأننا أقزام أمام عمالقتهم، وعمالقة أمام أقزامهم، فنحار في أمر نفوسنا، هل نحن أقزام، أم عمالقة؟ وبالفعل فكل منا في هذه الحياة يشعر أنه عملاق مقتدِر لا شريك له ـــــــــــ أنا الكُلُّ في الكلّ.. أنا أقتل! أنا لن أسمح! أنا كلمتي لا تنزل على الأرض! «الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم»[1] ـــــــــــ ولكنه لو خرج إلى مفارقات المجتمع، ودقق في تعقيدات القوانين والأنظمة الحكومية، وتمعّن في علاقات الدول بعضها ببعض، بل وفي هذا الكون اللانهائي

---

(1) غرور المتنبي الذي قتله.

المجرات، والخليقة اللانهائية المبتدأ والخبر، التي لا يستطيع تصور أبعادها أو إحكام قبضته عليها، فإنه يذوي، ويشعر أنه لا يعادل جناح بعوضة في هذا الكون، فما بالك بكلام أبي رحمه الله، الذي كان يقول:

«إن الدنيا كلها لا تعادل عند الله جناح بعوضة»!

تتجه عيوننا معاً لتراقب باندهاش وبفرح غامر مراسم الحفل، فنشاهد رئيس الجمهورية بنفسه وبجلال قدره يقوم بين جمهوره ومساعديه باتجاه البرميل المنتفخ، حاملاً بيده الكريمة صنبوراً معدنياً كبيراً مشطوفة نهايته بشكل مائل لتكون مثل الخنجر.

أستغرب أنني لا أرى حوله حُرّاساً، وكنت ذات مرة قد سألت صديقي **باتريك** عن رجال الأمن والشرطة إذ لا نراهم في الشوارع، ولا في أي مكان! فيقول لي مازحاً:

«حاول أن تعمل أي مشكلة، لترى من أين يطلع لك رجال الأمن! الأمن مُستتب يا خليل، ولكن لا داعي لعرض عضلاته!».

يعجبني انضباط أمنهم فأقارن ذلك بالحراس عندنا في بلاد العرب؛ الباطنين منهم والظاهرين بكثافة جهاراً نهاراً، تجدهم حول الحُكّام، وبين جمهور ملاعب كرة القدم التي نصف حضورها من رجال الأمن، وتجدهم ينغلون في كل حفل، ويشاركون في كل اجتماع وكل مناسبة، وحتى المحبوبة عندنا مُحصّنة بجنازير من الحُراس، إذ يقول الشاعر:

«وقطعت حراساً إليها ومعشراً   عليّ حِراصاً لو يودون مقتلي!»

دعنا في موضوعنا، ولا داعي للبهدلة يا رجُل!

وبخنجره الصنبوري يضربُ الرئيس الشمعَ الأحمرَ الذي يختم فتحة البرميل الخشبي، فيخترقه ليستقر في قاعه، فيصير ثابتاً وكأنه مصنوع أصلاً على هذا الشكل، نصفق جميعاً لهذه الحركة الافتتاحية، فيصفق معنا بدوره، ثم يطلب أن يُحضِر كل منا كأسه الخزفية الضخمة، الموضوعة مسبقاً أمامه على طاولة الضيافة، والمصنوعة من القيشاني التقليدية، وعليها رسم قلعة **أنديكس** وشعارها التاريخي الذي يعلوه برج حجري طويل، يشبه مآذن الأندلس.

يفتح الرئيسُ الصنبورَ بيده لأول شخص منا، فيعبىء كأسه من الجعة التي يقول إنها تصنع في منطقة قريبة من القلعة نفسها، ثم يقوم كل واحد منا، ويتَقدّمُ ليعبىء كأسه بيده. تجد الألمان في كل مناسبة يرفعون رؤوسهم فخورين بقولهم: «هذه السلعة ألمانية مصنوعة صناعة تصنيعية في المصانع الألمانية القريبة من هنا!» وحتى الزراعة، فهم ليسو فخورين بها بقدر ما هم فخورون بتصنيع منتجاتها، حيث زرعوا كل الجبال على ضفاف نهر الراين بالعنب، بهدف تصنيع النبيذ، بينما هم يفضلون استيراد معظم الخضار والفواكه من إسبانيا وغيرها، كي يتفرغوا للتصنيع! إنهم شعب صناعي بكل معنى الكلمة! هل يكون هذا هو السبب الذي جعل هتلر الذي تفوق في كل صناعاته، يُهزم في حربه العالمية؟

هل قال لهم الإنجليز آنذاك:

«إنكم شعب لا يجيد غير الصناعة، ولا يتقن دبلوماسية السياسة، ولا يتفوق في الحروب، ولا حتى في المفاوضات؟».

وخلال سهرة العشاء الذي يكرمنا به السيد الرئيس، يطلب أن يقف كل واحد منا فيتحدث بلغته، ويقول ولو جملة واحدة، يعبر فيها عن شعوره في هذا اللقاء، فينطق كل واحد بلغته جملة. يصل الدور إلى باتريشيا، التي تقف فرحة سعيدة إلى يميني فتتحدث بالبرتغالية، ويقوم العربي، ثم الهندي والبنغلادشي والنيكاراجوي والنيجيري.. فلا يبقى حديث لأحد.

نحتسي الجعة بين الحضور، فأضع يدي على كتف باتريشيا، وأقول لها: «انظري إلى سقف القلعة الداخلي المبني من أعمدة الخشب وألواحه الثقيلة المتوازية المستطيلات». فتقول:

«إنني مندهشة لتصميم جدرانها الخشبية الضخمة، الحاملة للمبنى، وأدراجها الخشبية المتينة، وكل ما فيها من مفروشات وأثاث خشب في خشب، وكأنها قلعة قديمة من عصر الفايكنج!».

يسمع الرئيس البافاري هذه التشكرات التي تسجل في وثائق القلعة كتذكار، ثم يقول:

«إنني أتابع الألعاب الأولمبية التي تدور حالياً، ولهذا فأنا أعتذر للمغادرة». يقوم وهو يشكرنا على الحضور، فيشكره قائد المجموعة نيابة عنا لتشرفنا بحسن استقباله لنا وضيافته. فيختم الرئيس بقوله:

«فلتتعشوا هنيئاً في هذه القاعة، ثم يأخذ كل واحد منكم كأس القيشاني الذي بيده، هدية تذكارية مني».

يعلق زميلي اليمني الذي يجلس إلى يساري على هذه الهدية، فيقول: «كيف آخذ كأس جعة معي إلى اليمن؟ هذا معيب عندنا!».

«لا شك أن تخزين القات اليمني أشد إيذاءً من تخزين كأس جعة فارغ بهدف التذكار» لا أصرح له بذلك، ولكنني قلت له:

«إذا كنت لا تريد أخذه، فأرجوك أن تعطيني إياه». وفوراً يمد المحترم يده بالكأس المرسومة عليها قلعة قصر الحكم، فيعطني إياها مشكوراً.

بعد انتهاء الحفل، نعود مع المجموعة وأنا أطوق خصر باتريشيا بذراعي اليمنى، وباليد اليسرى أحمل كيساً فيه كأسان توأمان، تذكاراً من رئيس ولاية بافاريا القابع في قلعة أنديكس، التي ستبقى شامخة في موقعها، ولن تبرح خيالي!

***

أخبرونا أنه في الأسبوع الأخير لمؤتمر شباب الأرياف، ستعقد في القاعة الكبرى جلسة دولية كبيرة للمشاركين والمدعوين، تخصص ليقدم كل مشارك كلمة تعطي فكرة عن الحياة في بلاده، وعن مشاريعها لتطوير مهارات شباب الأرياف، ومدى استفادته من الدورة التدريبية التي تمت هنا.

وقبل سفري إلى ألمانيا، كنت قد قمت بزيارة إلى وزارة الإعلام الأردنية، لآخذ نشرات توضح معلومات عن بلدي تحقيقاً لهذا الغرض؛ كم نسبة المتعلمين من الإناث، وكم نسبتها من الذكور؟ كم متراً مكعباً من الماء يستهلك المواطن سنوياً؟ كم عدد المواشي، الماعز منها والأغنام والأبقار؟ كم سريراً لكل مريض في الأردن؟

وهكذا، معلومات رقمية توضح مستوى المعيشة في هذا البلد، ومدى الحضارة فيه، ولكنني لم أجد عندهم معلومات تذكر، فحمدت الله على أنني سافرت حاملاً جواز سفري وحقيبة ملابسي، ومصروفي النقدي.

يجيء دور الوفد الإسرائيلي، فيَحضر حشدٌ كبيرٌ من المسؤولين الإسرائيليين، بقيادة الملحق الثقافي ———— لم يخبرني أحد بذلك، وإنما هكذا أخمّن، ذلك لأني أراهم يحضرون كل وسائل الإعلام الجماهيري من نشرات إعلامية كثيرة تخصهم، وشاشة عرض كبيرة، وأجهزة عرض أفلام، وشرائح توضح المعلومات التي يقولها **شاؤول** في خطاب مفوه ومدعوم من شخص غريب علينا، قد يكون ملحقهم الثقافي في القنصلية الإسرائيلية في ولاية بافاريا، بما يحيطه من مسؤولين ورجال أمن مستنفرين في ملابس مدنية.

لا نفعل نحن العرب شيئاً في مواجهتهم، سوى أننا نقوم ونغادر القاعة بشكل جماعي، متفاهمين بعدم اعترافنا بهؤلاء المحتلين الغرباء عن فلسطين، التي غيروا اسمها ليصبح «إسرائيل»، ويخرج معنا كثير من الأفارقة، ومشاركون من الدول الإسلامية، فتفرغ حوالى نصف مقاعد القاعة، بينما يركض رئيس المؤتمر وبعض الأساتذة والمسؤولين وهم يلاطفوننا ويقولون إن هذا الخروج يتنافى مع الديمقراطية وحرية التعبير عن الذات، ويدعوننا للبقاء، ويطلب مني أحدهم أن أتحدث عندما يأتي دوري بما أريد، وبحرية تامة محفوظة! ولكننا كثيراً ما نراهم

يخرجون من المؤتمرات الدولية، مقاطعين المتحدث الذي لا يرغبون فيه، أو الذي تتعارض سياسته معهم، فيغفلونه عن التعبير الحر عن آرائه ومعتقداته، ويغيِّبون عنه وسائل الإعلام المتفرغة لمديح الموالين لهم، فيصير هذا السلوك المتحيز مترسخاً في بلاد حريات فولتير المعبر عن فلسفة الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية، والمشهور بقوله:

«قد أخالفك فى الرأي، ولكنني على استعداد أن أدفع حياتي ثمنا لإعطائك حقك فى التعبير عن رأيك». اليوم تصل حرية الرأي عندهم إلى حد «تجريم» الشخص الذي ينكر مذابح الأرمن، أو الذي يشكك في بعض الأحداث مثل الهولوكوست، وسجنه لعدة سنوات، وتغريمه مبالغ مالية خيالية، ومحاصرته إعلامياً ومادياً ومعنوياً، هذا إن لم...! إنهم يقلبون حرية التعبير بالشكل الذي تكون لمصلحتهم!

ــــــــــ أفكر في خِضمّ هذه المعمعة بالورطة التي ستواجهني في كلمتي ليوم غدٍ!

يأتي دوري فأقف خلف المنصة فأذكر من تخيلاتي مساحة الأردن، وعدد السكان، وعدد الأسرّة الطبية لكل ألف مواطن، وعدد الماشية التي خمّنتها على كيفي، ومعدل دخل الفرد، ونسبة النساء العاملات إلى الرجال العاملين، وأذكر أن النسبة الكبرى من السكان هم لاجئون فلسطينيون ينتظرون أن تنضج الظروف، فيتفهم العالم معاناتهم الإنسانية، ويساعدهم على العودة إلى ديارهم المغتصبة في عكا وحيفا ويافا..

وفجأة يقوم **شاؤول** محتجاً على هذا الطرح، ويقول:

«يكفي إننا سمحنا لكم بالعيش في شرق الأردن التي هي بلادنا أيضاً، وذلك واضح نصاً في كتاب مناحيم بيغن؛ (الثورة) وغيره من الكتب، يكفيكم أننا تركناها لكم، ولو موقتاً..». وهنا يحتدم صراع بالتلاسن بين مؤيد ومعارض! وبعد المؤتمر يجري نقاش كبير خارج القاعة بين المشاركين العرب لتأييد مطالبي.

عيد ميلاد ألبرتينا

قبل ثلاثة أيام من انتهاء المؤتمر تدعوني **ألبرتينا** لحضور عيد ميلادها خارج معهد هيرشنج، وذلك ضمن عدد محدود من الأصدقاء، وفي تلك الأمسية تبلغني أنها قد دعت **شاؤول** إلى ذلك الحفل، فأرفضُ الحضور بحجة أن لا علاقات ودية لنا نحن العرب مع الإسرائيليين المحتلين لبلادنا، فتقول معتذرة:

«لم أدعه لأنه صديقي، ولكنه نوع من المجاملة، ورد اعتبار لما حصل لهم، وفتح صفحة جديدة من قبلنا نحن الألمان مع اليهود. مطلوب منا أن نُشعرهم بأولوية ما!».

لا أفهم ما علاقة هذه الشابة الصغيرة بجنونات التاريخ كي تدفع هي وشعبها كله ضريبة لا تنتهي بتقادم الزمن، نتيجة الحرب العالمية الثانية!؟ ولكنها عندما قالت عبارة:

«مطلوب منا أن نُشعرهم.». فأنا أفهم أنهم مضطرون لذلك، وكأنما يُدرّس عليهم هذا السلوك الإجباري، فأقول لها:

«نحن العرب نحترم اليهود في كل مكان دون تمييز، ولقد عاشوا معنا في الأندلس أجمل عيش في تاريخ حيواتهم المتنقلة، ولا يزال

كثير منهم يعيش معنا في بلادنا العربية دون تمييز، ولكن احتلالهم لوطننا فلسطين، وتكوين دولة يهودية لهم تنفي الآخر، ولا تعترف به، وتعمل على تجريف معماره وأشجار زيتونه، وشفط مياه ينابيعه، وإزالة معالمه من الخريطة، وقتل المعارضين لهذه الجرائم، هي المشكلة!».

لا أعرف كيف حصل أن شاؤول اعتذر عن الحضور، تبلغني ألبرتينا بذلك قبل ليلة من موعدها، فأجهز نفسي وأذهب مع الزملاء إلى مطعم صغير قريب من المعهد، حيث وجدناها تستقبلنا وترحب بنا ثم تتصدر الطاولة التي أُعدت لنا، وعليها شرشف أبيض، يغطي تجميع ثلاث طاولات مستطيلة، وتقول: «نظراً لأن ميزانيتي محدودة، يستطيع كل واحد منكم أن يطلب علبة بيرة واحدة، أو علبة كولا واحدة، ومن يريد كأس ويسكي، فإنه يستطيع أن يشرب من زجاجة لا تخضع للحساب، كنت قد أحضرتها معي».

نحتفل بعيد ميلاد ألبرتينا، ونغني لها(هابي بيرث ديه تو يو) لا أرى الفرح يتوج ابتسامتها وهي تطفىء الشموع الثلاث المغروسة فوق كعكتها، وكأنها تشعر بأنها تعدم سنة من عمرها. نجلس فنتحدث عن مشاعر كل منا وهو يستعد للرحيل، وماذا سيعمل وهو يغادر إلى وطنه؟ يأتي دوري فأقول لهم:

«إنني أفكر بشراء سيارة مرسيدس، وأن أقودها بنفسي عائداً إلى الأردن». فتقول ألبرتينا:

«لماذا تشتري سيارة (مرسيدس)؟ لو كانت ميزانيتي تسمح،

لاشتريت سيارة (أودي)، فهي أحدث تقنية وأجمل، ولكن حظها قليل!» وتضيف ماريا التي تجلس إلى جواري، قاصدة أن تبتعد عن توني: «واو! أتمنى لو أسافر معك في هذه السيارة، فأكتب كتاباً مدهشاً عن هذه الرحلة العجيبة من ألمانيا إلى شرق أوروبا، فبلاد العرب!».
هي الوحيدة التي تعترف بأن بلادي هي «الوطن العربي»، وأما الباقون فيسمونها؛ «الشرق الأوسط». دائماً يرون أنهم هم الأساس، وأنهم هم وليس غيرهم مركز الكون، وشرق آسيا هي «شرقهم»، (يعني تبعهم)، منذ ذلك التاريخ الذي هَزم الرومانُ فيه «هانيبعل الأمازيغي الكنعاني» وأسكتوا أنفاسه في عقر داره، وبما أن بلاد العرب هي «تبعهم الأوسط»، فيجب أن يرجع خراجها[1] إليهم!

أفكر في هذا الخيال الأسير، بينما تجلس صديقتي الإيرلندية ماريا إلى يميني، وهي البريئة لا تعرف سر قصة ذلك البربري الكنعاني العربي «هاني بعل» المغضوب عليه، منذ أن هاجم روما بخدعة انقلبت عليه، إذ أنه لم يواجههم مباشرة من البحر الكنعاني آنذاك، بل جاءهم بفيلته(براً، براً)، عبر أيبيريا، إلى أن غرقت فيلته في ثلوج الألب، فصرنا في عيونهم «بربراً» متوحشين، ولكنهم ليسوا «برابرة متوحشين» وهم حتى هذا اليوم لا يجدون مكاناً يردحون فيه ويجربون جنون أسلحتهم المُنضبّة إلا في بلادنا اليتيمة.

لا تعرف البريئة ذلك وهي تهمس في أذني، قائلة بكل غيرة:

---

(1) كان هارون الرشيد يقول للغيمة: «سيري أنّى شئت، فإن خراجك راجع إليّ!»..

«ولكن لماذا تشتري سيارة من ألمانيا؟ لماذا لا تشجع صناعاتكم الوطنية؟ اشتر سيارتك من صناعة بلادك!» المسكينة متعاطفة معي، وقلقة على اقتصاد صناعة السيارات العربية، أو السيارات الأردنية بالتحديد، والتي تتوقع أنها تكتسح الأسواق العربية، وتكاد أن تغرقها بمنافساتها المتلاطمة!

لا أجرؤ على أن أقول لها حقيقة عدم وجود سيارة واحدة مصممة في الوطن العربي كله، ومصنوعة بمليارات نفطه المهدور، وليس في الأردن وحدها! يزرقُّ وجهي ويحمرُّ ويخضرّ ويصفرّ.. أخجل من نفسي! أقول لك بصراحة؟ أشعر أنني أحتقر نفسي، واحتقر سياسات أُمتي التي لا تضع الخطط الإيجابية، ولا تدفع باتجاه الصناعات الثقيلة، لتكون أمة صناعية بين الأمم. ماذا ينقصها كي تكون؟ «أن نكون أو لا نكون، تلك هي القضية»[1] يا جماعة، لقد قرأت تقريراً محزناً يقول إن خمسة ونصف في المائة من علماء الولايات المتحدة أصلهم من عرب فلسطين، وأن (ستيف جوبز)[2] صاحب (أبل كمبيوتر)، هو ابن عربي سوري، وأن فاروق الباز خبير الأقمار الصناعية الأمريكية هو عربي من مصر، وكذلك أحمد زويل، وأن جبران خليل جبران وإدوارد سعيد

(1) هملت – شكسبير.

(2) (ستيف جوبز) مؤسس شركة أبل ماكنتوش عام 1976، وصاحب منتجات I phone, I pad ، أبوه عربي سوري اسمه عبد الفتاح جندلي، وأمّه «جوان سيمسون» ، تبنّاه «بول» و «كلارا» جوبز مباشرة بعد ولادته، ويعد من ألمع الأسماء في عالم الكمبيوتر!

وهشام الشرابي، وفاطمة المرنيسي وإبراهيم أبو لغد..وغيرهم كثير، قد هاجروا إلى الغرب هروباً من القهر والاستعباد، ونظراً لعدم وجود مدارس مناسبة تلمُّهم، وخوفاً من التصفية الجسدية في غالب الأحيان!

أُمتي التي هي «خير أمة أخرجت للناس»، فلما تولاها «أولو الأمر منهم»، (ضربوها عين ما تصلي على النبي) فلم تعد قادرة على أن ترفع ظهرها! لم تعد قادرة على صناعة إبرة خياطة، أو إبرة بريموس بابور كاز ———— كنا نستوردها مغَلّفة بورقة مكتوب عليها (تشيكوسلوفاكيا)، فتدكُّ أمي بابور الكاز، وتسخن لي إبريق ماء، ثم تغسلني وأنا طفل، كما تغسل الذبيحة من الدنس! إبرة بابور كاز يا الرَّبع! إبرة بابور!

ولا يزال الشاعر يهتف فينا، ونحن نبقبق خلفه، كالديكة أمام سكين اللحام:

«ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفيناً،
إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌ تخر له الجبابر ساجدينا»

وكان «نكِرةٌ» آخر يصيح فينا منشداً:

«لنا الصدر دون العالمين أو القبر!».

ها نحن لا نزال في القبر يا أخ العرب، بانتظار الحاكم الديمقراطي العادل، الذي سينتشلنا منه، لنستأنف مسيرتنا الحضارية المتعثرة في التاريخ!

وبينما أنا أسمع التعليقات حول شرائي سيارة ألمانية، يرتفع

صوت «عديقي»[1] توني الذي يزعجني شخيره في غرفة نومي قائلًا:

«يقولون إن العرب يسرقون السيارات الألمانية، ويخرجون بها للتجارة في بلادهم، فاحذر أن تكون سيارتك مسروقة!» فأقول له:

«إذا حصل شيء شاذ من هذا القبيل، وأنا لا أنفيه طبعاً، فتكون السيارة المباعة من ألماني إلى عربي، تتم كما حصل معي قبل عامين، عندما اشتريت سيارة من هنا، ولكن صاحب السيارة رفض أن يكتب عقد بيع وشراء بيني وبينه، وبمجرد إعطائي أوراق السيارة، قال إنها أصبحت لي، وبالفعل ذهبت لتسجيلها في دائرة السير الألمانية، فسجلوها لي بأوراقها، وخرجت دون معوّقات! وحسب ما فهمت، فبعد هذا البيع، قد يقوم بعضهم بالاتصال بشركة التأمين، فيبلغ عن سرقة سيارته، فتُلصق الصورة البشعة بالعربي، ويستثنى منها الألماني الذي قبض ثمنها، والذي بناء على معلومة السرقة المُلفقة، يقبض من التأمين الشامل ثمن سيارته!».

نخرج من الحفل فأقول له على انفراد، وأنا مغتاظ منه: «إن صورة العربي البشع يغرسها أمثالك، الذين يتركون جراباتهم لتنقع في المغسلة!»، لم يجبني زميلي الذي أتحمله على مضض، مرتبطاً بظروف المؤتمر.

وبصراحة فأنا لا أغلق فمي متجاهلاً نصيحة الصبية الجميلة بدعم صناعاتنا العربية، بل أفتحه على اتساعه، وأدلق فيه نصف علبة الجعّة الباقية لي مرة واحدة!

---

(1) عدوّي الصديق!

أسبوع برلين الأخضر!

الأيام التي قضيتها في «مؤتمر قادة شباب الأرياف» في ميونيخ عام 1982، لا تقارن بهذه الزيارة البرلينية في عام 1985، والتي دُعيت إليها مع عدد من الإعلاميين الزراعيين العرب من قبل «اتحاد مزارعي ألمانيا الغربية» لحضور «أسبوع برلين الأخضر»..

في مطار برلين يستقبلني مضيف ألماني مُرحباً، فيوصلني إلى الفندق، مركز تجمُّعنا.

في صباح اليوم الثاني يُعرّفنا على بعضنا حول طاولة إفطار الفندق. الرجل ودود ومتحدث لبق، شبابي التصرف، وقوي الشخصية، رغم أنه في الخمسينات من العمر. يقدم نفسه على أن اسمه ألفريد ليون، أتعاطف معه لكونه بيد واحدة.

بعد الإفطار تنقلنا حافلة صغيرة برفقته، فنتجول في المعرض الزراعي الكبير، المتنوع التخصصات، لدرجة أنهم يعتبرونه أكبر معرض زراعي في أوروبا كلها، يتقدمنا ليون في طرقات المعرض المتشعبة بأطوالها اللانهائية وهو يشرح لنا كثيراً من التفاصيل حتى ينتهي الوقت، وتغلق أبوب المعرض مساء، فيتفرق الزملاء كلٌ في

طريق، بينما أبقى أقف معه وحيداً، فأقترح عليه أن نمضي هذه الأمسية في شوارع برلين لنتعرف على ما فيها.

نسير معاً في أحد شوارعها الرئيسة، حيث كنيسة **قيصر ويلهيلم** البروتستانتية التذكارية، التي أبقوا برجها مهدوماً ذكرى للحرب، بينما ليون يحدثني عن ويلات الحرب العالمية الثانية، وكيف قطعت يده اليسرى وهو صبي صغير. يضحك وهو يقول: «الحمد لله أن الشظية ضربت ذراعي، ولم تضرب رقبتي، لكنت الآن مدفوناً في مكان مجهول!».

تستمر خطانا تتحدى صقيع شهر كانون الثاني المتحجر ثلجُهُ على رصيف شارع مكتظ بالمارة وباللافتات الإعلانية، وسط المدينة، فنصل إلى مكان مشعشع الألوان، أمام مدخل سفلي رطب لعمارة تجارية، تتجمع فيه صبايا صغيرات مع شباب يافعين محلوقة رؤوسهم إلى ما فوق الأذنين، وشعورهم الواقفة في القمة مثل زعانف السمك، مصبوغة بألوان خضراء أو صفراء أو زرقاء، أو بلون مختلف لكل واجهة، ومشكّلة، لتكون ناتئة مثل شعر القنفذ، فيبدون كلاعبي السيرك الصغار! أسأل ألفريد عنهم، فيقول لي إنهم يتعاطون المخدرات، ويرقصون بحرية مطلقة في ملهى شهير خاص بالمراهقين، مختفٍ في قبو العمارة.

أسأله إن كان يؤيد هذه الحرية الشبابية، وما هو شعوره لو كان أحد هؤلاء الأولاد ابنه، أو إحدى الصبايا ابنته، فيقول لي غاصاً بكلماته:

«عندها قد أقتله، أو أقضي عليها!».

نجلس لنتعشى في أحد مطاعم وسط المدينة، وكنت قد سمعت أن متاحف برلين تغص بآثار العرب، فأقول لألفريد:

«من لم يزر متحف قوم، فلن يعرفهم حق المعرفة!» فيعجب بمقولتي هذه، فأضيف: «ما دمتَ معجباً بما أقول، فأرجوك أن ترافقني لزيارة بعض متاحف برلين». فيقترح أن نقوم بزيارة سريعة في صباح الغد، وذلك قبل أن نذهب إلى المعرض، فأشكره على كرمه، وأستعد منذ الآن ليوم غد.

وفعلاً ففي الساعة الثامنة صباحاً توصلنا سيارة الأجرة في عجالة، من باب الفندق إلى «**متحف بيرجامون**»، فأقف بكل إجلال وتهيب أمام عظمة التاريخ، ولكنني أبكي إذ أشاهد **واجهة قصر المشتى المحفوظة بقسم الفنون الإسلامية بمتحف بيرجامون ببرلين** ————

واجهة «قصر المُشتّى» العربية الأُموية معتقلة هناك، فيقول لي ألفريد وهو يعرف سر دموعي التي تنساب على وجهي:

«لتكن آثاركم هنا في الحفظ والصون، أفضل من أن يقتلعها أفراد شعبكم، ويبنون بحجارتها بيوتهم الجديدة، أو يكسروا تماثيلها تحت مفهوم تحطيم الأصنام، أو تندثر وتذوب مع رمال الصحراء المنسية!»

تزداد دموعي انسياباً على وجه حضارة سادت ثم بادت، ومما يزيدها انسياباً هو شعوري أننا لا نزال نعيش في ذلك العصر البائد!

لا أعرف لماذا أبكي كلما أشاهد آثارنا العربية الفرعونية البابلية

الآشورية الكنعانية وهي تُسبى فتصبح جواري في قصور الغرباء. ذلك ما أشعر به أمام «بوابة عشتار» الأصلية، إذ أدخل لأقف قزماً ضئيلاً أمام أسود بابل الأصلية الشامخة بارتفاعات مذهلة في وسط بوابة عشتار في متحف برلين.[1]!

ألطم بكلتا يدي على صدري كما يفعل النادبون في احتفالات كربلاء قائلاً لنفسي:

«لماذا تكون الأصلية في برلين، ولا يتركون لبلادنا غير بقايا المواطنين المجندلين حول المتفجرات والألغام، فلا يبقى إلا وجه الله، والحكام الذين يطُخُّون المهلبية ويقوِّسونها، إذا ما قام «ابن جلا وطَلّاع الثنايا»...؟».

أشاهد سور برلين العزول بين الشرقية والغربية، فأطلب من ألفريد أن يسهل لي في صباح اليوم الثالث زيارة سريعة إلى برلين الشرقية ضمن مجموعة سياح أجانب، فيوافق، ويرتب كل مستلزمات الرحلة.

أتجه مع ألفريد ليون نحو سور برلين المحاصر من أعلى بأسلاك شائكة حلزونية مرعبة، فأشاهد من بعيد برجاً مرتفعاً، وعلى قمته انتفاخ كروي مثل الجرة، يُعلمني أنه برج الإذاعة.

نتوقف قليلاً عند بوابة (براندنبرغ) التي انطلقت منها جحافل

---

(1) عشتار البابلية هي نفسها عشتروت إلهة الجنس والجمال والحب غير العذري (البغي المقدسة) لدى الكنعانيين، فنقل الغرب عنهما الإلهة أفروديت عند اليونان وفينوس عند الرومان.

الزحف النازي باتجاه الحرب العالمية الثانية، ثم نواصل مسيرتنا فنصل إلى بوابة الحدود التي تذكرني ببوابة مندلباوم المقدسية، التي كان لا يسمح بالمرور فيها إلا لسيارات الصليب الأحمر الدولي، وفي حالات نادرة لبعض الأشخاص الذين تصعب حالهم على الكافر، فتجدهم ينامون أسبوعاً فوق الأسلاك الشائكة بين الأردن والأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1948، حتى يسمح لهم بالمرور لتأدية أمر جلل.

ولكن هذه البوابة أرحم بكثير من «**بوابة مندلباوم**» ذلك لأن المرور فيها سهل وممتع، إذ تبتسم في وجهنا ضابطة الحدود الشرقية، وهي تقف على درجات باب الحافلة الأمامي لتراقب الجوازات وتصاريح الدخول، وتقول لنا إنهم في برلين الشرقية يسمعون الإذاعات الحُرة، ويشاهدون قنوات التلفزة الغربية، وبخاصة قنوات حرية التعري!

تخذلني هذه المرأة التي لا تشاهد غير هذا، بينما كنت أتوقع منها أن تقف هنا لتبشر الغربيين بعالم شيوعي يتمتع بالأمن والعدالة والمساواة وعدم الصراع بين بني البشر!

تمر حافلات عديدة من أمامنا، يذهب بها الغربيون للتسوق في برلين الشرقية حيث المواد الاستهلاكية والمشتريات رخيصة جداً مقارنة بالغربية، وبذلك فهم يستنزفون اقتصاد البلد الاشتراكي ثم يبصقون على نظامها الذي يوفر لهم كل هذا، إذ يبث لهم عدد هائل من الإذاعات «الحرة» ومحطات التلفزة «الحرة» - التي كنت أشاهد برجها العالي «الحر» قبل قليل- برامج تشوقهم للحرية المزعومة في الغرب،

وتغريهم بلبس البنطال القطني المتين (الجينز)، وبالعلكة، ويعرضون لهم الشباب ذوي الرؤوس المحلوقة بحُريّة، والشعور الملونة بحُرِّية، وهم مترنحون في ملاهيهم الراقصة «بحُرية»، فيدوخ شباب الشرقية بهذه المظاهر الحرة، ويعبِّرون عن كراهيتهم للتفاح الذي زرعت جمهوريتهم منه قبل خمس سنوات خمسة ملايين شجرة في موسم واحد، فصار سعر التفاح عندهم بسعر التراب.

أسأل نفسي والحافلة تتسوق معنا في شوارع برلين الشرقية: لماذا لا يخصصون لهم مصنعاً ضخماً لإنتاج ملابس (الجينز)، فينفسون عن رغباتهم، فلا تبقى عندهم محنة اللون الأزرق، ولكنني أتفهم أن المشكلة أكبر من ذلك بكثير، إذ أن حوافز العمالة الشرقية معدومة، فالعامل يأخذ مائتي مارك مثلاً والمهندس يأخذ الراتب نفسه تقريباً، ومصمم سيارة «الوارت بورغ» قد يأخذ راتباً قريباً من العامل الميكانيكي في الشركة نفسها، فكيف له أن يسهر الليالي وهو يفكر ليبدع شكلاً مدهشاً لطراز السيارة الجديدة من هذا النوع؟ ولهذا تتأخر عندهم تقنية الصناعات والعلاقات التجارية وتتدهور الزراعات كماً ونوعاً، ويفسد الجو العام، بينما يتخيل الحاكم الشيوعي- أنه باق إلى الأبد- فينام في تعسيلة، وهو لا يدري أن الأيام «تمر مرّ السحاب»، بينما ينسحب البساط من تحت أرجل الذين يؤمنون بالمادية الديالكتيكية، ولكنهم لا يطبقونها على أرض الواقع! إنهم لا يعرفون أن المادية الديالكتيكية نفسها ستدثُر بقدمها كل هذه العروش المحنطة، وتستبدلها بقوم آخرين!

نقضي مساء اليوم الثاني نتجول في المعرض الزراعي الكبير، والـذي يحوي مختلف المواد الزراعية، من الزهور والنباتات والمدخلات الزراعية ومنتجاتها، وحتى المبيدات والماكنات والآليات، فيدعوني أحد زملائي الذي يزور المعرض ضمن الوفد إلى العشاء في بيت قريب له يدعى الدكتور فؤاد، وبعد تمنُّعي نظراً لأن الطعام متوافر مجاناً على حساب الجهة الداعية، إلا أنه يصر على أن نتذوق طبخة «مقلوبة» بيتية.

أذهب معه في مجاملة محرجة، وبعد السلام والكلام، نجلس لنأكل الطعام الذي تقدمه زوجته الفاضلة. أمضغ طعام أرز غير ناضج، يبررالدكتور ذلك وهو يشاركنا بمقلب «المقلوبة»، بأن زوجته عروس جديدة، وهي لم تتقن فن الطبخ العربي، خصوصاً وأنها تعيش في ألمانيا، بعيداً عن أمها، أو جاراتها اللواتي قد تصحح إحداهن أداءها المطبخي!

أمضغ الأرز غير الناضج، بينما يطلب الدكتور فؤاد مني طلباً يقول إنه بسيط، فأقول له وأنا أبتلع طعامه على مضض:

«أنا حاضر لتنفيذ كل طلباتك! ولو! لقد صار بيننا طبخة «مقلوبة» يا دكتور!»، فيتابع الدكتور فؤاد وهو يضحك مُحرجاً بقوله، إنه سينهي دراسته قريباً في تخصص الأثار من جامعة برلين. أقاطع حديثه مبارِكاً له التخرج مسبقاً، فيتشجع وهو يرى الفرح على وجهي، ويُسِرُّ لي أنه سيرسل معي بعض الكتب إلى عمان، لأنه بحاجة إلى من يساعده في نقلها.

«حاضر، أنت تأمر!».

لا أتخيل أنني سأدفع ثمن هذا الطعام النيء غالياً، ولكنني صرت مُتزفِّراً بلقمتي، فصرت متورطاً بحملي لما لا أستطيع له حملاً!

في اليوم الثالث ننتهي من زيارة برلين، فيبقى ضابط الارتباط ليون مرافقاً لي، يدلني على الطريق، ويُعرفني على المكان، ويدفع عني مصاريف الضيافة الرسمية مشكوراً، وفي ليلة العشاء الأخير يحدثني محزوناً:

«بناء على اتفاقية بوتسدام التي وقعتها (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي) في نهاية الحرب العالمية الثانية، قطّع الغربيون والشرقيون الكعكة الألمانية الثمينة، فحُظر على ألمانيا تصنيع طائراتها أو امتلاكها أو حتى استخدام الموجود منها، لدرجة أن المسافرين الألمان اضطروا إلى استخدام طائرات أوروبية وأمريكية وروسية. وتم حظر تحليق خطوط طيران لوفتهانزا كلياً وحتى عام 1955، وأما الطريق البري بين برلين وألمانيا الغربية فيتم بطريقة لم يعهدها التاريخ!».

يؤلمني هذا التكبيل لشعب مهزوم، لا علاقة له بما فعلته الطغمة النازية، ولكنه يشجعني على أن أقول له:

«هل أستطيع أن أعود من برلين إلى فرانكفورت بالقطار الذي قلتَ إنهم جزّؤه، ففصلوا جسده عن أرضه!». قلت ذلك وأنا أتفهم هذه الحصص من غنائم الحرب العالمية الثانية، ذلك لأن وطننا العربي

كان مثلهم قد وقع غنيمة للغرب، فجزأه الداهيتان سايكس وبيكو كما تُجزأ الكعكة، وأهديا قلب الكعكة «فلسطين» لإقامة وطن قومي ليهود العالم، بدل شعبها المقرر شيطنته، وتشريد من لم يُقتل منه إلى مختلف بقاع الأرض، فيوافق ليون ويَعد بتحضير تذكرة وإجراءات سفري صباح غدٍ!

أتجه صباحاً برفقة الصديق ليون إلى محطة القطار، وهو يصر على كرم الضيافة الشديد، بأن يحمل عني الحقيبة الكبيرة المحشوة بكتب الدكتور فؤاد، والتي لم أكن أتوقع أن تكون بهذا الحجم والوزن الثقيل. ومع ذلك يصر مرافقي الألماني على حمل الحقيبة الثقيلة، ونقلها من سيارة الأجرة إلى محطة القطار، بينما أنا أشدُّها من يده الوحيدة المثقلة بها، لأتحمل مسؤوليتي في معاناة حملها، بالإضافة إلى حقيبة ملابسي التي أضفتُ إليها بعض المشتريات والهدايا، فصارت ثقيلة أيضاً.

وعند شباك التذاكر يدفع ليون عني تذكرة القطار، وللمرة العاشرة يحمل الحقيبة المحشوة إلى القاطرة التي ستقلني إلى فرانكفورت. أشعر بخجل كبير منه، فأقول له مُقدراً:

«كان هتلر يريد احتلال أوروبا وتوحيدها بقوته العسكرية، ولكنكم اليوم تحتلون العالم بكرمكم المُغدق!» يدهش لعبارتي ويقول إنني أُتقن التعبير عن مشاعري، ويؤكد أنه سينقل هذه العبارة الانطباعية إلى المسؤولين في الاتحاد.

يعبر قطار «برلين– فرانكفورت» فوق أراضي ألمانيا الشرقية–

فأشاهد سكة حديد ألمانيا الغربية التي يسير عليها، فوق أراضي ألمانيا الشرقية، والتي تحيط بها من الجانبين ما تسمى بألمانيا الديموقراطية، بينما هي مُحنّطة بعدما تحنّط ستالين العظيم في أواخر أيامه، فاستمرت صناعة تحنيط الشخصيات في الاتحاد السوفياتي، وكل دول المنظومة الاشتراكية المرتبطة بها، لتنتج أكبر هيكل مجمع للتحنيط في العالم، والذي أعتقد أنه غير قابل للاستمرار، بل سيفقع وينكسر مرة واحدة، وينهار تحت ثقل الدكتاتورية المقيتة من علٍ، وبفعل التدمير التآمري من الغرب.

أشاهد هذا القطار الغربي الذي يسير على أرض شرقية ليست له، إذ يمر فوق سكة حديد معزولة من الجانبين، ليصل بعد عدة ساعات إلى ألمانيا الغربية، حيث يقف رجال الجيش الألماني الشرقي في مراكز رصد كثيرة بمعاطفهم الصوفية الجيشية الثقيلة، وأسلحتهم المعلقة على أكتافهم، بينما لا يسمح للقطار بالوقوف في هذه المحطات، بل عليه أن يقطع المسافة كلها على نَفَس واحد، وإذا اضطر للتوقف لقضاء حاجته، فيتوقف ويعملها دون فتح منافذ الخروج، بينما تتم رقابة جناحي القطار من بُعد، دون الدخول فيه..

لا أفهم هذه الحروب التي تجعلنا نكره الآخرين، الذين يقتلون شعوبنا، ويدمرون بيوتنا، فنقف بالمرصاد لمن صاروا أعداءنا، مسلحين على جانبي الطريق!

يا جماعة، الشكوى لغير الله مَذَلّة!

أنزل وحدي في محطة قطارات فرانكفورت، دون استقبال من أحد، ودون شخص يكلمني بالإنجليزية أقلّه، والتي تعودت الحديث بها مع المضيفين، إذ أنني لا أعرف اللغة الألمانية. ومن هنا سأتجه إلى المطار للسفر إلى عمان. ساحات كبيرة وواسعة متشعبة المداخل والمخارج في محطة القطار الرئيسة وسط فرانكفورت. أطلع أدراجاً، وأنزل أخرى بحقيبتين، واحدة لي، والأخرى المُعذِّبتي بكتب **الدكتور فؤاد السعيد** بتخرجه، وأنا أفكر في خريطة الطريق!

أسأل رجلاً ألمانياً بالإنجليزية عن مكان ركوب قطار الأنفاق، الذاهب إلى المطار، فيشير لي أنه لا يعرف! أسأل آخر، فيجيب بالإشارة نافياً معرفته!

أسأل سيدة تسير مستعجلة أمرها، فلا تتوقف، وتشير برأسها بعدم المعرفة. يحفى لساني لتكرار السؤال لعدة أشخاص.

يشير أحدهم بإصبعه إشارة دون حديث، أن استعلامات المحطة هناك..

هل يُعقل أن الناس كلهم الذين تغص بهم هذه الساحات لا يعرفون كلمتين بالإنجليزية، وليست العربية المغضوب عليها، والتي سامحْنا بها فرَطنّا بغيرها، ليدلني أحدهم على الطريق؟ وهل هناك عداء بين اللغتين الإنجليزية والألمانية، كي يرفض الألمان تقديم المساعدة المعلوماتية بتلك اللغة؟

أين أنتِ يا أيام «**مؤتمر قادة شباب الأرياف**» في ميونيخ، حيث كان المعهد كله خلية لغة إنجليزية؟

أحمل حقيبتيّ غير المتوازنتين بثقليهما نحو استعلامات فرانكفورت.وأنت يجب أن تحمل إذ أن الحقائب ليست لها عجلات تساعدك على جرها كما يفكرون بتصاميمها المستقبلية ــــــــــــ صف طويل، أقف فيه في انتظار الوصول إلى مصدر المعلومة. نصف ساعة من التقدم في الصف خطوة خطوة. أصل إلى الكوخ، فأسأل بالإنجليزية الرجل المنهمك داخله بخرائطه وبنظارته التي يشغله خلعها ثم تثبيتها فوق أنفه الشَّعور، وبسماعته التي يتحدث بها من وراء زجاج ثقيل عن كيفية وصولي إلى المطار، فيشير شَعور الأنف بإصبعه إلى أعلى. أنظر إلى أعلى، فأقرأ بالإنجليزية:

«الاستعلامات باللغة الألمانية فقط!

(Information only in German language)».

يصدمني ما أقرأ! يخنقني هذا الضياع وسط مدينة تغص بالأجانب! لم أتخيل أنني سأكون غريباً إلى هذه الدرجة في فرانكفورت، وقد كنت قبل قليل الضيف المدلل في برلين! انتقل من النور إلى النار مرّة واحدة!

أتذكر قصة ذلك اليمني المُخزِّن وهو جالس مُتسلطناً في صدر دكانه الصغير جداً، والواقع في قبو عمارة يمنية، وهو لا يريد أن يزعج سلطانَه أحد، فإذا جاءه زبون من الحارة ليشتري شيئاً، فإنه يتقدم صامتاً فيأخذه بيده، ويدفع للمتسلطن الثمن المكتوب على العلبة، وأما إذا قال الزبون:

«السلام عليكم». فإن صاحب الدكان يؤشر له إلى لافتة معلقة فوق باب الدكان من الخارج، ومكتوب عليها:

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

اللافتة المتسلطنة نفسها مثبتة هنا فوق كوخ الاستعلامات الألماني الحضاري، ولكن باللغة الإنجليزية!

ما هذه الغربة الموحشة؟ أحتار كثيراً، فنقودي التي قد أحتاجها هنا وهناك محدودة، ولكن ثقل الأوزان يضطرني لأن أركب سيارة أجرة تقف قريباً مني، فتقلني إلى المطار. أدفع للسائق حسب العداد الذي يشير إلى أكثر من عشرة أضعاف أجرة قطار الأنفاق!

أصل إلى المطار متأخراً عن موعدي بعض الشيء. وبأقصى سرعة ممكنة أُحمّل الحقيبتين على إحدى عربات المطار، وأدخل بها طيراناً إلى حاجز استقبال طيران عالية. أقدم تذكرة سفري. يقول لي موظف يقف دون اهتمام: «نعتذر، فإن مقاعد الطائرة مملوءة، وهي على وشك أن تغادر».

«كيف ستغادر وأنا أقف هنا؟».

«أنت لم تتصل لتأكيد الحجز، ولم تأت قبل الموعد بساعتين، فأعطينا مقعدك لغيرك».

«ولكنني تأخرت في محطة القطار بغربتي!».

«هذه ليست مهمتنا فنحن مختصون بطائرتنا وليس بقطاراتك!».

«ولكن تذكرتي مكتوب عليها أن الحجز مؤكد من مكان صدورها!».

«ومع ذلك يجب تأكيد الحجز قبل أربع وعشرين ساعة، وتأخيرك ليس مسؤوليتنا.انتظر الطائرة القادمة».

«ومتى ستكون الطائرة القادمة؟!».

«يوم الخميس إن شاء الله، أي بعد ليلتين قادمتين بإذن الله».

«ولكن من يدفع لي نفقات إقامتي إن شاء الله، ومصاريفي كل هذه الأيام الثلاثة التي سأمضيها بإذن الله؟».

«هذه ليست مسؤوليتنا!».

تذكرت ما قاله أحدهم لي إن «عالية» تتأخر عادة، وإن (ALIA) هي اختصار لعبارة (Alwais Late In Arrive) ولكنها تقدمت هذه المرّة!

يطول تعذيبي بهذه المنغصات المعقدة ــــــــــــــ لا أعود من المطار بخفي حُنين، بل بحقيبتين ثقيلتين هذه المرة. أعود بقطار الأنفاق وقد تشوهت في ذهني كل الذكريات البرلينية الجميلة، وجعلتني أكره السفر!

ونظراً لشح النقود في جيبي، أنزل في المحطة الرئيسة في فندق رخيص من فئة النجمة الواحدة. أهم شيء أفكر فيه هو التخلص من حمل الحقيبتين، ورَكنهما في غرفة أنام فيها إلى أن يحين موعد انقضاء الأيام الثلاثة. ماذ أفعل إذ لا أعرف الألمانية، وأنا الأعزب لا زوجة لي، أو صديق أقضي وقتي معه؟

أخرج لأتعرف على ما حول فندقي. أشاهد مقاهي يجلس عليها رجال ونساء يحتسون الجعّة الصفراء، والغامقة اللون، بكؤوس زجاجية عملاقة، كل كأس بحجم قدر طعام! ليس لي رغبة باحتسائها،

فكيف أقضي الوقت؟! في هذه الأيام المفرغة من مضمونها، أفكر بالسفر في رحلة سياحية داخلية.

يلفتني فوق الأدراج البعيدة مكتب سياحي يضع صورة كبيرة لقبة الصخرة المشرفة في القدس، التي أُقدسها وأشتاق إليها. تشدني الصورة المُكبّرة والمُضخمة لدرجة تطاول الجبال، فأقترب منها ــــــــــ أقرأ عليها عبارة مكتوبة بأكثر من لغة: «زوروا إسرائيل!» تصدمني العبارة! فهذه القبة هي الوحيدة التي لا يرقى إليها الشك بأنها عربية إسلامية، فكيف تكون «إسرائيل»؟! أين هي أمة **محمد** التي تثور وتفعل الأعاجيب إذا ما تجرأ أحدهم وقال في النبي قولاً أو رسم كاريكاتيراً يحتمل الهمز أو اللمز، ولكنها تصمت صمت القبور وقبة الصخرة المشرفة بإسراء **محمد** إليها ومعراجه من أولى القِبلتين إلى السماء تصبح هي إسرائيل؟

أتراجع إلى الخلف مقهوراً مقهوراً مقهوراً. تعذبني الصدمات التي لا أزال أتعرض لها! ــــــــــ وعلى زجاج باب مكتب سياحي آخر، أقرأ عبارة تقول:

«تذوق النبيذ على نهر الراين» (Taste the wine on the rhine!)

أدخل مفقوعاً إلى المكتب، فأشتري بطاقة لرحلة صباح الغد، ثم أعود متعباً إلى فندقي الكئيب والوقت مساء.

في الممر الداخلي المنزوي في العمق خلف حاجز الاستقبال، أشاهد أحدهم يدخل خلف صبيّة، يبدو أنها موظفة الفندق، وهو يملأ

كفيه بسمانتي إليتها، وكأنه يتحسسهما بشهية، ويهزهما بمداعبة، بينما هي تسير أمامه دون أن تلتفت إليه، ورأسها في الأرض، دون احتجاج منها على تحرشه بها، إلى أن يختفيا داخل الممر!

أتمدد لأنام القيلولة على سرير لا يزيد عرضه على الستين سنتيمتراً، بخاصة بعد مشقة هذه المنغصات.

أفيق في الثامنة ليلاً، فأخرج لأتسكع في شوارعها، وأشاهد عماراتها الشاهقة الارتفاع. ماذا أفعل؟ أدخل مجمعاً سينمائياً. تبدو إعلانات أفلام السينما الأمريكية مدبلجة باللغة الألمانية، فلا أفهم شيئاً منها. أتمنى لو أن تلفازاتنا وقاعات السينما لدينا تدبلج كل لغة أجنبية لتصير باللغة العربية، التي صرنا نتآمر لاغتيالها جهاراً نهاراً، حتى في الدوائر الرسمية!

دار السينما تعرض في المبنى نفسه عدة أنواع من الأفلام، دراما، ورومانس، وحروب، وخيال علمي، وأفلام أطفال، وأفلام جنسية بحتة! أقول لنفسي:

«هذه يا عمّ بلاد حرية نظام رأس المال، حرية حتى في الجنس، ولكنني فيما يخص التربية والتعليم استغرب حشو قاعة سينما الأطفال في ممرات تعرض أفلام الجنس، فكيف يمر الطفل مع أمه أو مع أبيه، وهو يشاهد كل هذا التنوع الإباحي، الذي لا يستوعبه بعد، وحتى لو فهمه، فهو ليس في مرحلة تدبر أمره وتقرير مصيره؟

يصعقني ما هو معروض في مدخل أحد الجدران داخل طاقات

زجاجية، إذ أتوقف أمام علب قد تكون تحوي منشطات ذكرية وأخرى أنثوية، ومعروضات جنسية مخجلة لأجهزة ذكورية ذوات نتوءات مقززة تخص السحاقيات، وقد تكون لرجال مثليين! يا عالم! أحاول التعرف على أشياء الشواذ، ورغم أنني لا أستطيع قراءة اللغة الألمانية المكتوبة عليها لأعرف ماهيتها، إلا أن الفضول يدفعني لتصفح الزجاج، كي أفهم ما بداخل طاقاته العارضة.

يستثيرني التسكع وحيداً في هذه الليلة الكئيبة، وبدافع الفضول، أدخل فيلماً لا يحتاج إلى ترجمة، إذ يعرض ممارسات جنسية مباشرة! نعم جنسية، لماذا تنظر إليّ هكذا؟!

صالة السينما المعتمة مضغوطة، وصغيرة المحتوى، وعدد الحضور محدود. أشاهد مشهدين، ثلاثة ــــــــــــ تسعة، فأشعر بتقزز مع ضغط هرموني يطاردني في دمي، يلوث ثقافتي المحافظة، ويكاد أن يخرجني عن طوري. أنظر نحو مؤخرة جمهور الصالة الصغيرة، فأسمع أصوات تأوهات. لا أشاهد شيئاً، لأن الخلفية معتمة. وبعد مشهد عاشر يشعرني بقرف يدفعني لأراجع ما في بطني، أقوم خارجاً، ماراً في طريقي باتجاه خلفية الصالة، حيث أشاهد في العتمة رجلين ملتصقين يهزُّ أحدهما بمؤخرة الآخر. يبدو أنهما من المخنثين المتعاطين للمخدرات، لا أشاهد شيئاً واضحاً، فقد يكون أحدهما يمارس فعله في الآخر! منظر معتم غير واضح المعالم، ولكنه مُرعِب ومقزز! لا أدقق النظر فيه. أشعر بخوف من هذا المشهد الذي لم

أتوقعه، ولهذا أبقى سائراً في العتمة أمامي باتجاه الدرجات المؤدية إلى الخارج، وقد أتعرض لسرقة أو نهب من عصابة قد تكون تنصب فخها في مؤخرة الصالة! أخرج مسرعاً في الممر الرئيس. أتنفس الصعداء وأنا أرى مصابيح كهرباء الشوارع تنير الطريق، وتعيدني إلى الحياة من جديد!».

هذه فرانكفورت يا حبيبي، أكبر مدينة تجارية وسط ألمانيا، فيها الحضارة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون والآداب، وفيها الصدق والدجل والنهب والسلب، ولعب الورقات الثلاث، وفيها الجنس الرخيص! أنام كالقتيل وأنا أحلم بالعودة إلى بلادي. صحيح أنه لا مكان مثل الوطن.. لا مكان مثل البيت!

يشرق صباح اليوم الثاني، فأستعد للخروج وأذهب مسرعاً إلى المكتب السياحي فأصل قبل الموعد بدقائق. أصعد إلى الحافلة التي تتحرك في موعدها، فتسير بمحاذاة الراين، خارجة بالسياح من اكتظاظ مدينة تجارية متشابكة، وعلى الطريق البعيد تنتشر كروم عنب واسعة على سفوح التلال. تقول المضيفة: «ينبع الراين من ثلوج جبال الألب، فتتدفق مياهه البكر نقية شهية رقراقة، لتصل إلى فرانكفورت وما بعدها ملوثة بمخلفات المصانع». وتذكر أن جماعة الخضر تناضل لمحاصرة مصادر التلوث فيه.

النهر يفيض على الجانبين طافحاً بمياه فوق طاقة احتماله، يبدو أنه يتلوّى في مساره الطبيعي فيغص بشربه لكل هذه المياه المتدفقة

فيبدو كبحر مائج. وبعد مشوار غير بعيد، نصل إلى قرية ترتفع عن مستوى النهر، مجللة بكروم العنب، بينما مضيفة الحافلة تقول: «لقد زُرعت هذه السفوح اللانهائية المدى بالعنب، وذلك لتقليل اعتمادنا على النبيذ الفرنسي، بخاصة ذاك الذي كان يأتي رخيصاً من الجزائر».

تمرّ حافلتنا بشوارع القرية الضيقة بصعوبة بالغة، كاللقمة غير الممضوغة وهي تنزل في الحلق، إلى أن تتوقف فننزل أمام باب بناء حجري قديم، يقبع منخفضاً عند حافة المزرعة المنحدرة سفوحها علينا من قمة الجبل، وكأنه قلعة ريفية قديمة.

ندخل بإشارة من المضيفة إلى كهف مفتوح للتهوية من جهتين. ننزل عدة درجات في قبو قليل العتمة، فنشاهد في ثناياها مستودعات من زجاجات النبيذ المخزنة على الجدران العتيقة، في مكان رطب بدرجة حرارة مناسبة لتعتيق الخمر. أقرأ على كل زجاجة تاريخ تخميرها، فهذه قبل سنة، وهذه قبل خمس سنوات، وتلك الرهيبة المعتقة منذ عشرين سنة، ولذلك فهي غالية السعر. أرى صاحب المستودع ذكياً في مهنته، فهو لتسويق بضاعته يعرض علينا أن نتذوق بكؤوس زجاجية صغيرة، بسعة فناجين القهوة العربية السادة؛ هذا نبيذ أبيض، وهذا نبيذ وردي، وهذا نبيذ أحمر، بينما هو يشرح لنا بعبارات رومانسية مغرية مميزات هذا وذاك،!

نتجول داخل الكهف الذي يشبه حجرات القلب المجوفة، وكأننا داخل الفيلم الأمريكي (الرحلة العجيبة) الذي يمررنا داخل

شرايين القلب، إلى أن يوصلنا إلى تجاويفه، فيشعرنا أننا نكاد نختنق رعباً، ولكننا هنا لا نختنق رعباً، بل ننتشي سعادة لشرب عصائر العنب المعتق.

يطلع السكارى من جوف المغارة على درجات داخلية ريفية قديمة تميل بنا ذات اليمين وذات اليسار وقد اشترى كل منهم زجاجة إلى عشر زجاجات كبيرة، تجده يخرجها بسعر مضاعف لسعر السوق وهو راض منتشٍ بهذه الذكرى السعيدة!

قد يكون الشراب هو الذي يميل بهم دون أن تميل بهم الريح، فلا أتمالك نفسي إذ أخرج من كهفهم دائخاً منتشياً وأنا أغني مع فيروز:

«يبقى حنا سكران، قاعد جنب الدكان، عم بيصوِّر بنت الجيران.».

نتغدى في مطعم ريفي على ضفاف الراين، الذي يفيض على الطرقات بمياهه العكرة. أتخيل هذه الفيضانات وهي تغمر ضفاف نهر الأردن، فتخضر سهول الأغوار، وينبت الزرع يانعاً على الضفتين، وأما بعد أن داهمه جفاف زلزال الاحتلال، فلم تعد تنزف فيه سوى بعض مصارف المياة الزراعية العادمة!

أعود إلى الفندق ليلاً، فأشاهد رجلاً يرتمي على قمة درج مدخل محطة قطار الأنفاق، كث الشعر، مهترىء الهيئة، مستهلك الجسد، مريض الوجه الشّعور النابت بالبثور، رث الملابس المسودّة الاتساخ، أما القشريتا الجلد الجاف فممدّدتان مبقعتان ببقع حمراء منتفخة بفعل إبر المخدرات.

تفتح عينيك في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثالث على هذه الكتب الثقيلة، والتي تخلّص منها الدكتور الفرِح بشهادته، فألصقها بك، لتجعلك تكره الكِتاب، وتتعقد من القراءة والكتابة، وتبتعد عنها خارجاً من غرفتك لتناول الإفطار الكونتننتال المرتبط بمنامة الفندق.

تنتظر ساعات وساعات لإقلاع الطائرة في الثامنة مساء، تخرج تتجول في الشوارع. تسير في الشوارع القريبة من محطة القطارات، وأمامك بقية من الوقت للتسكع في هذا الصباح الأخير. تتجول هنا وهناك بحذر وليس معك قوة شرائية لتشتري غير طعامك وحاجاتك اليومية، وأنت لا تعرف ما تخبئه لك الساعات الباقية. تعرف أنها منطقة دون المستوى، ولكن القهر والأنف الفضولي لضابط المخفر السوري أبو كلبسشة يدفعك للتنفيس عن خيباتك الدونكيشوتية، وذلك بمحاولة معرفة سكان العالم السفلي. تقول هذا لأن صالة تعرض مشاهد جنسية إباحية حية تشدك إليها. ورغم أن الدنيا لا تزال صباحاً، فإنك تلج المكان المزركشة جدرانه بالصور الإباحية، مع نفر قليل من الرواد الضالين، وفي داخل الصالة تقف أمام طاقة مغلقة، فتدفع ماركين اثنين في شق نقدي صغير، فيفتح لك «سمسم» طاقة صغيرة مزججة، تطل من خلالها على عدة نساء عاريات تماماً!

تسألني: «تماما؟» أقول لك: «آه! تماماً تماماً!» تشاهدهن يجلسن في زوايا جدارية تخفيهن عن بعضهن بعضاً، ولكنهن يظهرن للرائي من الجهة العريضة للزاوية على أطراف طبق دائري أسود كبير

يشبه حجر الرحى، والطبق يدور ببطء على الأرض فيُقرب لك واحدة ويبعد أخرى، من النساء اللواتي لا يملكن سوى أن يَطحَنّ أجسادهن العارية على الرحى، ليحصلن على معاشاتهن الحزينة.

تحدق من خلال الزجاج، لتملي ناظريك من عري كل واحدة تقترب من طاقتك، فتشاهد تفاصيل ثنايا هذه الشقراء، وهي تعرض ما بين فخذيها في وضع استعراض جنسي مختلف، وتلك السوداء تعرض مؤخرتها المكورة، فتشاهد عليها تشعب خطوط شُعيرية بيضاء، فتكره هذا التفسخ الجلدي على جسد المرأة، سواء كانت سوداء أو بيضاء! والدائرة تدور فتعرض عليك هذه النحيلة الجسد، وهذه الممتلئة البطن، والمربربة الردفين، وكل النساء المعروضة أنوثتهن الجنسية على الطبق.. ثم ينطفىء النور!

ما هذا؟! يلعن أبو الذي أطفأ النور!

تنتبه إلى أن الماركين اللذين دفعتهما قد استُهلكا، فتضطر إلى دفع ماركين آخرين، ودون أن تقول: «افتح يا سمسم»، تفتح طاقة مغارة علي بابا الألمانية ثانية، فتعود لمشاهدة ما لم تشاهده على الطبيعة في حياتك، لدرجة تمل معها النظر، وتتبلد أحاسيسك، وتتجلد عروقك، فتخرج شاعراً بالغثيان، بينما الرجل صاحب الصالة يناديك بالسماعة، سائلاً إياك: «لماذ تخرج من عندنا مسرعاً، ولا تقضي معنا وقت متعة أطول؟ هل أتيت فقط لتُصبِّح على نسائنا، فتطمئن عليهن وتخرج بالسلامة؟».

تنسحب مسطولاً وأنت تفكر في هذا النظام الرأسمالي الذي يستهلك كل شيء، حتى جسد المرأة، بينما إعلامُه الحر يتباكى على حرية المرأة!

تعود إلى فندقك الكئيب فتستلقي وحيداً في غرفتك السردابية الصغيرة، وتتلوى موجوعاً، إلى أن يأتي وقت الإفراج عنك، فتحمل حقيبتيك المثقلة إحداهما بوزن الدكتوراه المقيت، وتغادر بقطار الأنفاق الذي صرت تعرفه جيداً، إلى المطار، ثم إلى بلادك التي اشتقت إليها، فتصل غانما خائباً!

افعلوا ما يفعله العرب!

تختلف زيارتي إلى بلدان ألمانيا الموحدة، التي أقوم بها في عام 1992 ضمن مجموعة إعلاميين آسيويين، عن زيارتي خلال «مؤتمر قادة شباب الأرياف في العالم» الذي تم في ميونيخ عام 1982، وعن غيره من الزيارات السابقة، حيث نصل فرادى إلى مطار فرانكفورت، كل من جهة.

في هذه الزيارة الإعلامية، يستقبلني من باب الطائرة في مطار فرانكفورت شاب ألماني وسيم، يقول إنه من المركز الألماني للإعلام، وإنه يُحضِّر للحصول على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية..

أفكر وأنا ألتقي زملائي الأسيويين في سبب هذه الدعوات الألمانية الموجهة لاستضافة كل شخص إعلامي متخصص في العالم! يبدو أنهم يريدون أن يطمروا زلزال الحرب العالمية الثانية، ليعطوا صورة حداثية مشرقة لهم، توصل ماضي ألمانيا العريق، بحاضرها العلمي الحضاري!

نحن أربعة عشر محرراً من عدة دول آسيوية، ينزلوننا في فندق الكونكورد الواقع في حي المصارف التمويلية، فننام متعبين. في صباح

اليوم الثاني نصل برفقته إلى مبنى تلفاز فرانكفورت. نتجول هنا في الاستوديوهات، ونزور مركز الاتصالات داخله. ألاحظ أن التلكس لا يزال عندهم هو الوسيلة الرئيسة للاتصالات. أسأل الموظفة التي تجلس أمامي:

«لماذا لا تُحدِّثون مركز الاتصالات، فتُعمِّمون بريد (الفاكسميلي) وقد انتشر في كل الاتصالات بدل (التلكس) الذي صار طرازاً قديماً؟» فتقول الموظفة:

«إنها مسألة توفير في النفقات، وإن ميزانية المؤسسة لا تعطي أولوية لتغيير شبكة الاتصالات الرئيسة، لأن تغييرها يكلف كثيراً!».

أستغرب هذه الألمانيا العظمى، التي تقتصد في نفقاتها بينما تهدي إلى إسرائيل أحدث الأسلحة والغواصات الحربية المصممة لتحمل رؤوساً نووية، وتقدم لها مختلف أنواع المساعدات المليارية والمعنوية غير المشروطة مجاناً، وذلك تكفيراً عما حصل لليهود في الحرب العالمية الثانية، وكأن اليهود هم الوحيدون الذين اكتووا بنار الحرب، ولم يكتو بها الألمان أنفسهم، ولم يُعدم شعب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل النووية الأمريكية، فلا يدفع لهم أحد يا حرام!

نزور جامعة هِيسِّن في هذه الولاية، فيفهمنا المحاضر الإعلامي أن ألمانيا المكونة من ست عشرة ولاية، مقسمة إلى ثلاث مناطق غير قابلة للتغيير، الثلث الأول للمعمار والمباني السكنية والتجارية، والثاني للمزروعات الاقتصادية، والثالث للغابات الطبيعية، التي لا

يجوز الاعتداء المعماري أو الزراعي عليها بأي حال من الأحوال، ولا يسمح حتى ببناء كوخ صغير في منطقة الغابات، وذلك للحفاظ على البيئة!

في ولاية (هِيسِّن) ترافقنا دكتورة متخصصة في الغابات للاطلاع على نموذج من غابات ألمانيا، فنشاهد قطعان الغزلان البرية تطارد في الطبيعة الساحرة هنا بين الأشجار المحمية من أي شرور. وتقول دليلتنا:

«في الموسم الشتوي يسمح باصطياد الغزلان لفترة محدودة، كي لا تتكاثر أكثر من اللزوم، ولا تصبح عبئاً على البيئة فتعتدي على المزارع، وتقطع الطرقات السريعة، فتحصل حوادث مروعة». تعدِّل صاحبة العينين الخضراوين نظارتها الطبية، التي تعجبني عدستاها المميزتان بكونهما إهليليجيتين وتصميمهما المميز يضيف جمالاً إلى جمال عينيّ هذه المرأة، فيجعلاني أرى روحها المرحة في عينيها المُشعتين حيوية وذكاءً وحركة، بينما هي تضيف قائلة:

«إن القانون لا يسمح للشخص باصطياد أكثر من غزال واحد في الوقت نفسه، وذلك حفاظاً على توازن البيئة!».

وإلى منطقة أخرى تأخذنا لنشاهد أشجار غابة موبوءة بالحشرات. كيف سيكافحون الحشرات؟

طبعاً لا يمكن رش المبيدات الحشرية، لأسباب كثيرة، منها تلويث البيئة، وعدم القدرة على السيطرة على حشرات هذه الأشجار

الباسقة، حيث أن السوس ينخر سيقان الأشجار حتى قممها، ويختبىء داخل لحائها، ناهيك عن التكاليف الباهظة التي ستدفع لمثل هذه المهمة الوطنية الشاقة، والمكللة بالفشل المطلق! وتضيف قائلة:

«انتبه علماء الحشرات في الجامعة إلى أنه لا يواجه الحشرات الضارة إلا حشرات تهاجمها فتتغذى عليها، إذ تجد أن أسد المن يهاجم حشرة المن ويضعف تواجدها إلى أقل ما يمكن. ولكن كيف يتم ذلك؟».

أشعر برعب شديد، بعكس كل زملائي الذين يشاهدون الفيلم الذي يعرضونه لنا في قاعة تابعة للجامعة، حول مكافحة حشرات المن وهم يتضاحكون! يا إلهي! إنهم يرأفون بحال النباتات المزروعة والغابات الطبيعية، فلا يرشونها بالكيماويات، بينما يقذفون أبشع الكيماويات المُنَصَّبة على العرب ليفنوهم عن بكرة أبيهم، فلا حاجة لهم بهم بعد!

لا شك أنه مشهد مخيف! وسبب تضاحك الزملاء المشاهدين لحشرة المن، المكبرة على شاشة العرض، هو أنها منتفخة مثل خدين طافحتين لطفلة بريئة، بما تحوي من سائل امتصته من عصارة ورقة النبات التي تعيش عليها.

أشاهد الفيلم الحشري، بينما يشغلني ما تبثه نشرات الأخبار المتدافعة المتدفقة لما يحصل في مختلف بقاع وطننا العربي الكبير، مثل رش المطر، فالواحد منا لا يفيق إلا ويده تكبس على زر التلفاز،

ليسمع آخر أخبار تدمير الوطن العربي بأيدي الغزاة المتقدمين.

يغرس أسد المن بيوضه في الجسد المنتفخ لحشرة المن على الشاشة، بينما نشرة الأخبار تقول:

«غرست القوات الغازية المتعددة الجنسيات جنودها الآليين في بلاد العرب، فانهار النظام تماماً.». تصرخ نشرات الأخبار في مخيلتي وأنا أشاهد حشرات المن المنتفخة أجسادها بعصارات أوراق النباتات التي تقف عليها، وأتخيل أن انتفاخها يشبه عباءة العربي الكبيرة الضخمة».

الجديد في الفيلم أنهم يراقبون أنثى (أسد المن) التي تثقب بإبرة ذيلها بطن (المن)، فتغرس بيضة في داخل عباءة بالون المنّة، ثم تنتقل إلى عباءة منّة أخرى، وغيرها وغيرها، بهدف تأمين مستقبل البيض الذي يفقس بعد حين، فيسبح داخل تلك السوائل على شكل دود يتغذى على هذه الخيرات الجاهزة، وخلال فترة قصيرة تمتص سوائلَها، فتجف عروق المنّ مثل جفاف الصحاري العربية المسحوب منها دسم النفط، بينما تبقى خيمة بالون المنة ضخمة كبيرة مهيبة المنظر، ولكن عروقها الداخلية قد خوت على عروشها، غير تاركة وراءها سوى عباءات وخيام تشبه بيوت العرب العامرة، والتي يشفطونها فيفرغونها من محتواها، ليعيدوننا إلى خيام الصحراء، فتحقق ميسون الكلبية أمنيتها: «لبيت تعصف الأرياح فيه أحبُّ إليّ من قصر منيف».

ينتهي الفيلم المدهش، بالسيطرة المؤقتة لأسد المن، ولكننا

نكتشف ما هو ليس بالحسبان، إذ أن المنّ يعود فيتكاثر بغزارة على خلفية أوراق النباتات من جديد، ويبقى في موطنه مثل بقيّة الكائنات الحية التي تقاوم الانقراض، فيقاوم انتشار أسد المن الدخيل على المنطقة.

أخرج من الحلقة الدراسية مرعوباً، وأنا أتحسس رأسي وجسدي بكلتا يديّ، وأطبِّل عليهما، لأتأكد من كوني لست مُمتصاً ومفرغاً من ذاتي!

***

ولتعريفنا على حماية البيئة بالزراعة العضوية، يأخذوننا إلى مزرعة بيئية في منطقة قريبة من جامعة هيسن، تختلف عن مزرعة أبقار مايكل ومونيكا التي زرناها سابقاً ضمن برنامج «مؤتمر قادة شباب الأرياف في ميونيخ»، فنلتقي هنا أربعة مهندسين زراعيين، إحداهم مهندسة صبية جميلة وفاعلة، يعملون معاً في مزرعة نوعية مستقلة بعيدة عن السوق، ويعيشون فيها وينامون هنا، يسمونها «مزرعة عضوية» يزرعون فيها القمح والحبوب، ويربون الأبقار الحلوب والعجول اللاحمة والدجاج البلدي التقليدي، فيبيعون بيض الدجاج الذي يفعفل في أرض المزرعة، ولا يعرف المضادات الحيوية، ويذبحون العجول اللاحمة، ويبيعون لحومها بسعر أعلى بكثير من سعر اللحوم الموجودة في السوق، والمأخوذة من مزارع تستخدم المنشطات الكيماوية لإنتاج عجول سمينة، وبسرعة قياسية، وفي الصيف يحصدون القمح،

ويطحنونه في مطحنتهم الخاصة، ويخبزون الخبز، ويبيعونه بأسعار أعلى من سعر خبز السوق غير المعروفة معاملاته الكيماوية أو الوراثية المعدّلة.

المُعدّلة الوحيدة هنا هي المهندسة الزراعية بقدِّها الرشيق، والتي أراها تلبس ملابس العمل، وتضرب بالرفش في كومة روث الحيوانات، ثم تدوس عليه بجزمتها البلاستيكية السوداء الطويلة الرقبة، ليغرق ثم ترفعه مملوءاً وتقذفه إلى صندوق الناقلة الصغيرة من فئة طن واحد، وتكرر العبوات الرفشية، حتى تعبئه، ثم تفتح باب الناقلة، وتجلس خلف مقودها، فتسوقها بنفسها، لتوصلها إلى الأرض الموعودة، فتنثرها على الأرض المعدّة للزراعة.. وهكذا يكون السماد عضوياً، والزراعة عضوية، والمنتج عضوياً، فيباع بسعر أعلى، وتَنظف البيئة، إذ نجد المزرعة تستهلك روثها وفضلاتها فتدوِّرها، ولا تستخدم الكيماويات!

أشعر أن هذه الثقة بالنفس في تعبئة الروث ونقله وتوزيعه في أرض المزرعة، لا توجد عند مهندسينا الزراعيين العرب عموماً، ولا عند مهندساتنا الزراعيات، اللواتي يبحثن عن مكاتب وظيفية محترمة، وعريس لقطة، يحقق لهن أفضل حياة!

***

المحطة الثانية لرحلتنا هي مدينة كولون، التي نعبرها بالقطار فوق جسر مدهش الضخامة، بأقواسه الحديدية المتشابكة فوق رأس

القطار، وكأنك تعبر جبلاً من حديد، فتواجهك كاتدرائية ذات برجين عملاقين..

تستقبلنا مضيفة جميلة، تعرفنا على اسمها **أنّا**، وأنها تحمل درجة الدكتوراه في المسرح، فنرافقها في جولة سياحية في ربوع المدينة العريقة، وهي تشرح لنا عن معالمها، ابتداءً من المحطة الرئيسة للقطار، حيث تتوقف بنا أمام فخامة **كاتدرائية كولونيا**، والتي يعود تاريخها إلى العصر الروماني، والمدرجة على قائمة اليونسكو للتراث العالمي، ومن هنا نتوجه بحافلة توصلنا إلى حي **غلوكنغاسنه** حيث تتوقف بنا عند عمارة قديمة نسبياً، فتقول الدكتورة:

«هنا أُسست قبل مائتي سنة تقريباً إدارة تاريخية لمصنع «كولونيا4711» المشهورة في العالم، وهذا هو رقم العمارة 4711 الذي صنعت فيه لأول مرة، إذ لا أحد يجهل أريج عطر هذه الكولونيا، التي مكّن سعرها المعقول الكثير من العشاق من إهدائها إلى حبيباتهم، والتي حملت اسم المدينة، فسميت الكولونيا في العالم كله باسمها».

وتضيف قائلة:

«تشتهر كولونيا بحتوائها أكبر عدد من محطات التلفزة والإذاعة في ألمانيا، كما أن بها حوالى ستين دار نشر، ومائتي مطبعة، وأن أكثر من سبعين صحيفة ومجلة تصدر يومياً من المدينة إلى جميع أنحاء ألمانيا وأوروبا. وإن من أهم أحداث كولون الثقافية «مهرجان الراين للتنكُّر» الذي يقام سنوياً في شهر فبراير، ونتمنى لو تأتون في موسم

«مهرجان الشكولا العالمي» الذي يقام هنا سنوياً، فتتذوقون أشهى الأنواع وألذِّها».

في العاصمة السابقة (بون) المدينة الهادئة الصغيرة، تسألني **أنا** ما إذا كنت أحب المسرح، فأقول لها إنني أحب المسرح التراجيدي، ولقد درست المسرح منذ سوفوكليس ويوريبيدس مروراً بموليير وشكسبير وحتى آرثر ميللر الحديث، وإنني أرى أن المسرح يتوالد من بعضه، فمسرحية (الذباب) لسارتر تقدم وجهة نظر جديدة حول الندم، ولكنها مأخوذة من فكرة مسرحية (هاملت) لشكسبير، التي تعتمد في بنيانها على نتائج المسرحية الإغريقية (أغاممنون) أتابع تفصيلي لتلك القضايا التي تطرحها كل مسرحية، فتدهشت المرأة بحديثي هذا، وتقول إن هذه العلاقة بين المسرحيات الثلاث هي محور أطروحتها لرسالة الدكتوراه! تُدهشُ لأن إعلامياً عربياً يفهم تسلسل الدراما المسرحية عبر العصور، ويشدها الحديث، فتحاول إكرامي، وذلك بترتيب زيارة لي إلى مدير محطة إذاعة ألمانيا العربية، وهو ألماني، عربي سوري الأصل، اسمه **فؤاد شوربجي**، فيعمل معي لقاء إذاعياً حول انطباعاتي عن العاصمة بون، تبثه الإذاعة مباشرة، أقول فيه:

«تختلف (بون) عن عواصم العرب بأنها من أصغر مدن ألمانيا، بينما تكون العاصمة عندنا هي الأكبر، لأنها قريبة من الواسطة، فلو أن طلبات المواطنين تمرر بطرق قانونية دون تمييز، لما كانت هناك حاجة لانتشار المباني اللانهائية في عواصمنا، ولا لازدحام الشوارع بشكل لا تحتمله مدينة!

يأتي المساء فنسهر نحن الأربعة عشر صحافياً هنا في مطعم محشور بين سوق من المطاعم النظيفة الهادئة المنتشرة بين العمارات، والتي تفرد كراسيها وطاولاتها خارج قاعاتها، في الساحات الممنوع مرور السيارات فيها، يقدم طبقاً فاخراً لفخذ خنزير صغير، مشوي بلون ناري متوهج، ولكنني أقترح مأكولات بحرية (حلال) بديلاً عنه، فيقول أحدنا وهو أندونيسي:

«نحن نقول في قضية الحلال والحرام:

«افعلوا ما يفعله العرب». (دو وط ذا أرابس دو!)».

وأثناء العشاء تفاجئني زميلتي الفلبينية نينا التي تجلس إلى يميني بضحكة شديدة، فأسألها:

«لماذا تضحكين؟» فتقول وهي مستمرة في الضحك:

«تصور أن هذا البنغلادشي الذي على يميني يقول لي:

«أنا متضايق من الجلسة الطويلة لهذا العشاء، دعينا نذهب!» فقلت له: «إلى أين نذهب ونحن على العشاء؟» ففكر وانتبه إلى أننا فعلاً على العشاء، فاستدرك عرضه، وقال:

«إلى دورة المياه!» تقولها وتزداد ضحكاً!.

أضحك معها كثيراً على هذا البريء، الذي فتح حديثه معها بشيء، أي شيء، هو لا يقصده، ولكنه حوصر بسؤالها، فازداد انحرافاً بـ«العذر الأقبح من ذنب»! أنقل الحكاية إلى صديقي الأندونيسي الجالس إلى يساري، فيضحك كثيراً وهو يذكر مفارقة تتداعى من سابقتها:

«شرب رجل في أحد المطاعم، لدرجة الاقتراب من السكر، فدخل وهو غير مدرك إلى مرحاض النساء، ووقف يبول، فهجم عامل النظافة، وهو يقول له: (لماذا دخلت إلى هنا؟ هذا للنساء! لماذا أنت هنا؟ هذا للنساء!) فقال الرجل المستمر بالتبول دون الالتفات إلى العامل: (أُدرك، أُدرك أنه للنساء، وهذا أيضاً للنساء!)».

نضحك كثيراً في هذه الليلة، ونحن نعود إلى فندقنا القريب سيراً على الأقدام!

هل يوجد سيارات في بلاد العرب؟

ننتقل بالطائرة إلى ميونيخ مدينة صناعة سيارة (BMW) الفخمة، فيأخذوننا في صباح اليوم الثاني إلى هذه العمارة الشاهقة الارتفاع والمميزة بلونها الفضي اللامع، على شكل أنابيب أربعة ضخمة متلاصقة، وداخل المبنى المدهش يقول لنا الدليل إن سيارات (بي أم في) تحتفل هذه السنة 1992، بمناسبة تجاوزها مبيعات «مرسيدسِ بنز» في أوروبا للمرة الأولى. هذه الشركة الصانعة العملاقة[1]، والتي ترجع جذورها إلى عام 1913. ومن برج العمارة أشاهد بشكل بانورامي إستاد الألعاب الأولمبية التي تمت في عام 1972م، والمحاط بشكل قوسي بخيام عربية عملاقة حداثية الشكل والمادة المقواة، فأعود من جديد أتذكر مقتل خمسة فدائيين فلسطينيين وأحد عشر رياضياً إسرائيلياً بيد الكوماندوز الألماني آنذاك في مطار ميونيخ، وإضافة إلى مقتل الفلسطينيين، قامت **جولدا مائير**[2] رئيسة وزراء إسرائيل بتدبير خطة

---

(1) (Bayerische Motoren Werke) واختصارها (BMW).

(2) جوجل- شكّلت غولدا مائير رئيسة الوزراء الصهيونية، فرقة اغتيالات عام 1972بعد عملية ميونخ ، وحسب ذكر ياريف لأسماء الذين تم اغتيالهم =

«قتل فوق قتل»، اغتالت فيها عدداً كبيراً من كُتّاب ومثقفين وناشطين سلميين فلسطينيين انتقاماً لتلك المجزرة التي تمت بأيدي الألمان أنفسهم.

ومن زجاج العمارة الواثقة من نفسها، أشاهد قطاراً تجارياً يدخل المدينة من بعيد، يقترب رويداً رويداً، فيتضح لي أنه مُحمّل بالسيارات الحديثة الداخلة إلى ميونيخ، يقترب أكثر فأكثر، فأدقق النظر، فإذا بها سيارات يابانية الصنع، فأستغرب كيف تغزو السيارات القادمة من أقصى الشرق، مركز صناعة السيارات الألمانية، فتنافس أجود سياراتها في عقر دارها!

في اليوم التالي نزور فرعاً للبنك الألماني للتنمية، والذي يقدم دعماً للنشاطات الزراعية، فيقول لنا مدير الفرع إنهم قد يدعمون من لا يزرعون أراضيهم، وذلك لتشجيعهم على عدم الزراعة، إذ أن استيراد الخضار والفواكه من إسبانيا مثلاً، أقل من تكلفة إنتاجها محلياً، والأهم من هذا التقليل من رش المبيدات ومن استخدام الأسمدة الكيماوية، بهدف محاصرة تلويث البيئة، ولكن الدعم الأكبر قد يكون للمنتجات التي لا تستخدم المبيدات ولا الكيماويات.

= بحجة ميونخ، يتضح أن العديد منهم لم يكن له علاقة بالعمل العسكري بشكلٍ عام، وبميونخ على وجه الخصوص، وربما لم يحمل بعضهم مسدساً في حياته مثل؛ غسان كنفاني، وكمال ناصر، ووائل زعيتر، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في روما، والدكتور محمود الهمشري، ممثل منظمة التحرير في فرنسا وآخرين.

وكنوع من الكرم الألماني أمام الصحافيين الأسيويين، يدعونا الرجل إلى بيته، فأُدهش أيضاً لكون البيت كله مصنوعاً من الخشب، حتى الأدراج والممرات فهي خشبية. وفي صالة الضيوف تأتي زوجته وتغدو بمشية جادة مشدودة، فترحب بنا ثم تسأل كل واحد منا: «ماذا تريد أن تشرب، قهوة أم شاي؟» فتذهب لتُحضِّر القهوة، ثم تعود بها، فتوزعها على من طلبوها، وتجلس إلى جوار أحدنا، وتتفاعل معه بكلمات مجاملة. تقدم الشاي لي، فتجلس إلى جواري بلطف، وتسألني باهتمام: «من أي بلد أنت؟ وكم عدد السكان عندكم؟ وهل النساء عندكم يعملن، أم ممنوعات من العمل؟ وهل هن محجبات، أم مكشوفات الرأس؟ وهل مسموح لهن بقيادة السيارات، أم ممنوعات من ذلك؟» أسئلة كثيرة تقذفها في وجهي، باحترام المضيفة طبعاً، فأقول لها: «إننا في الأردن كسائر بلاد العالم، تعمل المرأة لدينا في كل المجالات بحُرِّية»، وهنا أتذكر أيام صباي، فأذكر لها ما حصل معي في الرابعة عشرة من عمري، عندما كنت أراسل فتاة انجليزية، فسألتني يومها: «هل يوجد لديكم سيارات، وهل تعيشون في خيام الصحراء؟» فقلت للإنجليزية: «إننا نعيش في بيوت حجرية أو إسمنتية، ويوجد لدينا سيارات!» وقلت لمضيفتنا الألمانية: «لم أكن أعرف يومها أن العرب ليسوا شعراء وأدباء فقط، وليسوا أصحاب فلسفة ابن رشد، وساعة هارون الرشيد التي أهداها إلى شارلمان فقط، بل هم أول من وصل إلى الشواطىء الغربية لبحر الظلمات، واكتشف ما تسمى اليوم

أمريكا، وهم الذين شيدوا العمارة الحديثة في الأندلس، وذلك بفتحهم الشبابيك العربية هناك حتى مستوى الأرض، والتي سميت فيما بعد بالشباك الفرنسي، وقد كانت لمباني أوروبا شبابيك عبارة عن طاقات مفتوحة من قمم القلاع والحصون فقط، فجاء العرب ليفتحوها واسعة على مستوى الأرض، لتدخل إليها الشمس، وأنشأوا حولها الحدائق الهندسية الأندلسية التي اختُطفت فسموها «الحدائق الفرنسية!».

لا يعجبها حديثي فتقول لي: «لماذا تستمرون بالحديث عن الماضي الأصولي، وكأنكم لو استمررتم بالرجوع إلى الخلف، فقد تصلون إلى آدم؟ لماذا لا تفكرون في الحاضر والمستقبل؟».

انتبهُ إلى نقطة ضعفنا هذه، فأقول لها: «إن حكوماتنا العربية غير المنتخبة ديمقراطياً، تعمل على إتلافنا بالفساد والمفسدين، فنشعر أننا نتخلف إلى الوراء، ولهذا لا نجد أمامنا لبث الثقة في نفوسنا إلّا أن نُحدِّق في ماضينا المشرق، فعندما كان (رجل الفايكنج) يحكم بقوة عصاه في شمال أوروبا، كان عمر بن الخطاب يوزع الضمان الاجتماعي الذي لم يعرفه العالم المتحضر إلا أخيراً، فيصرف راتباً لكل مولود، ذكراً كان أو أنثى! وهذا يدل على أننا نستطيع أن نكون رُوّاد حضارة حديثة، فنخترع ونصنع ونزرع ونطوِّر، ولكننا لا نجد اليوم البيئة المؤهلة لنبدع فيها.

لا تجيبني المرأة الحديدية، بل تقوم مقطبة الجبين، وتعود إلى مطبخها، بينما يلفتني زوجها بقوله لزميلتنا الصحفية الهندية إنهم قد نجحوا في ميونيخ بالحصول على الطاقة الكهربائية من أشعة الشمس،

ويضيف: «لو كانت لدينا صحاري مثل بلاد الشرق الأوسط، لفعلنا الأعاجيب في جمع الطاقة الكهربائية المستدامة، التي تتفوق كثيراً على طاقة النفط الناضب قريباً غير مأسوف عليه، نظراً لتدميره البيئة، وأخذه الكرة الأرضية إلى الجحيم!».

لا يرافق مدير البنك في هذا البيت سوى زوجته الفاضلة، والتي تعود بقِطع الكعك، وهي تحدثنا كيف مزجته بالحليب وبالجوز واللوز والفستق والبندق، ثم شوته بالفرن..وهنا أتدخلُ فأسأله بخجل: «أليست عندكم خادمة تساعدكم في أعمال البيت؟» فيترجم ذلك لها رغم معرفتها بالإنجليزية التي تحدثنا بها، وذلك تعبيراً عن اعتزازه بلغتهم الألمانية، فتقول له: «قل له: ومالي أنا؟ ألا تعجبكم خدمتي؟». يترجم قولها لي، فأُعبِّر لها عن إعجابي بشخصها الكريم، وبما أتذوقه من كعكها الطيب، ولذا أطلب منه السماح لي بأن أتصور بينهما، كي أُري هذه الصورة لأهلي، ليعرفوا أن الألمان يخدمون أنفسهم بأنفسهم، ولا يحتاجون إلى خادمات شرقيات، ولا عمالاً مستوردين لينظفوا شوارعهم، كما نفعل في بلادنا، ونحن نستورد عمال النظافة والخادمات، وندفع لهم بالعملة الصعبة، بينما نستقبل المساعدات الدولية المشروطة بتركيعنا، وتجبير اقتصادنا المنهار!

عصير حمضيات!

في مدينة **دريسدن** التاريخية الواقعة في ألمانيا الشرقية سابقاً، والتي تركوا كثيراً من معالمها مهدمة منذ الحرب العالمية الثانية، ليبقوا آثار العدوان الإنجليزي الأمريكي عليهم، ينزلوننا في **فندق دريسدن** الشهير.

وفي المساء يدعوننا إلى عشاء رسمي يبدو أن ترتيبه تم احتفاء بمناسبة إعلامية كبيرة لديهم، ذلك لأن شخصيات إعلامية ألمانية هامة تحضره، أبرزها رجل ألماني يبدو أنه يزور المنطقة في مهمة خاصة.

يجلس رجل قصير أصلع مدحبر مصادفة على طاولتنا، فيعرّفُنا على نفسه أنه مدير عام وكالة الأنباء الألمانية (جيرمان برس)، وأنه يحمل أربع شهادات دكتوراه، وأنه كان أحد مدراء هيئة الإذاعة البريطانية، وبعد توحيد ألمانيا، طلبوه ليكون الرجل المناسب في المكان المناسب، وعلى الطاولة نفسها يرافقنا رجلان من أواسط إفريقيا، لا أعرف اسميهما ولا بلديهما، ولكنني ألاحظ أنهما لا يهتما بمدير «وكالة الأنباء الألمانية»، ولا بما ينبئون، إذ أنهما يتحدثان بلغة غير مفهومة لدينا، بينما يبادرني الدكتور بالسؤال عن إنتاجنا الزراعي

والصناعي والتجاري في الأردن، فأُعدد له منتجاتنا من الفوسفات والبوتاس، وأذكر له أن لدينا صناعات مثل منتجات الألبان والعصائر.. فيسألني مستغرباً:

«أي نوع من العصائر». أقول مؤكداً صناعاتنا النامية:

«عصائر كثيرة مثل الحمضيات و..». فيقول:

«كل ما عندكم في الأردن هي مزرعة ونصف من الحمضيات، وأنتم تستوردون معظم حاجتكم من البرتقال والليمون والجريب فروت من الخارج، وتقول لي عصير حمضيات؟» فأقول له:

«ومن أين تريدنا أن نحصل على مثل هذه العصائر إذن؟» فيقول واثقاً من نفسه:

«من ألمانيا. فنحن ننتج أجود عصائر الحمضيات!».

«ومن أين لكم الحمضيات، وأنتم لا تزرعونها بين الثلوج؟» فيقول وهو يحك صلعته قليلاً بطرف إصبعه الشاهد، ثم ينزل يده:

«نحن تأتينا قافلات من السفن التجارية المعبأة بالحمضيات من المغرب، فنعصرها بأحدث الأجهزة المتطورة، ونعلبها بأشكال مختلفة تناسب أذواق المستهلكين المختلفة، ونصدرها إلى الشرق الأوسط!».

نعود إلى الشرق الأوسط الذي أكره تسميته، فأقول لنفسي، وأنا أبهدلها وأدوسها بقدمي:

«لماذا لا يأتي مستثمر من أصحاب عنعنات المليارات النفطية

العربية، فيضع نقوده في مصنع متطور للعصائر بين مزارع الحمضيات العربية المغربية، ويضع ملياردير آخر مصنعاً بين مزارع العنب الجزائرية، ومصنعاً عملاقاً ثالثاً في وسط مزارع قصب السكر المصرية وهكذا، فيصدرون العصائر الطبيعية إلى مختلف جهات العالم، بدل أن يعصروا كرامات أنفسهم أينما اتجهوا، ويضيعوها في ما (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!)؟

أعيد انتباهي للتركيز على ما يقوله الرجل الألماني، ومحاولة التعلم منه، والحوار معه، فيقول لي ووجهه ينشرح بسعادة غامرة:

«هل سمعت أن الإسلاميين الجزائريين الذين نجحوا في انتخابات البرلمان قد تم الانقلاب عليهم صباح هذا اليوم؟»! أُفاجأ بالخبر، فأقول له:

«لماذا تبتسم وكأنك تؤيد ذلك؟ وهل أنت سعيد بالانقلاب على الديمقراطية، التي تريدوننا أن نتبعها لنخرج من بربريتنا المزعومة في عقولكم؟» فيقول وابتسامته تتسع على مصراعيها:

«ولكن الانتخابات الديمقراطية لا تحقق بالضرورة أفضل رغبات الشعوب، فإن هتلر قد نجح بالانتخابات، ولا تنسَ أن كثيراً من الأوروبيين مسكونون بالإسلاموفوبيا، فهم لا يزالون يسوقون عبارة (المسلمون على أبواب فيينّا)!».

«حيرتمونا! هل نعمل بالانتخابات الديمقراطية، أم نخضع للدكتاتورية التسلطية، فيكون الحاكم وأفراد أسرته فوق رؤوسنا إلى الأبد؟».

أقول له هذا دون أن أسمع منه إجابة، ذلك لأنني مندهش لفرحته بانقلاب غاشم على انتخابات ديمقراطية نزيهة، فأسأل نفسي:

«هل لليد الأوروبية دور في إطفاء شعلة المسلمين في الجزائر، وهل ستكون لهم يد فاعلة في تدعيم سلطة عسكرية جزائرية الشكل، ولكنها خاضعة لشروط الاستعمار الأوروبي، الذي لم يصدق بعد أنه قد أُخرج نهائياً من الجزائر؟ ترى لماذا نفرح لديمقراطيتهم وهم ينتخبون الحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا، بينما هم يفرحون للانقلاب على الحزب الإسلامي في الجزائر؟».

أنسى نفسي أمامه وأنا أفكر بقولي: «في كل مناسبة يقولون: (لا داعي لعُقدة المؤامرة وراء كل قضية!) فإذا لم يكن الانقلاب على الإسلاميين الجزائريين الديمقراطيين مؤامرة غربية، فماذا سنسميه، وماذا تصنع الدوائر المخابراتية في الغرب إن لم تكن تتآمر علينا؟». أشعر أن المؤامرة التي أقصت الإسلاميين الجزائريين تشكل دوائر دوائر في بركة مخيلتي الساخنة، بينما الدكتور يخرجني من هذا اليمّ بقوله:

«نحن منذَهلون إذ نستوعب التناقضات التي تحصل في عالمنا المتسارع هذا، ابتداء من الحرب العالمية التي دخلناها يافعين مجندين لاسترداد حقوقنا الألمانية المهدورة في الحرب العالمية الأولى، والتي كان أبسط ما في **معاهدة فرساي التي كبلتنا عام 1919 أنها** اقتطعت من ألمانيا أراضي كثيرة، وهذا ما جعل الحرب العالمية الأولى في

نظري تلد الحرب الثانية، وجعل هتلر يدق طبول الحرب لاسترجاع أراضينا التي وحدها بسمارك بالقوة، وعندما سخن الحديد، راح ينشر قواته لتوحيد أوروبا بالقوة، تماماً كما تم توحيد الولايات المتحدة الأمريكية بالقوة، وبطريقة مخالفة لمحاولات توحيد أوروبا ديمقراطياً في هذه الأيام.. الرجل كانت له وجهة نظر لخلق أوروبا قوية وقائدة للعالم، ولكن كسر الحدود الروسية ومهاجمتها، وكنا مسبقاً قد وقّعنا مع ستالين معاهدة عدم اعتداء، ورّطتنا، فوجدنا أنفسنا نتجمد فوق جليد روسيا تماماً كما تجمد نابليون من قبلنا هناك، فنواجه تقسيم أوروبا، ليعيش نصف سكان ألمانيا تحت نظام شيوعي، وفكر معاكس لكل ما سبق أن تتلمذنا عليه! وهكذا وجدنا أنفسنا طرفاً أساسياً في الحرب الباردة بين الشقين الشيوعي والرأسمالي، إلى أن انهار الاتحاد السوفياتي، وانهار معه سور برلين، وتحققت الوحدة الألمانية، فوجدنا أنفسنا نعيش تحت مظلة الرأسمالية المتوحشة. نحن نعيش تناقضات مذهلة، أستغرب كيف نستطيع مجرد استيعابها، إذ نعيش عمرنا نلهث وراء الأحداث الجسام! يذهلني كيف نستطيع استيعاب كل هذه التناقضات، والصراعات المريرة التي تتلاحق، فلا تترك لنا مجالاً لالتقاط أنفاسنا!» فأقول له:

«نحن هنا في دريسدن نرى مدى الدمار الذي تركه الحلفاء في مدينتكم التاريخية، وحتى برلين العظيمة نفسها-بعد توحيدها- لا تزال كنيستها القديمة مهدمة بفعل قصف الحلفاء، ولا شك أن هذا ينطبق

على معظم جمهوريات ألمانيا الاتحادية، وهذا يشعرنا أنكم تشاطروننا شعورنا بظلم الاستعمار، الذي قسم بلادكم إلى مناطق نفوذ، هو الاستعمار نفسه الذي قسم وطننا العربي إلى عدة دويلات، ودعَم الدكتاتوريات، وعمّم صناعة التخلف في معظم بلادنا العربية، وامتص نفطنا ومواردنا الطبيعية، فتركنا دون غطاء، وها قد توحدت ألمانيا بعد انهيار سور برلين، فلماذا لا تشعرون بمشاعرنا وأنتم تعيشون مثلها، ولا تؤيدون تحررنا ووحدتنا العربية؟» فيقول الدكتور وهو يعدل وضع نظارته الطبية فوق أنفه:

«هنالك مصالح بين الدول، والحقيقة أنه لا مصلحة لنا في توحيد العرب. ودعني أقول لك بطريقة مختلفة: نحن لن نناضل في سبيل توحيد العرب! لقد ناضلنا بقيادة بسمارك فوحدنا ألمانيا، ثم أعدنا توحيدها بهدمنا الجدار من الجانبين معاً، فلماذا لا تناضلون أنتم لتحقيق وحدتكم؟».

لا يزال الرجلان الأفريقيان الجالسان معنا يتحدثان بلغة لا نفهمها، فأعتبرُها فرصة سانحة لتوصيل رسالتي:

«طيب، أنتم تنعمون بوحدة اقتصادية أوروبية متنامية لتُكوِّن الاتحاد الأوروبي، فلماذا لا تتفهمون رغبة شعبنا العربي في إلغاء الحواجز الحدودية والجمركية بين الدول العربية، وليبق الرؤساء رؤساء، ولكن خاضعين للديمقراطية الحقيقية، وليبق الملوك عندنا ملوكاً على دولهم، ولكن ضمن ملكية دستورية، مثل ممالك بريطانيا وإسكندنافيا، وإسبانيا وهولندا وغيرها؟» فيقول الدكتور المدحبر:

«دعنا نتفق على فتح الحدود الاقتصادية بين دول الشرق الأوسط الكبير». فهمت أنه يقصد الانفتاح على الكيان الصهيوني.

لم أكمل حواري معه، ذلك لأن الثمرة لا تسقط بعيداً عن محيط شجرتها!

ولكن تعيين رجل علّامة من هذا النوع في مركز هام من هذا النوع، يذكرني بنكتة سخيفة تقول: «إن وزير العدل المصري استأذن من الرئيس المخلوع أن يغادر جلسة مجلس الوزراء إلى المطار، لاستقبال أخيه المتخرج من الولايات المتحدة، حاملاً شهادة دكتوراه في الغابات. فسأله الرئيس: «أللّه، هو أخوك صار معه دكتوراه غابات، ومن أمريكا كمان؟ خلاص قول له إن الريس حيعملك وزير غابات!». فقال وزير العدل لمولاه: «لكن أين هي الغابات في مصر يا سيادة الرئيس، حتى نعمله وزير غابات؟» فقال الرئيس: «طيب ما انت أهه وزير عدل يا أفندينا! أين هو العدل في مصر، حتى عملناك وزير عدل؟»».

هكذا يتم تعيين العرب، وهكذا يتم تعيين الألمان، صاحب أربع شهادات دكتوراه ومدير بي بي سي لندن، ليكون مدير (الجيرمان برس) عندهم، وفي بلاد العرب يعين وزير الاتصالات الإلكترونية والشبكات العنكبوتية بمؤهل واحد فقط، أنه هو الذي عليه الدور عشائرياً، ليتم تنصيبه في هذه الوزارة، وإذا لم يحصل على حقوقه الجهوية والفئوية، ويعين على رأس هذه الوزارة، وليس على غيرها، فهو مستعد لأن

يقلب الدنيا أسافلها أعاليها! وقد يكون العكس هو الصحيح، إذ أنهم يقصدون تعيينه دون مؤهل، ليكون مؤهله الوحيد هو أن يبصم على بياض، ويقول: «حاضر سيدي! أمرك سيدي!».

***

ننتقل من دريسدِن إلى العاصمة «برلين الموحدة» بعد عمر من التقسيم والتشرد والعذاب بين أفراد العائلة الألمانية الواحدة، ترافقنا امرأة جميلة كضابطة ارتباط للمجموعة، لزيارة عدة مناطق، فنبدأ بزيارة جمعية تعاونية لمربي الأبقار من ريف برلين الشرقية، إذ تستضيفنا إدارتها في قاعة واسعة داخل الجمعية، فيرحب بنا رئيس الجمعية بخطاب قصير، ويتحدث عن وضع الإنتاج الحيواني في مزارعهم، ثم يستعد لاستقبال الأسئلة الصحفية، فأسأله مواجهة:

«من هي أفضل، حياتكم السابقة في ألمانيا الشرقية، أم اليوم حيث ألمانيا موحدة؟» فينظر يميناً ويساراً، ولكن يبدو أنه يستدرك أن رعب الرقابة الشرقية المحنطة لم يعد موجوداً، فيقول:

«كنا نعيش تحت ظل حكم شيوعي، لا يجرؤ فيه الموظف الخبير على أي تغيير، حتى ولو كان ذلك لتحسين وراثي لبذرة محصول القمح، أو عباد الشمس في هذه السهوب الواسعة من المزارع، ما دام الزعيم الأكبر لم يطلب ذلك، وحتى لو طلب ذلك، فلن يفعله الخبير كما يجب، ذلك لأنه لن يجد الحافز المادي والمعنوي المناسب للتطوير. والزعيم الأكبر عادة لا يطلب ذلك، إما لأنه لا يعرف الكثير

عن هذا التخصص، وإمّا لأنه لا وقت لديه للتفكير بكل شيء، وإمّا لأنه صار في السنوات الأخيرة يعيش لمتعته الشخصية، فلا يريد تغيير شيء من حوله.

وأما عن علاقتنا مع إخواننا في ألمانيا الغربية، فلقد قاموا بشراء مصانعنا ومتاجرنا الشرقية بسعر التراب، ثم لم يطوروها، ولكنهم جرفوا معظمها، وباعوها حديداً لتجار العِدد المستعملة. كنا نتمنى لو طوروا لنا السيارة الألمانية الشرقية (وارت بورغ) مثلاً، لتكون بمواصفات المرسيدس أو الأودي، ولكنهم قتلوها ودفنوها بعد أن كانت حية تسعى! نحن لم نكن محظوظين في حياتنا التي يسمونها دكتاتورية، ولسنا اليوم محظوظين أيضاً في حياتنا التي يسمونها حرة!».

هذا الحديث لم يعجب قائدة مجموعتنا، ولكنها رغم الإحراج أمام الصحفيين الأجانب، كانت تفضل إعطاء الألمان الذين كانوا شرقيين سابقاً المجال، ليمارسوا التعبير عن ذواتهم، وعن مشاعرهم المكبوتة، وذلك بحرية «تقول إنها تامة»، بعد أن كان الواحد منهم، على ذمتها، لا يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان!

وجدتُّها مناسبة ذهبية لي في برلين الشرقية أن ألتقي صديقتي كاترين، والتي كنت قد تعرفت إليها قبل سنتين في منتجع سياحي نزلت فيه أثناء رحلتي في رومانيا على شاطىء البحر الأسود.

لا أريد أن أسرد لك كيف توطدت علاقتي معها، وذلك عندما كنت أسير على الشاطىء بملابسي البحرية، مبتعداً عن المنتجع

السياحي، فتعثّرتُ فجأة بشاطىء للعراة مخفي بين كثبان رملية..وبين هول الصدمة بالعراة كما خلقتني يا ربي، وبين صراخ الجمع قائلين إن فتاة تغرق في البحر، ما كان مني سوى القفز في الماء، والوصول إليها، وانتشالها من أفواه الموج المتلاطم في عز الصيف، وعلى الشاطىء قمنا بإسعاف أولي لها، وذلك بإخراج الممكن من الماء المالح في جوفها، ثم أخذتها مع صديقة لها إلى منتجعي الروماني الفريد في نوعه، لنسعفها هناك، فكانت معرفتي بها حثيثة. كانت **كاترين** يومها قد تخرجت في جامعة برلين الشرقية، وكنت أكبرها بعدة سنوات.

الفرحة التي تعبر عنها كاتي وهي تستقبلني في شقة والدها، الكائنة في الطابق الثالث من إحدى عمارات برلين تنعشني، فلدى مشاهدتها لي أصعد درجات العمارة السكنية، وأقترب من باب بيتهم، تصيح بفرحة غامرة مرحبة بي، وتقفز عدة درجات، لتستقر بين أحضاني، فأصعد منتشياً بها الدرجات المؤدية إلى باب شقتهم. إنها مناسبة سعيدة للتعرف على حياتها في برلين، وذلك بعد مهاتفتها، وإصرارها على قدومي.

وعلى عكس ترحاب كاترين، والتي أُدلعها بكاتي، فإن السيد موللر؛ والدها، لا يرحب بي كما كنت أتخيل، فلا يمد يده لمصافحتي، ولا يبتسم بوجهي، بل يكتفي بعدما نادته ابنته ليتعرف عليَّ، بأن يخرج من غرفته، ويطل بوجهه المتجهم، مستنداً بصَمتٍ إلى حلق الباب، وكأنه يطّلع، أو يتعرف على ما يحدث فقط، ثمَّ يعود ويختفي داخل

غرفته! ولكن كاتي المختلفة تماماً عن والدها وهي تُعبِّر عن فرحتها البهيجة، وتتعلق برقبتي، فيكاد الفرح أن ينط من عينيها!

تشدني بيدها، فندخل غرفة نومها الخاصة، حيث تتوزع أشياؤها على مكتبها وفوق سريرها، بينما جهاز كمبيوترها يقبع في زاوية أخرى، ومقعدان فارغان في وسط الغرفة، نحتلهما، وهات يا أحاديث وهات يا ضحك وبكاء من طرفها، يجعلان عينيّ تغرورقان دموعاً تأثراً بها! ولكنني أحاول تغيير الحديث لوقف بكائها قائلاً:

«بقدر سعادتي الغامرة بدخول بيت أبيك يا كاتي، وبقدر فرحتك باستقبالي، فأنا أستغرب عدم ترحاب والدك بي! أيكون السبب هو أنني عربي، وأن والدك لا يحب العرب؟» فتقول متفاجئة بشعوري هذا:

«لا أبداً! على العكس، فوالدي لا يكره العرب، وإنما هو لا يهتم بالأشياء، فوالدي كما ترى، رجل قاعد وليس متقاعداً، فاقد للحياة بكل معانيها، فلقد أمضى بداية شبابه في فترة المراهقة مع أشبال هتلر، يركض مع أفراد حزبه، وجماعات جيشه، ويقتنع بأفكاره، بأنهم سيحررون أراضيهم المقتطعة من ألمانيا نتيجة الحرب العالمية الأولى، ثم تورطوا أكثر ليحتلوا أوروبا ويوحدوها، وهكذا انطلق شاباً مع جماعته باتجاه النمسا وبولندا وروسيا، ليجد نفسه بعد خراب برلين، تحت مظلة ستالينية شيوعية، أدخلت أنظمة ومعتقدات جديدة، قوامها الإخاء والمساواة، ومقاومة جشع الرأسمالية..قاوم أبي هذه الأفكار مع أبناء جيله من الشبان الهتلريي الفكر، إلى مدة وجيزة، ولكنه استطاع

بعدها أن ينسى أفكاره النازية، وأن يتحول إلى رجل آخر، رجل يؤمن بأفكار جديدة!

أتخيله وهو يتحول من فكر هتلري، إلى فكر شيوعي، وكأنهم فتحوا عظام رأسه، واستأصلوا دماغه النازيّ، ووضعوا مكانه دماغاً شيوعياً، ثمَّ أقفلوا عظام رأسه، وأعادوه بشكله السابق نفسه، ولكن باندفاع جديد، معاكس للاندفاع السابق، وهكذا استطاع أن ينتظم ضمن صفوف الحزب الشيوعي، ويبدأ حياته الجديدة، عاملاً في مصنع، وبعد طول انتظار، يحصل على شقته الصغيرة هذه، ويتزوج، فتنجب لـه والدتي طفلين، أنا وأخي الأكبر كارل، الذي سماه على اسم كارل ماركس..وبعد طول معاناة أصبح السيد موللر ركناً من أركان الحزب الشيوعي الألماني في مصنعهم، يحسب لـه مائة حساب، ويستشار في كل صغيرة وكبيرة، وحتى في الحياة العامة!

ولكن حياتنا المادية-كما ترى-لم تتحسن، فالشقة صارت قديمة هرمة، وشبابيكها أصبحت آيلة للسقوط، وجدرانها مشروخة، والخدمات العامة للشقة وللعمارة في حكم المتوقفة عن العمل، مما يضغط على أرواحنا لشراء أجهزة خاصة بنا أقلّه داخل شقتنا!

ومع هدم السور، وتوحيد ألمانيا، ضاع أبي، وتم تجريفه مع ركام المصانع الألمانية الشرقية، والتي اعتبرت جزءاً لا يتجزأ من تماثيل لينين وستالين، التي تم تجريفها مع سور برلين، وبقيّة المصانع القديمة. أصبح والدي منبوذاً، بعد أن كسرت مجاذيفه، وتاهت بوصلة قاربه، وتحطمت أضلاع إرادته!

في هذه الأثناء توفيت والدتي، وأنت لا تعرف معنى وفاة الزوجة في الستينات من عمر الزوج، لأنك لم تعش هذه المعاناة، ولم يكن لدى أبي رصيد مالي، بصفته أحد القادة الشوعيين المناوئين لرأس المال، فأصبحنا نبحث عن طعام من يد الرأسمالي الألماني الغربي! ولهذا طالب أبي بوظيفة، فقالوا له: «أنت في سن التقاعد، ونحن أمامنا مسؤولية تشغيل الشباب الجدد، الذين يستطيعون استيعاب التقنية الحديثة، وتنشيط رأس المال، وليس العجائز أمثالك، الذين تحنطوا بالأنظمة الشيوعية!» فقال لهم والدي: «إذن أعطوني تقاعداً لأعيش به!» فقالوا: «نعم سنعطيك تقاعداً يعادل راتبك الذي كان في السابق؛ حوالى ثلاثمئة مارك ألماني شرقي، وهي تعادل حوالى عشر ماركات ألمانية غربية! هذا هو تقاعدك الذي تستحقه شهرياً».

ولم يكن والدي في مثل هذا العمر يستطيع أن يتحمل كل هذه المعاناة.. ولا يستطيع اقتناء ثلاجة حديثة، وتلفزيون وغسالة ونشافة ومكنسة كهربائية، وسيارة جديدة، وكذلك الطعام والشراب واللباس، والتعليم الذي كانت توفره لنا الدولة الاشتراكية، ولكن الرأسماليين يركضون لتحقيقه. قعد والدي أسير التحولات العقائدية، والتقلبات السياسية والاجتماعية، التي طحنت بقاياه، ولم يعد الآن قادراً على كسب قوت يومنا! إنه يستيقظ وينام كثيراً وهو يفكر، ويقول إنه لم يعد يفهم المبدأ الذي عليه سيموت! كانت حياته مجرد اندفاعات باتجاهات متعاكسة، لا يدري لماذا وكيف حصلت بهذه السرعة!

إن والدي لم يرحب بك، وإنما اكتفى بمشاهدتك، والتعرف إلى ملامحك، تماماً كما تعرّف إلى ملامح الأنظمة الهتلرية والشيوعية والرأسمالية معاً، ولا أظنك ستكون أهم من هذه الأنظمة في حياته، إنما أنت يا خليل تشكل بالنسبة إليّ الشيء الكثير، فأنت..!».

نحتضن بعضنا بعضاً بحنان دافىء لم أتذوقه من قبل، وأنا أقول لها: «إن تاريخ والدك الألماني يا كاتي، يشبه تاريخ والدي العربي تماماً، فوالدي عاش بداية عمره وطفولته يركض فرحاً وراء خيول العرب المطاردة - تحت راية الإنجليز - لفلول عساكر الدولة العثمانية، بهدف الاستقلال وتوحيد أمة العرب، وما أن انهار الحكم العثماني، حتى وجدوا أن حلفاءهم الإنجليز قد انقلبوا إلى أعداء، واحتلوا البلاد العربية تحت اسم التعمير والاستعمار، وهكذا داست دبابات الإنجليز على صدورنا، فارتعب والدي ورفاقه الشباب مما حدث، وقرّروا أن يحولوا بنادقهم إلى رفاق الأمس. واستمر الصراع ضد الإنجليز أملاً بالاستقلال، ولم يخرج المعتدون، إلا بعد أن زرعوا جسماً غريباً في فلسطين، كما تزرع البلهارسيا بيضها في أجساد أطفال نهر النيل! تلك البويضات التي بدأت تنمو وتترعرع، لنشاهد بدل استقلال فلسطين، استقلالاً آخر تحت اسم «إسرائيل»!

لم يستطع والدي تحمّل صدمات التحول من الصراع ضد العثمانيين، إلى الصراع ضد الإنجليز، فالتحول للصراع ضد الصهاينة، ثم التحول لكشف تحالف حكومات عربية مع الصهاينة، لتحقيق

هزائم لا نعرف ماهيتها ومداها. نحن في وطن عربي مجنون، لا نعرف فيه لماذا يبيع الأب ابناءه، والأخ إخوته، والأم أولادها في سوق النخاسة!».

في صباح اليوم التالي تأخذنا مرافقتنا الجميلة إلى منطقة تقع خارج برلين الموحدة تدعى **بوتسدام**، وهي المكان الذي تم فيه توقيع اتفاقية إنهاء الحرب العالمية الثانية..نتوجه بالحافلة إلى ذلك الموقع التاريخي الهام، فتقول الدليلة: «إن برلين هي مدينة التاريخ، وليست **بوتسدام** وحدها هي التاريخ، وهنا أحاديث كثيرة تتناقلها الأجيال حول برلين، فعندما زار الرئيس الأمريكي جون كينيدي برلين عام 1963، ألقى أمام الجموع خطاباً تاريخياً قال فيه: (أنا برلينر)! هكذا قالتها بالإنجليزية: (آي آم برلينر) ولو أنه كان في هامبورغ، وقال لهم: أنا هامبورغر (آي آم هامبورغر.) نسبة إلى هامبورغ، لكانوا أكلوه!». تقول هذا وهي تضحك، فنضحك معها.

تلتزم الدليلة بالوقت، إذ تشعر أن الحافلة أخرتنا عن موعد الوصول، فتعمل جهدها ليتم غداؤنا في مطعم المكان التاريخي، وتطلب للجميع طعاماً موحداً دون استشارة أحد، فنتغدى بسرعة ثم ندخل القاعة المهيبة، ذات التماثيل المجسمة للقادة الثلاثة، حيث نشاهد فيلماً يوضح كيف كان **ستالين** و**تشرشل** و**ترومان** يتناقشون لتحقيق الاتفاقية، وكيف كان **ستالين** يقف، فيقف **تشرشل** و**ترومان** إلى يمينه، وهما يضعان يديهما بيده، ويجلس **ستالين**، فيجلس **تشرشل**

وترومان. يوقع تشرشل وترومان على الاتفاقية أولاً، فيوقع ستالين أخيراً بصفته القائد الرئيس لتحرير أوروبا في تلك الحرب.

في هذه الأيام قلبوا التاريخ، فسمعة ستالين التي كانت أيديهم سعيدة وهي تمتد لتصافح يده، صارت توأمة لسمعة هتلر! مفارقات صادمة! ولكن لماذا قلبوا الصورة، وأكلوا حقوق القائد الذي حقق لهم النصر؟ لا داعي للاستغراب، فالتاريخ يكتبه المنتصرون، بالطريقة التي يريدون، وليس بالحقيقة التي تمت!

ومضيفتنا متحدثة جادّة رسمية في النهار، ولكنها مرحة ودّية ضحوكةً في الليل. تقول لي وأنا أسألها عن سر تبديل شخصيتها ليلاً: «إنني لست تلك السيدة الرسمية التي كانت نهاراً».

نلتف حولها على طاولة العشاء، فتحكي لنا ما كان قد حصل لها في مطعم على الحدود الألمانية / الفرنسية، إذ كانت تتناول الطعام مع صديق لها هناك، وكانت في الصحن ورقة خس عريضة ضمن السلاطة، تتعارض مع الذوق العام، الذي يستهجن استخدام السكين مع الشوكة في تناول السلاطة والخضار، ويسمح بتناولها بالشوكة فقط، ولكن ورقة الخس كانت أكبر من طاقة فمها الذي لا يتسع لكل هذه المساحة الخضراء، فاضطرت لأن تخالف الذوق، فتقطع ورقة الخس بالسكين، ثم تأكلها بالشوكة.. وهنا سمعَت امرأة فرنسية على الطاولة المجاورة تقول لصاحبها: «انظر إلى هذه الخنزيرة الألمانية، كيف أنها لا تفهم (الإتكيت) وتقطع السلاطة بالسكين!». وتتابع المتحدثة قولها لنا

ونحن مبحلقون في وجهها: «شعرت بحرج شديد، وقررت المقاومة، فأخذتُ أتحدثُ بالفرنسية مع صديقي الذي أتعشى معه، لأُفهم جارتي أنني إذا كنت خنزيرة لا أعرف (الإتكيت)، فذلك لأنني فرنسية!».

من حكاية هذه السيدة الجميلة فهمت معنى التضحية بالذات، من أجل الوطن! ومن هذه القصة فهمت معنى ما كانت قد أجابتني به تلك السيدة الإنجليزية العجوز في مدينة (ووكنج) القريبة من بحر الجنوب الإنجليزي، عندما كنت سائحاً أستأجر غرفة من غرف بيتها، فابتدأت أحكي لها قصة بقولي: «عندما كنت في ألمانيا.». فقاطعتني العجوز الإنجليزية قائلة بشدة صارمة:

(don’t mention germany) لا تذكر كلمة ألمانيا! فدهشت وسألتها : «لماذا هذا الرفض؟» فقالت: «أنت لا تعرف أن بيننا وبين الألمان عداوات لا يمحوها التاريخ!».

هذه الدول المختلفة في كل شيء، توحدت وخلقت السوق الأوروبية المشتركة، ثم العملة الأوروبية الواحدة، (اليورو) فالبرلمان الأوروبي الموحد، فالقوة العسكرية الموحدة (الناتو)، وهكذا تكاملت الوحدة بين هذه الدول المتنافرة، بينما تتنافر الدول العربية الموحدة التاريخ والجغرافيا والدين والاقتصاد والعادات والتقاليد والمصالح المشتركة!

في صباح اليوم التالي نتوجه بإدارة السيدة المبرمَجة إلى مبنى مؤسسة دير شبيغل الصحفية، فنتبعها صاعدين إلى مكتب رئيس

مجلس الإدارة، بمصعد زجاجي أسطواني جميل، يرتفع بعلو شاهق، داخل بهو مبنى المؤسسة..لم أشاهد مصعداً من قبل مثل هذا الأنبوب الزجاجي الصاعد في فضاء التهوية الداخلية الجميلة الواسعة للعمارة العالية، مثل صاروخ منطلق في الفضاء الرحب نحو السماء..

أرى الرجل العجوز النحيل الجسم، الغارق خلف مكتبه الفخم ودوداً معنا، يتحدث قليلاً بصوت خفيض عن المؤسسة. يرحب بنا بدبلوماسية منمقة لا أفهم منها شيئاً جديداً، ذلك لأنني أحدق في هذه اللحظات في تفاصيل صورة مناحيم بيغن المعلقة فوق رأسه على الجدار، بينما أتخيل شرور مناحيم بيغن الذي ركّع كل العرب، وليست مصر وحدها في كامب ديفد، ثم تفرغ بعدها فاحتلّ بيروت، وطحن آخر مقاومة فلسطينية من بلاد العرب، وشرّد بقاياها من كل لبنان عام 1982، وهو الذي أدار مذبحتي صبرا وشاتيلا، وحرّك فاعليها، فكانوا طوع بنانه، بصفته القائد الخبير بهذه المذابح للناس العُزل، النائمين في بيوتهم، ابتداء من مذبحة دير ياسين، وليس انتهاء بهذه المخيمات المنكوبة، وبكل هذه المؤهلات التي تنقع دماً، حصل على جائزة نوبل للسلام!

وهنا أسأل نفسي: «ولكن لماذا يُعلق الألماني صورة بيغن بالذات، وليست صورة الرئيس الألماني مثلاً؟».

نخرج من هنا، فآخذ نسخة من صحيفة إنجليزية صادرة عن المؤسسة، وأقرأ فيها أن انفجاراً حدث هذا اليوم في برلين، ويُعتقَد

أن إرهابيين فلسطينيين كان لهم علاقة بالحادث..!» ولكنهم في اليوم التالي أكدوا أن الانفجار كان في أنابيب غاز اشتعلت في مستودعها، وأن لا علاقة للإرهاب بها من قريب ولا من بعيد!

«حسن، ولكن كيف تحشرون الإرهاب الفلسطيني في بلاد لم يصلوها؟» تسألهم، فيرد عليك أحدهم: لقد قالت الجريدة: «يُعتقد أن إرهابيين..». ولم تقل: «قام إرهابيون..». وبذلك فلا لوم على الصحفي الذي يقوم بواجبه خير قيام. فأقول له ساخراً: «لا شك أن اللوم، كل اللوم على المنكوبين الفلسطينيين الذين - فوق عذاباتهم- يتم تشويه وجوههم زوراً وبهتاناً في كل مكان، وليس في ألمانيا وحدها!».

في مساء هذا اليوم تأتي المضيفة الجميلة فرحة مرحة، فتجمعنا في بهو الفندق للذهاب لحضور سيرك ألماني برليني شهير، وخلال انتظار تجمُّع الزملاء، تحدثنا أحاديث مازحة لتلطف الجو، وتجعلنا نخلع أثواب الجدية، ورغم مرح المضيفة إلا أنني أعتذر لها عن الحضور، فتسألني الجميلة: «لماذا لا تذهب لمشاهدة أدهش العروض البرلينية؟» فأقول لها: «إن ما أشاهده من أحداث سيرك مذهل في مختلف بلاد الوطن العربي التي تتعرض للإرهاب، يفوق كثيراً سحر أي سيرك مدهش سأحضره!».

الضابطة الألمانية تريدني أن لا أفارق المجموعة بهدف تنفيذ البرنامج الرسمي كما هو، ومن جهة أخرى لعدم خروج أي شخص في المجموعة عن الرقابة الأمنية المزدوجة للإدارة، فلا يتعرض لمكروه

يتحملون مسؤوليته فيما بعد، ولا يفعل هو مكروهاً لهم خارج الرقابة الأمنية المباشرة! هذه هي الدبلوماسية دون تفسير!

أنتهزُ فرصة غيابي هذه الليلة، فأتجه نحو كاترين وأنا أقول لنفسي: «هذه ألمانيا يا حبيبي، بلد الضبط والربط بأيد فولاذية، ولكنها مغلّفة بقفازات حرير». اصطحبها فنذهب معاً إلى المطعم الشهير في قمة برج برلين الدوار، والذي أنشأته التقنية الشيوعية، ليكون أعلى من «برج إيفل» الشهير في باريس، وميزته أن دورانه الدائم يجعلك ترى معالم برلين كلها وأنت جالس للعشاء مع صديقتك الجميلة كاتي في المكان نفسه، فترى برلين كلها تدور خلفها، تحتفي بها، وتحرسها لك من العين!

سيارة ألمانية مستعملة!

وأما عن قصة السيارة التي قلت للزملاء في حفلة عيد ميلاد ألبرتينا في نهايات أيام «مؤتمر قادة شباب الأرياف في العالم» إنني كنت قد اشتريتها من ألمانيا عام 1980، فلقد قمت يومها بزيارة خالي حمدان، الذي يعيش ويعمل في مدينة دسلدورف، وذلك بهدف شراء سيارة لي، ثم العودة من هناك، سائقاً إياها في رحلة مغامرة عبر أوروبا الغربية فالشرقية آنذاك، ثم تركيا فبلاد العرب..تماماً كما يفعل تجار السيارات الألمانية المستعملة، والذين سمعت عن سفرياتهم قصصاً كثيرة.

يومها أرسلَت معي جدتي أم حمدان بعض الهدايا إلى ابنها الغائب عنها منذ أحداث أيلول عام 1970م، إذ وجد حمدان نفسه يومها محاصراً في شبه جيتو خارج عمان، وسط معارك مبرمجة دولياً، لا ناقة له فيها ولا بعير، فقرر الهجيج من الوطن، والالتجاء إلى ألمانيا، ورغم أنه مجرد عامل، ليس له أي علاقة بالسياسة، ولا ما يسوس السياسيون في سراديب الدبلوماسية الملفقة، إلا أنه أعلن هناك أنه لاجىء سياسي، ووكّل محامياً للدفاع عن قضيته، بهدف الثبات في

تلك البلاد الخضراء، فكتبت له الحياة والعمل بعيداً عن تعقيدات الحيوات العربية وعذاباتها..

ويوم السفر قالت لي جدتي أم حمدان وهي تمسح دموعها التي تسيل على خديها المجعدتين بمنديلها القماشي الأبيض المطرز بتطاريز فلسطينية: «قل له إن أجيالك يا حمدان أصبحوا أجداداً. عد إلى بلدك لتتزوج وتنجب لك طفلاً!». وعندما نقلت له عبارة والدته فيما بعد، قال لي:

تحدثت في هذا الموضوع مع صديقتي الألمانية، فقالت لي: «ما ذنب أولادي كي أنجبهم ليتعذبوا على هذه الأرض؟ إذا كنت أحب أولادي، فعليّ أن أحفظهم في قلبي، من دون أن ينزلوا على هذه الأرض..لقد مارست حواء الحب مع آدم لتنجب منه الأطفال في جنة النعيم، فكان جزاؤهما أن أُسقط بهما إلى الأرض، ليتورطا هما ونسلهما طوال حياتهم في كَبَدْ! فإذا كان الإنسان يقضي حكماً بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة على هذه الأرض، فلماذا يورط نسله بهذا العذاب الدائم؟ دعنا يا همدان[1] نمارس الأشغال الشاقة وحدنا، فلا نورط أطفالنا الذين نحبهم بهذا السراب الخادع!». وأضاف خالي: أضحك وأنا أسمع وجهة نظرها، ولكنني أفكر ملياً في هذا الأمر، بعد تكرارها سرد وجهة نظرها قائلة: «أنا معقدة من هذه الحياة التي قد يضطر فيها المرء إلى القتال كي ينجو بنفسه، ولكنه في النهاية لا

---

(1) هم يلفظون حرف الحاء، هاءً.

ينجو، بل يهلك مع الهالكين! لا داعي أن تحاول يا همدان، فمهما تقاتل وتقتل، لتنجو بنفسك وتعيش، فأنت مقتول مع المقتولين! الحياة باختصار معركة خاسرة! الخسارة فيها حتمية! إنها سقوط فوق ركام، لا يلبث أن يُهلكك، ويحولك إلى ركام، ثم يُحلِّلك، لتعود كما جئت من تراب إلى تراب!».

يضيف خالي الممشوق القد الوسيم، بعينيه الخضراوين، وكأنه ألماني محسّن النسل: «أبكي يا خالي كلما أعرف أنني «همدانٌ، همدانٌ، همداااااان»، مهما فعلت، ولست حمداناً، ينتظر أن تُحمد عقباه، أو أن تحمده أمه على خِلفة شقية!». لا أُجيبهُ، ولكنني أنظر إليه وأنا أقول لنفسي بصمت: «يا ميت خسارة عالرجال» المهزومين، وإلا فمن سيعود ليسكن في حيفا ويافا واللد والرملة إذا لم تنجب يا خالي حمدان أنت وأنا وبقيّة أهل فلسطين، التي لن تعيدها سوى الأجيال المتدافعة المتناكحة المتكاثرة، المتباهي بهم محمد يوم القيامة؟».

يومها نزلت بي الطائرة وسط مدينة فرانكفورت، أكبر مدينة تجارية في ألمانيا..أستغرب نزولها، وأخاف وأنا أراها تهبط في غابة كثيفة الأشجار، كنت أتخيل أنها ستهبط وسط عمارات مدينة تجارية، أو أنها ستدرج فوق مطار مكشوف، وسط أراض فارغة، مثل صحارينا التائهة في السراب! هل هو هبوط اضطراري للطائرة الفاقدة توازنها وسط أجمة داكنة الخضرة؟ يتوقف هلعي عندما تنزل بيُمن الله ورعايته، فأقول لنفسي: «ما أجمل هذه الغابات السوداء، الملتصقة

خضرتها الساحرة بأرض المطار! المطار في بلادنا يتمدد عطشاً في سراب صحراء مُحَمّصة بين الرمال.». أتذكر عندما جاء ابن أخي طفلاً من أمريكا إلى مطار عمان، فاستغرب ما رأى، فسأل أباه قائلاً: «لماذا قطعوا كل الأشجار من محيط المطار يا أبي؟» فقال له أبوه مُحرجاً، وهو يعرف ما لم نقدمه لأولادنا على هذه الأرض: «إنهم لم يزرعوا، ولم يقطعوا يا بنيّ!».

يقترب مني عند باب الطائرة شاب يلبس بدلة رسمية، ويعقد ربطة عنق توحي بالوجاهة، ويحمل حقيبة يدوية سوداء، من نوع الحقائب السامسونايت المضلعة الفخمة، وكأنه رجل أعمال مهول، فيبادرني بحديث لبق ومهذب، ويُعرفني على أن اسمه مسعود **الخوالي**، عضو (جي سي إيه)، هكذا يلفظها بالعربية، فلا أفهم ما هي ال(جي سي إيه)، ثم يسألني:

«إلى أي مدينة تنوي الذهاب في ألمانيا؟» فأقول له:

«إلى دسلدورف».

«إلى دسلدورف؟ أرجوك أن تأخذني معك، فأنا ذاهب إلى هناك، ولا أعرف من يدلني على دسلدورف!». أفكر قليلاً، فلا أمانع في أن أصطحبه! أقول لنفسي: «وهل سيذهب على كتفي؟ الرجل استجار بي، وأنا ذاهب ذاهب!».

في القطار المتجه إلى دسلدورف، يجلس إلى جواري دكتور ألماني يُعرّفني إلى نفسه أنه يعمل في كلية الآداب– لغة عربية– في

جامعة فرانكفورت، وأنه مغرم بالشعر العربي القديم، الذي عهّروه – كما قال– بهذا الذي يسمى قصيدة النثر، وشعر الحداثة وما بعد الحداثة. وطوال الطريق وهو يرجوني أن أقرأ له ما تيسر من روائع الشعر العربي، فأرويه ببعض المعلقات، ثم أعرج على قصيدة المتنبي التي يقول فيها:

«ورْدٌ إذا ورَدَ البحيـرة شاربـاً   ورَدَ الفـراتَ زئيـرُهُ والنيـلا!»

فينتشي الرجل، ويرجوني بالاستزادة.

يقطع قطارُنا الجسر الحديدي المتضخم كالتلال فوق نهر الراين، فندخل إلى مدينة كولون، حيث ينزل هناك وهو يتمنى لو طال الطريق، ليسمع مني المزيد، وليشرح لي وجهة نظره في تخريب الشعر العربي بالحداثة النثرية المصطنعة.. يقول هذا ثم يخرج وهو يشد على يدي مودعاً!

نتابع الطريق إلى دسلدورف عبر نهر الراين الذي يلاعبنا الاستغماية، فيتقاطع مع قطارنا، كالبحر المارق تحته حيناً، والمتمرد علينا بصدره الواسع وامتداده المتمايل طوال الطريق. وبين الحين والحين يُذكِّرني صاحب السامسونايت بوجوده وهو جالس على المقعد المقابل، فأؤكد له أنني لن أتخلى عنه..

أشعر أن شكل مسعود الخوالي هذا لا يروق لي، ولا شنبه الذي يشبه ذيلين رفيعين لفأرين يتجمعان ملتصقين بشكل حذِر، ليشكلا أنفه المتضخم فوق شفتيه، ولكنني رغم شعوري هذا لا أتجاهله، بل أرأف

بحال الغريب الذي يستجير بي إذ لا يعرف الطريق، ولهذا أفتح حواراً معه للتعرف عليه، ولقضاء الوقت أيضاً، فأسأله عن مؤسسة أو شركة (جيه سي إيه)هذه، التي هو عضو فيها، وبعد استفسارات أفهم أنه يعمل سائق سيارة أجرة عمومي في عمان، وأنه مسافر للاستجمام. يقول لي باسماً بأسنان أشاهدها هذه المرّة بارزة إلى الأمام، وكأنها أضلاع مظلة محل تجاري قديم بلا ستائر! ننزل فيرافقني ملتصقاً بي وهو يقول لي مذعوراً: «لا تتركني فأنا أخاف أن أضيع!».

أصل ومعي الرجل المهول إلى خالي حمدان في دسلدورف، الذي يستقبلنا بحفاوة بالغة، ولِمَ لا يستقبلنا، فلقد سبق وأن عاش في بيتنا في بداية شبابه حوالى ستة أشهر، يأكل ويشرب وينام، فتغسل له أمي ثيابه الخارجية والداخلية..من المؤكد أنه سيستقبلني على الرحب والسعة. لا يُقصِّر الخال الأربعيني الطويل المفروق الشعر المصبوغ بالأسود، فتظهر قيعانه البيضاء راقدة تحت الحصاد. يستلم الهدايا مني وهو يبتسم لها، فيعمل لنا شاياً، وفوراً أطلبُ منه أمام الضيف الغريب أن يدله على فندق قريب، تكون أجرته معقولة، لينام فيه.

أدنو بفمي من أذنه ونحن نشرب الشاي، فأوضح له بصوت خفيض أنني أنوي شراء سيارة مستعملة من هنا، فيبتسم مؤيداً الفكرة، ويعدني بالمساعدة، فأضيف قائلاً بكل ثقة بخالي الحنون:

«وأما نحن- وأركز على كلمة نحن- أي أنا وخالي، فسوف نلتقي صاحبي غداً ليكون معنا، إذ أنه لا يعرف أحداً هنا، ولا يتحدث الألمانية.. أطلب منه هذا كي لا يشعر بحمل ثقيل في بيته مع رجل

غريب، ليس لي به علاقة، مُقرراً أن نومي في بيت خالي هو تحصيل حاصل!».

وقبل أن يجيبني يرطُنُ خالي الأربعيني بالألمانية مع صديقته الخمسينية التي تجلس إلى جواره بصدرها المنتفخ مثل رابية، فترطن معه بلغتها، كلمات لا أفهمها..أقعدُ على الهامش وأنا أنتظر بياناً هاماً! يَنفضُّ المؤتمر التشاوري الألماني العربي، فيقف خالي حمدان، ويقول لي بصيغة الأمر:

«قوما يا خالي لأدلكما على فندق قريب تنامان فيه».

أتبهدل أمام السائق الغريب، فأعض بأسناني على شفتي السفلى حتى أكاد أقطعها، ولكنني لا أتهاوى أمام هذه الصدمة، وكأن شيئاً لا يهمني.

أحمل أمتعتي ومرافقي على ظهري، وأقوم أتبع خالي الذي يوصلنا إلى فندق ليس ببعيد، فنحجز ثم ندخل إلى غرفتين، واحدة لي، والثانية للسائق الذي ابتليت به. يودعنا خالي حمدان خارجاً من غرفتي وهو ينظر من شباك الطابق الثالث ثم يقول لي:

«يا سلام كم هو جميل هذا الفندق! والله أتمنى أن أنام لي فيه ليلتين!» فأقول له: «تفضل يا خالي، تعال ونم، على حسابي!».

أستغرب فقر ضيافة غربة خالي لي! هذه ألمانيا يا خال، وليست دارنا الصغيرة في المخيم، ذات الغرفتين المترين، والتي كنت تنام وتقوم وتخرى فيها!

ننتظره في مدخل الفندق في صباح اليوم التالي، فيأتينا الرجل الوسيم في الموعد، بابتسامة تشرح صدره، فيأخذنا بسيارته، ويتجول بنا في أحياء محيطة بمنطقة سكنه..أبحلق هنا وهناك، لعلِّي أشاهد سيارة معروضة للبيع، فأشتريها، ولكنني أفاجأ بسؤال يوجّهُهُ **مسعود الكلب** لخالي قائلاً: «يقولون إنه يوجد في دسلدورف مبنى يحوي نساء للدعارة. هل تعرف هذا المكان؟».

أُصُدم بالسؤال، وكأنه يقذف حذاءه في وجهي! أُذهل لطلبه هذا، ولكن خالي يخفّف عني هم الخزي الذي ينتابني، فيقول: «أبداً، هذا شيء عادي في هذه البلاد ..الحرية الشخصية محفوظة للناس.. سأدلك عليه يا.». فيقول له طالب الدعارة: «مسعود.. اسمي **مسعود الخوالي**».

«سأدلك عليه يا مسعود **الخوالي!**» وبالفعل، وبعد عشر دقائق سواقة نقف أمام مبنى رهيب، مُسوّر بجدار عال من جميع الجهات، وكأنه سجن حداثي شديد التحصين، يحوي أشخاصاً خطرين على أمن الدولة والمجتمع، ولكنه سجن فخم من نوع النجوم الخمسة. أشعر ونحن أمامه بفضول مشاهدة ما بداخل هذا المبنى الرهيب، خصوصاً وأنّ خالي يشرح لي أن هناك قاعة مفتوحة في الطابق الأرضي، والدخول إليها مسموح لعموم الناس، ولكن الصعود إلى الطوابق العليا هو خاص بمن يريد البغاء..وللأمانة، يعتذر خالي عن دخول العمارة، قائلاً: «إن الأمن يحرس العمارة، ويسجل السياح والأجانب الداخلين إليها، ولكنه يأخذ الأرقام الوطنية للمواطنين والمستوطنين

أمثالي، الداخلين إليها. هو لا يمنع دخولهم، ولكنه يعتبر هذا نقطة ضد مصلحة سلوكهم الشخصي». أشرح له سبب رغبتي بمرافقة هذا المتطفل علينا إلى القاعة العامة، بهدف معرفة شيء جديد عليّ، ليس إلا، مؤكِّداً له التزامي بعدم التورط مع هذا المتعوس في الصعود إلى الطوابق العليا، رغم أنني أعزب وفي الواحد والعشرين من العمر. وفعلاً أدخل معه إلى هذا المبنى المرعب الترحيب.

في القاعة الواسعة المحروسة برجال يرتدون ملابس الأمن الخاص، تقف حوالى عشرين إلى ثلاثين امرأة. لا أعدّهن لأنني أشعر بدوار العهر، وليس بدوار البحر، أجدهن يقفن مستندات إلى جدار القاعة، باسمات للزوار في صف متماوج طويل مثل صف السحِّيجة. أي والله! مثل سحِّيجة الدبكة الشعبية! ولكن هؤلاء السحِّيجات (يا معَوّد) أشباه حفايا عرايا، تلبس كل منهن غلالة رقيقة، من النوع الذي قال عنه فؤاد المهندس: (مبروك عليكِ الفستان اللي مش لابساه ده!) يصطففن وكأنهن في معرض اختيار ملكة جمال الكون، ورغم أن جمالهن ليس..! إلا أن وقفتهن بهذا الاستعداد تبدو مريبة لي، إن لم تكن مخيفةً، أقلّه بسبب الأمراض التي قد تنتقل من شاذ، إلى شاذة، إلى الشاذ التاسع والتسعين! ولكنني سمعت أنهم يفحصون البغايا كل أسبوع، أو كل شهر، لا أعرف، وأنا ما لي؟ ذلك لأنني لن أتورط في مثل هذه البيئة الرهيبة، فقد تفحص الباغية اليوم، ولكن مرضاً قد يصيبها بعد ساعة من عاهرٍ مغامر آخر!

يضحك مسعود الخوالي مندهشاً وهو يقول:

«ما هذه النِعم الحلوة، واللحوم الشقراء اللي بتفتح النفس؟ ياالله! بدك تدخل مع واحدة منهن؟» فأقول له متوتراً:

«لأ! أنا أخاف هذه النساء لأسباب كثيرة، أقلها أنهن في الغالب مريضات!».

«يالله يا رجل! لُطّها، وتوكل على الله!» فأضحكُ هذه المرّة وأنا أقول له: «أخاف أنها هي التي ستلوطني أولاً، ثم تلطُّني كالأفعى بعد ذلك!».

لا يضحك المتعوس، ذلك لأنه مهمومٌ بشهية التزفُّر بتفحص الساقطات، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، ليختار منهن التي سيسقط عليها خياره!

يبدو أن معظم زوار هذا الحصن الماخور من العمال الأتراك، ومن المواطنين الألمان، والسياح الأجانب، والأغراب العرب، وواحد أو اثنين من الأفارقة، يمرون عليهن، وكأنهم يستعرضون حرس الشرف، فإذا وقع خيار أحدهم على واحدة منهن وفضلها على غيرها، فإنه يشير إليها، فتتقدم معه باسمة وهي تقوده صاغراً إلى طاولة استقبال، فيدفع هناك أجرة العاهرة المختارة، التي ستنام معه في غرفتها المحجوزة برقم محدد، في طابق معين، ولمدة محددة، يصعدون إليه بالمصعد، وذلك بعد أن يضع الواحد منهم محفظته وأشياءه الثمينة في صندوق الأمانات. وهذا ما يفعله سائق الأجرة المسعود، الذي يزداد شعوري بأنني متورط معه، وهو يدخل مع تلك الـ..!

لا أجد أمامي ما أفعله خلال فترة الانتظار سوى أن أتجول هنا وهناك، فأتفحص هذه الأجساد المُسنّدة؛ تلفتُني حلقتا أذنيّ هذه الشقراء المعلقتين كدائرتي سيرك يقفز منهما أسد، ويدهشني هنا نهدان نافخان كضرعيّ بقرة حلوب، ولم يسبق لي أن شاهدت ولو صورة لمثل هذه السوداء المنبعجة مؤخرتها مثل نفاختين سوداوين ضخمتين مُتّحدتين، وهذه صاحبة الشعر الذهبي الطويل الذي يبدو أنه مستعار، وهذين الفخذين المربربتين تتخللهما من الجانبين تشعبات عروق زرقاء خفيفة، وتلك البيضاء المحمرة بلون الشواء ذات الخصر النحيل الذي تطوقه بقبضة يدك، والقصيرة الواقفة وهي تضحك إلى جوار الطويلة المجهدة مثل رقم عشرة! والمجففة الوجه الأصفر المصبوغ بالحمرة وكأنها مصابة بمرض السل..

تقول لي: «ما هذا؟ إنك لم تر فيهن غير البشاعة!» فأقول لك:

«لو كانت آيات الجمال النظيف في أجسادهن، لكان موقع كل منهن في مجال محترم في المجتمع! صحيح أن الظروف الصعبة قد ترمي كثيراً من المظلومات منهن إلى سوء السبيل، ولكن على أي حال، فهن لسن مرموقات بالنسبة إليّ، رغم أنني أشاهد الزوار يدخلون بكل همة واندفاع، فيتعشون من هذه الفحشاء، ويخرجون دون إحم ولا دستور!».

أتحرك أمامهن، فأشعر أنهن كلهن انتباه وإصغاء لإشارة يتوقعن أن أقوم بها كما فعل مسعود، وكأنهن يرغبن في إيقاعي في الفخاخ

المنصوبة هنا وهناك، والتي أتحرك حذراً من الوقوع فيها، وأنا أتخيل المتنبي يرافقني في هذه الساحة مندهشاً وهو يقول:

ومن خبـر الغوانـي فالغـواني ضـيـاءٌ، فـي بـواطـنـه ظـلام!

لا أجد مكاناً للخروج من هذا الجو اللحمي المتراص في قاعة العرض الواسعة، إلا أن أبحث عن مبولة أفرغ فيها حصيلة أفكاري! أنظر هنا وهناك، فإذ بها حسب الإشارة والرسم الموضح منزوية في الزاوية البعيدة. أذهب فأتبول، فأستريح من حمولتي الزائدة، وأنا شديد الحذر من أن أمسك بيدي أيّة أداة من المراحيض، أو يد باب، فأفتحه بمنديل ورقي واقٍ، وذلك خوفاً من التقاط عدوى جنسية أخافها!

بعد حوالى ثلث ساعة من الذهاب والغياب والإياب، يعود **مسعود الخوالي** دون حقيبة دبلوماسية هذه المرّة. ترتبط عودته في ذهني بفيلم متخيل كان يردده صديقي المصري **محمد محمد** ساخراً بهدف التهريج والولدنة أيام كنا زملاء في الجامعة، فيقول متجهماً بصوت خشن جهوري فيه تفخيم:

«(عَودَةُ النذل!) الفيلم الذي فاجأ الجماهير العربية من المحيط الهادرِ، إلى الخليج الثائرِ!

(عَودَةُ **النذل**– هكذا كان يلفظها–) الفيلم الذي ألهب المشاعر، وحرك الجماهير.

(عودة النذل) الفيلم الذي أدهشكم جميعاً!».

وهكذا يعود النذل من أحد الطوابق العليا، فيأخذ أغراضه من

صندوق الأمانات، ويقترب مني «منخفض القامة يمشي»، فأسأله:

«ها! كيف كانت العاهرة؟» فيقول برأسه المنحني باتجاه الأرض:

«إنما عليها تلفزيون! يا لطيف!» لا أفهم ماذا يقصد بعبارة تلفزيون، ولكنني لاحقاً أفهم ما هو تلفزيونها الذي كان يُحدّق فيه ملياً!

هذا هو تلفزيون مسعود الثقافي، الذي لا يفهم من السياحة سواه! وهنا أسأله بشماتة من يستشعر هزيمة غريمه:

«ماذا قالت لك، وكيف تعاملت معك؟» فيقول بشاربيه الفأريين المتضائلين، وشعر رأسه الغزير، الذي يتشظى مستنفراً فوق جبينه:

«بدأنا يا أبو الشباب، فوضعَتْ لي واقياً ذكرياً، وبسرعة دخلت في الموضوع، وبسرعة انتهينا، وبعد الانتهاء حاولت أن أسترخي على جسدها الملفوف بطراوة ممتعة، لأستمتع قليلاً بنقودي التي دفعتُها، فرفستني بقدميها اللتين كانتا قبل دقيقة منفرجتين تحت جسدي، وقالت: «إنك الحيوان نفسه!» (you are the same animal) هكذا قالها. ضحكتُ عليه وأنا أوافقها هذه المرّة بقولي:

«فعلاً هي صادقة!»».

نخرج فنلتقي خالي حمدان الذي يعود بعد ساعة من الزمن إلى الشارع القريب من المبنى، ليأخذنا من الناصية حسب الاتفاق، فأطلب منه على انفراد منع مرافقي من الركوب معنا في سيارته، وأوضح (للأنيمال) عدم رغبتنا باصطحابه بعبارة قاطعة، فلا يملك من جُرِّد من حقيبته الدبلوماسية إلا أن يبرد وجهه، فينصاع لرفضنا له، ويبقى واقفاً مكانه، بينما نبتعد تاركين إياه ليدبر أمره كما يشاء!

لا يُعقب خالي على هذه التصرفات، بل يتطرق فوراً للسؤال عن نوع السيارة التي أريد شراءها، فأقول له:

«مرسيدس حديثة نوعاً ما». فيسأل:

«ما هي سنة صنعها، وطرازها، وثمنها المتوقع؟» فأوضح له. فيقول:

«وكم سيكون نصيبي من البيعة؟» أدهش لأمر خالي الذي كانت أمي تغسل له ملابسه الداخلية في بيتنا مجاناً.

«ماذا تقول؟ أمعقول طلبك هذا يا خالي حمدان؟!» فيقول بكل إصرار ودون خجل:

«ألستَ تنوي التجارة بهده السيارة، فتشتريها وتبيعها هناك في عمان، فلماذا لا يكون لي نصيب من هذه التجارة، وأنا المتفرغ معك، أدلك على السيارة الأفضل والأرخص؟». فأقول له وقد ارتفعت نبرة صوتي وبدأت أفقد أعصابي:

«ولكنني لست تاجر سيارات! لقد قصدت من هذه الزيارة التفرج على ربوع ألمانيا، وزيارة الخال العزيز، ومن ثم شراء سيارة خاصة أقتنيها لي، وأسافر بها في رحلة مغامرة سياحية عبر أوروبا، فتركيا وبلاد العرب!».

يصمت الخال إذ يراني متوتراً، ويتوقف عن محاورتي، بينما هو مستمر في قيادة سيارته في شوارع دسلدورف التي أشعر فيها بغربة موحشة.

وخلال مرورنا أشاهد سيارة مرسيدس معروضة قرب الرصيف،

وعليها إشارة (للبيع) فأطلب منه التوقف، فيتوقف وننزل، فيقابلنا صاحبها الذي يقف بالمصادفة إلى جوارها، فأطلب منه أن يفتح لنا أبوابها.. تعجبني السيارة، فأرتضي أن أدفع له ثمنها المطلوب، ولكن خالي حمدان يعود إلى سيارته وقد احمر وجهه وارتفع صوته قائلاً:

«عليّ الطلاق أننا لن نشتريهاًا!» فأقول له:

«لماذا يا خالي؟» فيقول مقطباً جبينه من دون أن ينظر في وجهي:

«خلص، أنا لم تعجبني السيارة!».

«ولكنها أعجبتني، وأنا راغب بها!» لا يجيب الخال بشيء، بل يشغّل محرك سيارته وينطلق بنا في شوارع دسلدورف التي لم تعد جميلة في نظري!

أتفهم «العقوبات الأوروبية القاسية» التي يفرضها الخال (المتأورب) عليّ!

في الحقيقة لا أُطيق أن أخضع لدفع الأتاوة إلى الحبيب الذي جئته مشتاقاً وبين أضلعي أمانة من والدته، فأطلب منه أن يعيدني إلى فندقي الذي أعجبه، فيعيدني، وهنا أودّعه، وأقول له: «إلى اللقاء يا خال!».

طبعاً لن يكون لقاء، إذ أقرر أن أغادر في صباح اليوم التالي إلى مدينة قريبة إلى لكسمبورغ، ذكروا لي أن اسمها ترير، فقد تكون أسعار السيارات هناك منافسة، نظراً لبعدها عن حركة تجار السيارات من جهة، ومن جهة أخرى هي أقرب للعودة إلى بلاد العُرب أوطاني!

طلاق ابن المُخيّم!

يوصلني القطار إلى ترير، فأنزل حاملاً حقيبة سفري متوسطة الحجم، وأنا أبحلق في القادم والذاهب، وأروح أتجول في المحطة الرئيسة مثل الأبله، أتفرج على العمارات الرومانية الطراز، والحدائق الفسيحة التي تعطي للمدينة رونقاً متميزاً وطابعاً خاصاً، يا أخي كل شيء جميل في ترير، ولكن شاباً حنطي البشرة يلفتني وهو يقف مهموماً، وعيناه تُثقلان رأسه فتحنيانه باتجاه الأرض، كقرص «عباد شمس» يقف ناضجاً مثقلاً بحبوبه. تبدو هيئته عربية، فأجد نفسي أقترب منه وأسأله بالإنجليزية إذا كان عربياً؟ فيجيبني بالعربية:

«نعم أنا عربي». فأصافحه بفرح، وبعد السلام والكلام، أسأله عن فندق أنام فيه، فيسألني قائلاً:

«من أي بلد أنت؟».

«أنا أردني من فلسطين». فيقول مبتهجاً:

«وأنا أردني من فلسطين!».

«من أي مكان من الأردن؟».

«من جبل النزهة، في عمان».

يسلم عليّ مرّة أخرى بحرارة، وهو يقول مسروراً:

«وأنا من مخيم الحسين الذي تجشأ، فولد جبل النزهة!» وهات يا عناق بالأحضان، وهات يا مودّة! وبعد حوار طويل، وشرح موجز عن أحواله وعذاباته في بلاد الغربة، لجمع المارك فوق المارك، للخروج بأهله من جحيم مخيم الحسين أقلّه، إلى جبل النزهة، الذي لم يسموه هكذا لأن الناس يتنزهون في منتزهاته المعدومة، بل ليخزوا العين عنه، إلى أن يسمح الله، فيهيء الظروف، وينضج الوقت للعودة إلى فلسطين. هكذا يقول الشاب الذي أشعر بدفء لقائه من أول نظرة!

ليس الحب وحده الذي قد يبدأ من أول نظرة، بل إن استلطاف الأصدقاء أيضاً قد يبدأ كهذا!

يجرنا الكلام ونحن في الشارع، فيقول إن اسمه نايف المبروك، وهو متزوج من ألمانية تعمل ممرضة في الليل، وهو يعمل ميكانيكياً في النهار، فأعرّفه على مهنتي في الأردن، وأذكر له أن هدفي من الزيارة هو شراء سيارة مستعملة. يشعر الشاب ببساطتي، ويطمئن إلى براءة طلبي، فيجرني بدوره إلى بيته..

لم أتوقع أن يكون بيته قريباً من المحطة الرئيسة، ولكنني أحزن وأنا أدخل معه إلى شقة صغيرة معتمة في قبو عمارة قديمة تنزوي خلف الطريق. نجلس على مقعدين بسيطي الشكل، وبينهما منضدة صغيرة، يبدو أنه أخذها من الأثاث المستعمل، وخلال نظراتي المتفحصة لغرفة الجلوس الصغيرة، المتحدة مع المطبخ، المعلّقة أدواته على الحائط،

وثلاجته الصغيرة في الزاوية، يقوم فيعمل لنا بسخان كهربائي كأسين من الشاي.

أطلب منه أن يدلني على فندق قليل الأجرة، وقريب من هذا المكان، فيحلف بالطلاق أنني لن أنام في فندق وهو موجود!

«لن تنام إلا عندي، طوال فترة إقامتك المحدودة هذه! أنت ابن بلدي يا رجل، ولا تنسَ أن مدينة **ترير** أيضاً هي مسقط رأس المفكر الألماني العظيم **كارل ماركس**، أبي الكادحين في العالم!».

أذهل لهذا الكرم الحاتمي الماركسي، وأروح أقارن المفارقة بين طلاق خالي **حمدان** وطلاق ابن المخيم **نايف المبروك**، الذي عندما يعرف أنني مجرد ابن بلد، يريد شراء سيارة، ليعود بها إلى أهله، يقول مُرحِّباً إنه لا وقت لديه، بينما يتناول من على المنضدة جريدة إعلانية يومية توزع مجاناً، وتعرض السيارات المستعملة للبيع، فأسأله عن كيفية قراءتي للغة لا أعرفها، فيقول إنه لا داعي لمعرفة اللغة الألمانية، فهذه صور السيارات المعروضة في قائمة، وهذه هي سنة الصنع لكل سيارة، وهذا هو السعر المطلوب بالمارك الألماني، وهذا هو هاتف بيتنا الذي ستتصل منه».

أُدهش للمرّة الألف وأنا أُحظى بتأكيده عليّ، فأشكره وأقبّلُ وجهه من الجانبين، وأنام في بيته الكريم، ثم أتابع في النهارات اللاحقة استقصاء الشراء، فأتجول في شوارع ترير، وأتمشى هنا وهناك، فأشتري شطائر نقانق مسلوقة من بائع يعرض أطعمته الساخنة من كشك منزو

على الطريق، يتصاعد منه البخار، لأفطر هنا، وأجلس في طرف مطعم شعبي أتغدى شرائح البطاطا المقلية وإلى جوارها شرائح لحم حمراء نارية مجللة بالدهن، لا أعرف أنها لحم خنزير، ولكنني انتبه إلى هذا اللحم الدهني المُحرّم، فأقذفه في سلة المهملات، وأركز منذ اليوم على تناول الأجبان والألبان، فأشتري من الدكان قطعة جبن بيضاء مكعبة كبيرة، وأخرى صفراء هلالية، من نوع القشقوان، وعلبة عسل نحل، وبضع معلبات سردين متنوعة، ولا أنسى شراء علبة فول، وكيلو تفاح، مع عدد لا بأس به من كرات الخبز الأبيض والأسمر القمحي الشهي المنفوخ، أختارها من النوع المرصع ببذور القزحة السوداء، فآخذها معي إلى البيت، ولا أعود بعدها آكل من السوق، إلا إذا اشتهيت شيئاً أعرفه حق المعرفة!

أقضي أياماً ستة أبحث هنا وهناك، لا ألتقي فيها **نايف المبروك** إلا قليلاً، حتى اشتريت سيارة مرسيدس أعجبتني. أخذتها من رجل يقف أمام فُلّة صغيرة تكاد تختفي وسط غابة شجرية خارج المدينة، أجده قصير القامة، جادّ النظرات، بتكشيرة تقطع الرزق، وشعره الغزير الشائب الذي يكاد يغطي معظم رأسه ووجهه، وينزل متشابكاً ليدفىء أسفل رقبته لا يوحي بأنه يشبه رجال الفايكنج الذين يقال إنهم كانوا طوال القامة.

يعض الرجل غليونه الخشبي المتدلي ثقيلاً خارج فمه، ثم يخرج أوراق السيارة من جيبها الأمامي، ويسلمني إياها بيديه، ثم

يعود يحتضن مرجل غليونه بيده اليسرى، ويعب منه نفحات دخان، ما يلبث أن ينفثه بأنفاسه المحترقة، فيفسد تصاعدُه في الجو نقاءَ هواء الغابة. أدفع له الثمن، ثم أطلب منه كتابة عقد بيع، والتوقيع عليه لتوثيق الشراء، فيستهجن الرجل طلب جاهل، ويقول وهو يُفرِج عن غليونه المعضوض بأسنانه المطلة عليّ، ويشير به إليّ، فتظهر اهتراءات طرف أنبوبه الخشبي بعضّاته المزمنة: «هذه سيارتك، وهذه أوراقها معك، فماذا تريد مني أكثر من ذلك؟ اذهب إلى دائرة السير، فسجلها باسمك للتصدير، وسافر دون معوّقات».

بصراحة، لا أرتاح للأمر، ففي بلادنا العربية لا يتم البيع والشراء أصلاً إلا في دائرة السير، وذلك بعد ستين ذهاب وإياب بين حواجز الدوائر المختصة، فتجد نفسك تنتقل من مكتب إلى مكتب إلى مكتب، وكأن الكمبيوتر لم يدخل بلادنا بعد، فلا نستطيع أن نتمم جميع معاملاتنا على شباك واحد، كما نتمم معاملة بنكية على الشباك نفسه..وبعد عمر طويل، يتأكدون من رقم السيارة، ورقم المحرك، وسنة الصنع، وكون اللون هو أصلي أم مُغيّر، وهل عليها رهونات أو حجوزات؟ وهل هي مسروقة؟ وهل عليها مخالفات؟ وهل معك طفاية حريق؟ وهل فيها عاكسة؟ وهل فيها وما فيها؟ (وكاني ماني أسبيرين الألماني!) هل فهمت شيئاً؟ ولا أنا! تدقيقات كثيرة لا أفهم مبررها، وكأنك في مجتمع سوق حرامية، يتم التأكد منها، وحفظها في ملف كامل في السجلات، لتقدم به رسالة دكتوراه!

وبالفعل أذهب بها إلى دائرة السير التي دلني سائق الغليون على عنوانها، فأسجلها وحدي على شباك واحد، خلال عشر دقائق، فتصير باسمي قانونياً، وأخرج بها وأنا أقارن هذه البساطة بتعقيدات دائرة السير في بلادنا العربية!

لا أنتبه إلى أن سمعة تُجار السيارات العرب غير طيبة، ذلك لأن واحداً من الألمان يبيع سيارة لأحد العرب، أو عدة سيارات، فيقبض ثمنها بالطريقة التي اشتريتها من ذلك الرجل الذي عرفت لاحقاً أنه غجري، يسكن فُلّة قدمتها له الدولة بالمجان، مع راتب شهري دائم، ليتوقف عن الشحاذة وإجهاد بلاء الناس، والاسترزاق دون عمل.. ولكن ذاك الغجري قد يقوم بعد وقت قصير، فيشتكي للشرطة بأن سيارته قد سُرقت، وأن عربياً «بربرياً» ربما سرقها، فيدفع له التأمين ثمن السيارة كاملة، ويكون التاجر العربي المغدور، أو المشتري الغلبان لغير شؤون التجارة مثلي، قد غادر البلاد، ولكن بسمعة مضروبة، لا تختلف عن تشويه سمعة العرب المتهمين اليوم بالإرهاب، بينما هم المُعتدى عليهم جهاراً نهاراً!

أنطلق بسيارتي على الطريق السريع، من ترير إلى ميونيخ، إلى النمسا، إلى يوغوسلافيا السابقة..وعلى الطريق الطويل كثيراً ما يصادفك شاب أو صبية من شباب الشعر الطويل، أو الذين هم بلا مأوى، أو من السائحين المغامرين مثلي، ولكن من دون سيارة تقلهم، فتجد أحدهم يؤشر لك على الطريق لتقربه إلى أي مكان قادم..هكذا

تتوقف صبيّة جميلة عن المسير، فتواجهك وهي تحمل بقجة أمتعتها على ظهرها، وتؤشر لك بإبهامها الكبير إلى الأمام، بينما هي تقبض بقيّة أصابع يدها الأخرى..

تفكر كثيراً بحمل فتاة رائعة الجمال، تستلطفها، فتبطىء سيارتك عندها، فتقترب منك بسرعة وهي تقول لك: (أوتو ستوب).. تراودك النفس الأمارة بالمعروف لتساعدها، وتخفف عنها متاعب سفرها، ولكنك تتذكر سيء السمعة مسعود، فتقول:

«وكيف تساعدها إذا كانت هذه المرأة تحمل معها أشياء ممنوعة كالمخدرات مثلاً، أو تسحب عليك مسدساً، أو تنفث في وجهك رشاشاً مؤذياً، فلا تعرف للخلاص منها طريقاً؟». ثم تراودك النفس الأمارة بالسوء، فتقول لنفسك: «وماذا سيحصل لك إذا كانت هذه المرأة مصابة بأمراض معدية، ما دامت لا تميز، فتصعد مع أي سائق يقطع الطريق؟» وعلى رأي المثل:

«دوِّر على النسوان، تعرف سبب الأحزان، ورمش عين الحبيب يفرش على فدان!».

تتركها في طريقها، وأنت تدوس على بنزين سيارتك لتبتعد عنها، فتبقى خفيفاً نظيفاً، ويا دار ما دخلك شر!

ومن أسباب عدم مرافقتي لشخص آخر، أنني أنام في هذه الليالي داخل سيارتي الواسعة نسبياً، والتي أوقفها على الطريق إلى جوار محلات تجارية، أو في مكان مأمون ليلاً، فأريح المقعد إلى الوراء،

ليكون بشكل أفقي بقدر المستطاع، ثم أسترخي وأغفو داخلها! ليس هدفي الأول توفير نفقات باهظة كانت ستُدفع للفنادق، ولكن نومي هذا يطمئنني إلى أنها لن تتعرض للسرقة، وحتى لو سرقوها، فسأبقى أنا بداخلها، «إما قاتل، وإما مقتول!» إذ أنها هي كل حالي ومالي، وكل ما أملك من متاع الدنيا!

وعلى طريق بلغراد تجلس امرأة عجوز على الأرض، غير بعيدة عن حافة الطريق الدولي غير المعبد كما يجب وبلا أرصفة، والعجوز المحتشمة بحجاب يغطي شعرها، تاركة منه خصلة لامبالية بشيبها غير الممشط تنساب على وجهها المُجعّد، تعرض للمارة والمسافرين ألعاباً خشبية مقطوعة من الغابة.. أتوقف عندها، فتضحكني لعبة رجل خشبي تبيعه.. يجلس الرجل وهو ينظر إليك بشكل محترم، فإذا حرّكتَهْ العجوز ليستلقي، فإنه ينام مطمئناً، ولكن قضيباً ضخماً ينبلج من بين فخذيه قافزاً إلى أعلى! تضحك العجوز المخلعة أنيابها مع ضحكتي بروح مرحة، وهي تعرض عليك هذه التحف الخشبية، المتحركة بمفاجأة لا تتوقعها!

«هل تشتري؟» تسألك بلغة قد تكون صربية أنت لا تفهمها، ولكنك تفهم مفارقات هذه الفنون، وأنت تضحك معها، أو تضحك عليها، أو تضحك على نفسك! لا تعرف كيف ستأخذ مثل هذه البضاعة المسخرة هدية لأهلك أو لمن يهمك أمرهم! طبعاً لا تشتري، ولكنك تتخيل أن هذه العجوز المحجبة لو لم تجد لها مشترين من السياح

المختلفة ظروفهم وأهدافهم، فسوف لن تعرض مثل هذه البضاعة الفاجرة!

على الحدود اليوغوسلافية البلغارية يوقفني رجال الجمارك، فيأخذون جواز سفري، فيطّلعون من أختامه على الدول التي قطعتها، من أين، وإلى أين. يفتشون سيارتي، ثم يفتشونني بدقة، وذلك بتحسس أحدهم جسدي من فوق ملابسي، ولكن بحذر شديد، بينما أنا أقف لامبالياً بكل ما يفعل، ما دمت لا أملك شيئاً مما يتخيل..

يبدو أن الرجل يشك في شكلي، ويعتقد أنني أتصنع البراءة! يتجمعون فيتحاورون، وأنت تعرف الحدود، حذرٌ من ممنوعات، وتجارة مخدرات، وأسلحة، كثيراً ما تُهرّب عبر الحدود، أو أيّ شيء من هذا القبيل! ولكنني مغفل إذ لا أتوقع أنهم يريدون مني رشوة مرور! يعود الجمركي فيتقدم مني ويقول لي:

«اخلع من رجلك!» فأخلع حذائي ممتثلاً للأوامر. ينظر إليّ للمرة العاشرة، ثم يقول لي:

«اخلع الجرابات!».

يبدو أنهم يقردنونني لأدفع بالتي هي أحسن! انتبه إلى البهدلة، فأقول له باسماً:

«إذا أردتني أن أخلعها، فلتخلعها أنت بيديك!». ولدى شعوره بمقاومتي، يزداد إصراره على إذلالي، أو على اكتشاف مفاجأة متوقعة، فقد أكون أخفي شيئاً تحت جراباتي، فلا يتردد بخلعها بيديه، ولكنه

يُحبط بكونه لا يجد شيئاً داخلهما، فألبسهما وأنا أبتسم شامتاً في محاولاته الغبية، وعندما يغلب حمارهم يطلقون سراحي، فأنطلق وأنا أضحك على حسرتي من هذه الطرقات الدولية، التي لا تبقي كرامة، ولا تحفظ أمناً!

أصل يا حبيبي إلى صوفيا، عاصمة بلغاريا، فتلفتني فيها الأشجار المثمرة وهي تصطف واقفة متفرعة على أرصفة الشوارع أينما أذهب. الساعة الآن تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. أوقف سيارتي في الساحة العامة، في وسط المدينة، بين سيارات قليلة العدد هنا. قد يكون السبب أن الوقت ليل، وأن النظام الشيوعي في هذا العصر يوفر لهم المواصلات العامة بأسعار زهيدة، فهم لا يحتاجون إلى الكثير من السيارات الخاصة التي تفرغ الجيوب، التي هي من أهم أهداف الرأسمالية المتوحشة، التي تدفع باتجاه الفردية، والتفرد، ومن ثم الاستفراد بلحوم الناس الغلابى بأنياب فولاذية إلكترونية، لا يسهل الفكاك منها!

ليس هذا وقت فلسفة الحديث عن النظام الشيوعي، الذي ألغى التنافس من طبيعة الإنسان، بينما تحنط زعماؤه في نعيمهم الأحمر، فأوصلوا شعوبهم التي تعيش مشدوهة خلف أسوار الرأسمالية المتوحشة، التي تسحرهم ببريق الذهب الخادع، فتوصلهم إلى حالة سراب مدوِّخ لا يُمكن التعايش معه!

ليس هذا وقت التفكير والتنظير للأيدولوجيات، فأنا أريد أن أنام

قليلاً داخل سيارتي، في مكان آمن بين السيارات التي تقف في وسط الساحة الرئيسة، حيث لا مخالفات في الليل.

في تمام الساعة السابعة صباحاً أفاجأ بامرأة شرطية تتحرك بنشاط وهِمّة بين السيارات التي تنام في الساحة العامة، وتسجل عليها المخالفات.

كنت قد استجرت بالساحة العامة لأنام فيها بأمان، ولكنني أبدو كالمستجير من الرمضاء بالنار!

أُشغّل سيارتي بسرعة، وأحاول أن أنطلق بها، ولكن الوليّة تقف خلف السيارة «بالروح بالدم!»، محتجزة إياها، فتدفّعني مخالفة، قيمتها أكثر من أجرة فندق، كنت أقتصد كي لا أدفعها.

ويسكي حاجّي؟

أقطع الحدود وأدخل إلى بلاد تركيا، متخلصاً من ربقة بلاد أوروبا، الرأسمالية والشيوعية، فأطارد بسيارتي سعيداً في بلاد المسلمين، معتقداً أن الإسلام هو دين وسط يمزج بين الرأسمالية والاشتراكية. وبعد مسافة غير بعيدة، يوقفني ضابط مخفر شرطة في منطقة أدرنة، فيسألني:

«إلى اسطنبول؟» أقول:

«نعم إلى اسطنبول!» فيطلب بلغته التركية التي لم أفهم منها سوى الإشارة:

«خذني معك». فأقول له بالإشارة، وكأنني أكلم شباب (الأوتوستوب):

«آسف لا أستطيع». فيقول وهو يدوِّر يده: «لماذا؟».

«أنا آسف لا يمكنني أخذك!».

«هل تخاف مني؟».

«أنا آسف لا أستطيع!».

«إنني ضابط المخفر! أنا مدير الأمن هنا!».

أصمتُ ولا أعود أكلمه. أفكر بتبعات اصطحابه معي، وأنا أمتثل للوقوف الأمني، فأقول له صامتاً:

«لا أستطيع أن آخذك، حتى لو كنت مدير أمن الحدود كلها! يا أخي أنا لا أعرفك، ولو طلعتَ معي، فلو أردتُ أن أنام على الطريق، وأنت مستعجل فكيف أنام، ولو يحصل معي حادث فسوف أتورط مع جروحك، وأكون مسؤولاً عنها. دعني وشأني. إنك تكبل حريتي!».

صمتٌ طويلٌ يجعلني مثل جحش حرون. ييأس بعده الضابط من الركوب معي، فيشتمني بلغته التركية شتماً مقذعاً، وهو يرفع صوته، بينما أحرك سيارتي وأمضي غير ملتفت إليه!

هنا في اسطنبول أبطىء قيادتي، وأحاول أن أقف بها بين السيارات في أحد الأسواق التي لا أعرف اسمها، فيهجم عليَّ عدد من الشباب المتراكضين المخيفين. فَلّة حكم في هذه الأيام إذ تجدهم يتصايحون بغوغائيتهم:

«سجاير حجي؟ ويسكي حجي؟ حريم حجي؟» يتراكضون حولي وهم يشاهدون رقم السيارة الألمانية، فيعرفون خط سيري، فيقتربون مني وهم يتصايحون: «سجاير حجي؟ ويسكي حجي؟ حريم حجي؟».

أُزمّرُ لهم ليبتعدوا كي لا أدوسهم بعجلات سيارتي التي يلتصقون بها، فأكتشف أن زامور السيارة معطل. طوال الطريق لم أحتج إلى

طُوِّيطة، ولكن دخولي إلى تركيا يجعلني بحاجة ماسة إلى هذه الفزّاعة اللعينة!

وكالعادة أضحك على غلبي، إذ لا أفهم علاقة الحجي والحُجّاج بكل هذه المحرمات، ولذلك أحرك سيارتي ثانية، فأتجه نحو اسطنبول القديمة، حيث أخشع أمام وقار السلطان أحمد، وأدهش أمام هندسة مسجده العظيم، فأوقفها في ساحته، وأتجه إليه بهدف الاطلاع على معالم العثمانيين، فأجده شبه مهجور، وأبوابه مغطاة بشرائح بلاستيكية سميكة، وكثير من حجارة جدرانه منهارة، وبعض أعمدة الرخام خارجه مكسرة، وملقاة عند الباب الرئيس، وحول مبنى المسجد، وكأنني أفهم أن هذه الأماكن الدينية المدهشة المعمار هي الأكثر خطورة في هذا العصر المنقلب على الدولة العثمانية، والمحكوم بعسكرية 1980 الدكتاتورية، هذه الفوضى التي تنتج عشرات القتلى يومياً في مواجهات مسلحة بين اليسار واليمين في تركيا!

أرى مسجد السلطان أحمد معتقلاً، وخيوط العنكبوت تعشش فيه، وتجلل قبته وكل منافذه التي صُمِّمت لتكون واسعة الصدر لكل المصلين. أشعر أن كل من يقترب من المسجد مراقب من محاكم التفتيش، وأنه بين لحظة وأخرى قد يجد من ينقضُّ عليه، ويتهمه باقتراف الخطيئة الكبرى، فأتأمله محزوناً ثم أبتعد والسلطان يشدني من الخلف، لإنقاذه من تزويرات التاريخ المنتصر عليه!

لا أجد حلاً ضمن هذا الرعب المروري سوى أن أنام في فندق

من ذوات النجوم الثلاثة. أوقف سيارتي في الشارع، قريباً من الفندق، وأدخل فأستحم حماماً ساخناً لم أحلم به منذ عدة أيام، ثم أنام مثل القتيل، آه والله مثل القتيل!

في حوالى الساعة العاشرة صباحاً أفيق مضطراً لألحق إفطار الفندق المتضمن بأجرة المنام، فأفطر، ثم أحمل حقيبتي، وأغادر إلى سيارتي، التي أجدها تقف في مكانها، ولكن مربطيّ عجلتيها الأماميتين المخفيتين عن مرأى جماعة الفندق يمدان رقبتيهما مقطوعتين ومُحمّلتين على حجرين طوبين. أشاهد المستورة مهتوكة العرض، تكشف لي وهي بلا عجلتين أماميتين عن أحشاء مقدمتها الحديدية، وهي مخلّعة الأسنان الأمامية. أنفعل وأباطح وأروح وآتي لأفعل وأترك وأجيب وأودّي وأطلع وأنزل، ولكن ما باليد حيلة، وليس معي وقت للشكاوى في المحاكم، وحتى لو أن هناك محاكم، فلن يكون هناك محكومون، لأن الفاعل سيكون مجهولاً!

لا تحاول أن تنصحني وتبهدلني على هذه السرقة، وكأنك أبو العُرِّيف! أقول لك إنها أيام، الشكوى فيها لغير الله، مَذَلّة! ماذا تريدني أن أفعل؟ هل أنتحِر، أم أترك السيارة مكانها، وأعود إلى بلاد العُرب أوطاني دون سيارة؟ يا أخي الحكمة مطلوبة في مثل هذه المواقع! كان شعار رسولنا الدائم:

«لا تغضب» ولهذا سأهدىء من روعي ولن أغضب.

اضطر لشراء عجلتين مستعملتين من محل عجلات قريب من

المكان. ينفخهما الرجل المُشحّم بالسواد، ويُعيِّر ضغطيهما، ويُركِّبهما بأحسن ما يكون! من غُلبي، أضحك وأنا أشك في العجلاتي. «والله يا أخو الشر.. إنك قد تكون أحد مستقبلي بضاعة هؤلاء السارقين!».

تبدو فَلّة حكم رهيبة في هذه الأيام، واقتصاد متدهور، وكل ألف ليرة تركية تشتري لك قلم رصاص! وبسبب صدمتي بالسرقة، تُسدُّ نفسي فلا تعود لي رغبة في التجول في ربوع اسطنبول التي لم تعد جميلة في نظري! أحمل سيارتي على ظهري يا أبو الشباب، وأنطلق بها باتجاه جبال الأناضول.

وعلى الطريق الطويل المتلوي بين سهول وتلال المدى البعيد، خارج اسطنبول، يشير إليّ شرطي يقف أمام سيارة دوريات شرطة خارجية بالوقوف للتفتيش. ولكنهم كانوا قد أفهموني قبل سفري ألا أقف لسيارات الشرطة الرابضة كالذئاب على الطرق الخارجية، ذلك لأن حاميها حراميها! وبالفعل لا أتوقف للإشارات الآمرة بالتوقف من قبل الشرطي الذي يقف أمام السيارة، بل أواصل قيادتي السريعة وأنا أسمع زمامير سيارتهم خلفي «بها الذئب يعوي كالخليعِ المُعيّلِ»، موقناً أن سيارتي المرسيدس هي أقوى وأسرع من أن تلحق بها سيارة شرطة قديمة من تلك السيارات اللّابدة كالعنكبوت الذي ينتظر رزقه على حافة شبكته، هذا لو قرر اللحاق بي!

أقطع أكثر من ثلاثمائة كيلومتر بهذا الهروب الكبير، فأشاهد من بعيد دخاناً يتصاعد بين أغصان غابة كثيفة الأشجار، إلى جوار

الطريق الدولي؛ أقترب فإذ بعدد من سيارات المسافرين الجائعين المتعبين متوقّفة عند مشوى لحوم خراف، فأزرع سيارتي بينها، إذ وجدت الشاوي يذبحها أمام السائقين المفتوحة أنفسهم على رائحة الشواء، وبعد سلخها الذي يتم في عجالة سريعة، يشرح الذبيحة كلها إلى شريحتين طوليتين، فيسدلهما على شبك عريض، بينما حطب النار المقطوع من الغابة يشتعل تحتها، فتتصاعد منه ألسنة لهب منتهية بدخان أبيض مُزرقّ متكاثف بين أفرع أشجار الغابة.

أنزل أتمطى من تعب سواقة طويلة، وجوع مُدوِّخ. أرى معركة تشليخ لأفرع أشجار تُحرق، وتمزيق لخراف تُسطّح على شبك الحديد، رائحة شوائها تجذب كل الذئاب المارة من الطريق الرئيس، بخاصة الجوعى مثلي! المشهد كله عبارة عن عمليات تمزيق في تقطيع!

أقترب من تجمع التهام اللحوم المشوية، غير بعيد عن رجُل يقطع اللحم الناضج على النار بنشاط وهِمّة، ويقدمه للزبائن الجالسين وهم يترقبون الفرج، كل حسب طلبه، وامرأة جالسة بثوبها الأسود إلى جانب الشوّاء، تخبز فوق صاجها الصفيحي المتوهج جمره، فأتغدى بخبزها الذي يلسع اليدين بحرارته الملتهبة لحوماً شهية لم أذقها منذ شرائح لحم ذلك الخنزير المجلل بالدهن في ترير، والذي سد نفسي عن أكل اللحوم!

الطريق صعوداً باتجاه قمم الأناضول وقت غروب، والشمس تنزل من عليائها رويداً رويداً، لتحتمي بأغصان الأشجار المتكاثفة

بعتمتها، فتضيء لها عشاً بين الغابات المتشابكة في السماء، والشارع الرئيس الذي يَسيح الزفت فوقه لشدة الحر، أو لكثرة ضغوطات عجلات الشاحنات المتلاحقة المتراصة بحمولاتها الثقيلة، يجعل عجلاتها المثقلة تنسلخ انسلاخاً عن الزفت السائح فوق الشارع الضيق بمسرب واحد، ولا تتوقف عن الالتصاق ببعضها بعضاً، بينما سيارتي تسير ببطء شديد، خلف الشاحنات التي تنوء بأحمالها وهي تسير الهوينا، ومؤخراتها تنفث الدخان في وجوه السيارات الصغيرة المخنوقة خلفها.

تغمض عيناي الناعستان فأحاول أن أتوقف، لأغفو وأستريح قليلاً خارج مسرب الطريق الواحد، بعد أن أهلكني تبديل غيارات سرعة السيارة، التي لا تتعدى الغيار الأول ثم مكبح، أول، مكبح، أول، مكبح! متُّ وأنا أُغيِّر وأبدل! فلأرتح قليلاً بعد كل هذه المطاردات التي أهلكتني من حدود أدرنة، فتجعلني أنام وسط دخان السيارات!

أتوقف جهة يمين الشارع، لعل وعسى أن تخف حركة الشاحنات، لأعاود مواصلة سيري بسرعة أكبر.

وبعد استرخاء لوقت قصير أغفو خلاله حوالى خمس دقائق، أصحو كي لا تغرب الشمس فتعتم الدنيا عليّ وحيداً في هذه الغابة الموحشة. أعود فأنقر مفتاح المحرك، فلا يشتغل المحرك..إه!

أعيد النقر عدة مرات، فيستعصي المحترم على العمل. أنتظر قليلاً ثم أعاود المحاولة فأفشل في ذلك فشلاً ذريعاً. أنظر من حولي

فأشاهد ثلاثة بيوت متباعدة داخل الغابة، فأشعر أن المنطقة مخيفة، وأن الشمس بدأت تُسجى لتستقر في ضريحها الذي حفرته الغابةُ لها هناك! يسودُّ مزاجي وأنا أرى هذه الجنازة السماوية الحمراء المحاطة بغيوم دكناء حزينة، تنزل من عليائها بصمت مرعب، فتُسوِّد الدنيا في وجهي، وتخم على قلبي!

وفجأة تقفز إلى ذاكرتي أحداث غامضة كان قد حكاها لي أحد تجار السيارات الألمانية الذين يمرون كثيراً من هذه الطرق الدولية التي لا تعرف الدول، والتي تعرّض لها شاب من الزرقاء يدعى **سرحان الظامي**، الذي سافر إلى ألمانيا هو وزوجته **منارة** في رحلة سياحية، والتي أصرت على الذهاب معه، ورِجلُها على رجلِه، شقراء جميلة يا حبيبي، وقوية الشكيمة، ووجهها يشع نضارة وحيوية، وعيناها فيهما بريق لامع، وحركتها مثل مهرة جامحة، لدرجة أن أياً من أهله وذويه لا يستطيع أن يتنفس في وجهها، أو أن يقول لها:«بمّ!» وهناك اشتريا سيارة وعادا بها في رحلة مغامرة مخيفة مثلي، فوصلا بها إلى هذه الجبال الأناضولية، ولكن يبدو أنهما قد ضلا الطريق، «لا أدخلك الله في ضلال!» إذ دخلا بالخطأ شارعاً فرعياً، لم يؤدِّ بهما إلى صواب الطريق الرئيس.

لا أفهم لماذا قبل المتعوس سرحان القيام بتلك المغامرة الزوجية، وهو شاب محافظ، ولا يملك مؤهلات الفرسان، أو المقاتلين الأشداء، وكان (جرودياً)[1]، وطرطوراً أمام زوجته التي عندما احتدّت الخناقات

---

(1) الجرودي: الذي لا ينبت في وجهه شعر.

ذات يوم في محيط عائلة زوجها المركبة، ارتفع صوتها، وشخطت ونخطت، ولم تخجل إذ انفجرت فكشفت لهم عن فخذيها الزهريين الشقراوين، وقالت لهم: «يا سود يا مشحبرين، لو كان عندكم مثل هذا الشقار وهذه الأفخاذ المربربة، ساعتها ارفعوا أصواتكم ولعلعوا كما يحلو لكم، أما وأنتم على هذا الحال المائل، ووجه كل واحدة من نسوانكم مثل محماسة القهوة، فسكوتكم يكون أفضل!».

ذهلت النساء وهن مُفنجنات عيونهن في هذا الفجور، وطبعاً راحَ كل واحد من الإخوة يستر نفسه، فيُصغِّر عينيه بحجم بعر الماعز، وهو يدير وجهه برَّه وبعيد، كي لا يرى هذه النِعم التي لا يراها في جسد أنثاه المشحبرة! وأما هنا في جبال الأناضول، فكما يقولون:

«جاءك الموت يا تارك الصلاة!» مختصر الحديث أن السائح المغامر **سرحان الظامي** أُوقِف فجأة بسيارته مع زوجته «الشمراخ» منارة أمام مقص يحرسه ثلاثة شباب غلاظ شِداد، لا تُعرف هُويتهم، بينما هي تسب زوجها، وتلعنه بصوت يعلو فوق السيارة المفتوحة من السقف(فل أوبشن)، لأنه تاه الطريق، بينما هو يدلدل أذنيه مثل السخل، ويصمت صمت القبور، لأسباب كثيرة لا وقت لتفسيرها، ولكن عُتاةَ مقص الشارع كانوا يَبدون بأذرعتهم الملتفّة، وصدورهم المنتفخة، مقطوعين من جذوع الغابة الخشنة، أشداء على الغرباء، متحالفين بينهم.

وبعد سؤالين، ثلاثة، بلغة تركية لا يفهم لهجتها حتى أصحاب

إسطنبول ذوات أنفسهم، وعدم جواب من قبل زوج الفرس الصهيلة، سحبوه من السيارة يا حبيبي، فأنزلوه وأخذوه إلى مكان قريب، حيث ربطوه على شجرة، ثم مد أحد العُصاة يده إلى مقعد السيارة الأمامي، فسحب زوجته الريّانة، والتي تبحلق برعب في مربط زوجها المغدور، وأعادها بيديه القويتين، فزرعها في منتصف المقعد الخلفي، فالتفّت الشقراء على جسدها بصمت مثل حلزونة، وتجمّعت واضعة ذراعيها الزهريتين حول رأسها، وأصابع يديها تحمي خدّيها، وذلك للدفاع عن نفسها. لم تعد متمردة وذلك خوفاً على حياتها، وجلس الاثنان إلى جانبيها الأيمن والأيسر، ليحرساها من العين، بينما قاد أحدهم السيارة إلى مكان مجهول، لم يعد يراه الزوج المربوط إلى الشجرة. وتخيل نفسك مصلوباً على هذه الشجرة يا حبيبي، وقلبك يخابط!

بعد ثلاث ساعات من الغياب، عادت السيارة بالزوجة وقُطّاع الطريق، الذين فكوا المربوط بكل لطف، وسمحوا له بالعودة إلى سيارته وزوجته، وكانوا هذه المرّة رحماء بهما، إذ دلوهما على الطريق الصحيح الذي يتوجب عليهما أن يسلكاه، حتى لا يتوهان بعد تلك المتاهة المذلة الكافرة!

طبعاً لم يسأل سرحان الظامي عن سلامتها، ولا عمّا حصل معها في هذه الغيبة الضروس، ولم يسأل حتى عما اقتنصه قُطّاع الطريق من الأغراض والهدايا التي كان السائح المطواع وزوجته قد اشترياها من ألمانيا، ووضعاها في الحقيبة الخلفية للسيارة. المهم أنهما قد عادا إلى بلدهما صامتين، وبقيا عائشين معاً محافظين على ذلك السر المُعذِّب!

لا أعرف لماذا تغوص مخيلتي في ذلك التوهان المرعب وأنا أحاول تكرار نقر شرارة المحرك، ولكن بلا فائدة، فأقول لنفسي:

«لو غابت الشمس هنا، فسوف يأكلني أهل بيوت الغابة هؤلاء»! أقوم فأفتح غطاء المحرك، لعلي أفهم شيئاً من هذه الأجهزة التي يستعصي عليّ فهمها، فلا أفهم منها شيئاً.. أقول لنفسي: «لا بالله نمنا هنا هذه الليلة! وقد لا أنام هنا، ذلك لأن أهل الغابة قد يسرقون سيارتي، ويرمونني في قاع الغابة للوحوش!».

وكما قلت سابقاً إنني عندما أكون في أشد المواقف توتراً، تقفز إلى مخيلتي أكثر الحكايات سخرية، لتستبدل خوفي بالضحك.. هذه اللوثة التي تعتريني تستدعي لذاكرتي هذه المَرّة حكاية ذلك الرجل الذي قال لجلسائه:

«... إنما يا جماعة، كنت ذات يوم أسير في البرية، فتهت وسط أدغال غابة سدت عليّ كل المنافذ والممرات، وإذ بأسد مرعب يقابلني وجهاً لوجه، ويفتح فكيه على اتساعهما قائلاً: «تعال إليّ، فإما أن آكلك، وإما أن أفعل فيك!» وهنا صمت المتحدث! فقال له أحد جلسائه:

«ها! وبَعدين؟ ماذا حصل معك؟» فقال المتحدث، وهو يتنهد بعمق: «إيه! الحمد لله! ها نحن عائشون!».

أقف حائراً متخبطاً بمعرفتي بهذه الأجهزة الصماء داخل المحرك الذي فتحتُ شدقه الكبير إلى الأعلى، وأخذت أُجرب ما لا أفهم فيه.. بعد دقائق من المحاولات البائسة، يقترب مني رجل من أهل البيوت

المتناثرة، فيلقى عليّ السلام، ثم يسألني بلغته التي لا أفهمها مستفسراً عن مشكلتي، فأقول له بالإشارة:

«لا شيء! لا توجد مشكلة!» ينظر الرجل إليّ، فيشعر أنني مرتبك، وقاصر عن تصليح سيارتي، فيقول لي:

«هل لديك مفك؟» والحديث لا يزال بالإشارة، فأقول بجفاء وأنا أدير ظهري: «لا!».

«هل لديك بلاتين سيارة؟» فأقول بتجاهل: «لا!».

ينظر الرجل الكبير إليّ، ويقول: «إذن ادفعها معي إلى أسفل، إلى مكان قريب من البيت!» فأقول وأنا بارخٌ، كما تبرخ الدجاجة عند مقدم الديك المستنفر باتجاهها: «لا داعي لذلك!» فيدفعني الرجل الكبير بلطف متجاهلاً تجاهلي، ومتقدماً نحو محرك السيارة، وهو يقول:

«إذن ابتعد عنها لأرى كيف أستطيع تشغيلها..!» لا أجرؤ أن أقول له: «كيف أبتعد عنها، وهي كل رأسمالي، وعمري مرتبط بها؟».

ينادي الرجل بأعلى صوته، وما هي سوى لحظات حتى يأتينا شابان مفتولا العضلات، من جيلي، ولكنهما أقصر مني وأسمن قليلاً، فيقفا في الخدمة، فلا أملك إلا أن أستسلم لقضاء الله وقدره، وأبتعد عن موقع الحدث العظيم، الذي سينفجر في مُخّي عما قريب!

ومع كل هذا الاحتلال، أجدني أراقب بطرف عيني ما يفعلون، إذ يأمرهما الرجل الذي فهمت فيما بعد أنه أبوهما، قائلاً:

«ادفعا السيارة إلى أسفل!» فيدفعانها، فإذا بها مثل الماء، تجري معهما إلى أسفل.

أرتعب من هذه الورطة التي بدأت تلتف كالأفعى حول عنقي! وبسرعة يفك أحدُ الشابين شيئاً فهمت لاحقاً أنه بلاتين السيارة، ويمسحه بورقة صنفرة، ثم يعيد تركيبه، ويقول لي بالإشارة:

«انقر مفتاح سيارتك» فأنقر، فتشتغل القحبة! يتركنا الشابان وبغيبان عنا، بينما تأتي امرأة كبيرة السن، أفهم لاحقاً أنها زوجة الرجل الذي يقول لي بعد نجاح مهمتهم:

«ها هي قد اشتغلت! اذهب إلى بلادك! مع السلامة!».

لا أصدق نفسي في هذا الشعور المُدَوِّخ! أذهل لهذا الكرم الذي تخيلته فخاً لقنصي واصطيادي فريسة سهلة، فإذ به كرمٌ تركيٌّ إنسانيٌّ مذهل! ماذا أفعل؟ وكيف أعبر لهم عن شكري وامتناني؟

يقف الأب والأم إلى جواري، وأنا جالس مُستسلم خلف مقود السيارة، فأمد يدي إلى جيبي الداخلية، وأخرج ما فيها من نقود وعملات كنت قد غيرتها بعملات أخرى على الطريق..أفتح يدي، وأقول للرجل: «خذ ما تريد من هذه النقود، أو خذها كلها!» فترفض المرأة عرضي بلغة عربية وبالفم الملآن بلهجتها التركية:

«عيبات! هذا عيبات! ليرات عيبات!».

أفهم منها أن تقديم النقود لهم هو عيب، فما فعلوه لي لا يتعدى كونه مساعدة إنسانية! ولإتمام كرمه، يدعوني زوجها لأنْ أتعشى معهم تعبيراً عن الضيافة، فأشكرهم وأنا «عرقي مرقي!» كما يقولون، ثم أفتش في جيب سيارتي، فأجد مصباحاً كهربائياً يدوياً كبيراً كنت قد اشتريته

ليضيء لي عتمة المكان إذا احتجته في ليالي الطريق، فأقدمه لهم هدية قد تنفعهم في هذه الغابة التي قد تنام دون كهرباء، فتقبله السيدة بخجل، وهي تقول: «نقبله كذكرى، ولولا ذلك ما أخذناه».

أحرك سيارتي وأمضي أقودها بمخ مهلهل، وعقل مدووش باتجاه وطني العربي الكبير، باتجاه **باب الهوى** السوري، الذي اشتقت إليه كثيراً، موقناً أن لا راحة لي إلا في وطني الحبيب، وكما يقولون: «لا مكان مثل البيت» أو «لا مكان مثل الوطن».

على باب الهوى!

«على باب الهوى دقِّيت! وفتح لي الهوى مرِّيت!».

أجدني أُغني وأنا أنتهي من بلاد الغربة الأوروبية التركية، وأقترب بسيارتي من نقطة حدود «باب الهوى» العربية السورية، التي كم أنا مشتاق للوصول إليها، ولتقبيل أرضها العربية التي أنبتتني عليها، فانتميت إليها! أمط جسدي من شباك سيارتي للوصول إلى حدود «باب الهوى» فأدخل إلى أرضنا العربية. أحاول أن أرمي نفسي من الشباك لأركع وأُقبِّل أرضي العربية. أقضي الوقت بالغناء:

«ومن الشباك، لارميلك حالي، يا عيني...

من كثر خوفي عليك ما بنام!».

الثواني تتحول إلى ساعات وأنا أنتظر الوصول إليها بفارغ الصبر..وبعد مليون ساعة من الزمن الممطوط، أصل إلى الحدود. أوقف سيارتي فرحاً بين السيارات الداخلة، وبقفزات سريعة هنا وهناك أتابع معاملتها؛ من تعبئة عدة نماذج، وشراء دفتر سيارة أحمر يسمى «تربتكت»، ودفتر سيارة أبيض للتوقيعات، وأضع الطوابع المطلوبة، هكذا جاءت الطوابع مائلة على النموذج..الشرطي يعمل لي مشكلة

للسماء... «لك كيف بتحط الطابع مايل هيك؟ لك هادا لازم يكون قائم، مش مايل! لك هذه راح تعمل لنا مصيبة!» يأمرني بأن أتصور وأن أضع صورة هنا. أبحث عن المصور فأجده يُحضِّر أدواته لحلاقة ذقنه. يجحظني بعينيه أن أنتظر! أنتظره مرغماً، إلى أن ينتهي من جردها، ومسح الرغوة عنها بمنشفة مخططة معلقة على ظهره، فيلتفت إليّ ويقوم متمطِّياً وهو يتثنى بذراعيه، ثم يصورني مستخدماً هذا الثوب الأسود الذي يُدخل يده ورأسه ونصف جسده في سواده، فيبدو ظهره مثل ظهر النساء المنقبات بستائر سوادهن ويقول: «يا كريم»، فيُخرج لك الثوب الأسود «بقدرة قادر» صوراً مما تشتهي الأنفس!

ألصق «شبح صورتي» التي لم أتعرف عليها لشدة تشويهها لشكلي، في المربع المطلوب، وأدفع الرسوم المطلوبة حسب الأصول، وبعد كل هذا التعب والمعاناة، لا يبقى عليّ إلا أن أختم جواز سفري وأخرج بسرعة لأدخل الشام العريقة، فعمّان الحبيبة برمشة عين، وهكذا تنتهي مغامرة رحلتي الأوروآسيوية بسلام!

وعلى الحاجز الأمامي لقاعة القادمين، أعبىء ورقة معلوماتي وأضعها في جواز سفري، وأسلمها، ثم أجلس أنتظر بعض الوقت الذي يطول مداه..أستغرب التأخير، فأراقب المسافرين الذين يأتون، فيضع كل منهم عشر ليرات رشوة داخل جوازه مع ورقة المعلومات، فيختمها موظف الأمن، ويعيد الجواز إلى صاحبه بكل احترام، ومع السلامة!

أشعر أنني من لخمة السفر قد أخطأت، إذ أنني لم أضع رأسي بين هذه الرؤوس، أقصد عشر ورقاتي بين هذه الأوراق، وأرتاح من هم الانتظار والإحراج. قد يكون هذا هو السبب!

أجلس نصف ساعة أخرى أنتظر..روح، فلتكن ساعة! الجواز، وآخرته سيعود! أحاول أن أستعين بأبي الصبر؛ أيوب، فيروغ مني أيوب ولا ينفعني في هذه المواقع. أنتبه إلى أن أيوب قد مات وشبع موتاً هنا بسبب صبره. أملُّ الانتظار الطويل. أعود للأمني الجالس يختم الجوازات ويتحدث مع رفيقه بهدوء وهو يدخن، فأقول له:

«يا أخي منذ ساعة أعطيتك جواز سفري، ولم يعد بعد!» فينهرني الضابط باستفساراته:

«انت شو اسمك؟»، «من أي بلد جنابك؟»، «أي، انتظر لك شوي، بيجيك!».

أعود فأنتظر، ساعة أخرى، حتى لم يبق سائق في قاعة جوازات الحدود إلا ودفع (الخاوة)، فختم جوازه ومضى منذ زمن!

أجلس ألوم نفسي على غلطتي التي ارتكبتها لعدم معرفتي بأصول الدخول، وذلك بضرورة وضع ورقات عشر في الجواز تدفع عنك البلاء، وتمنع عنك النكد، وتحميك من الحسد، ومن عين ما تصلي على النبي!

أمشي في القاعة ذهاباً وإياباً، لأحرك رجليّ المعقّدتين لطول الجلوس خلف المقود من بلاد أوروبا. وبعد اختناقي من التأخير،

أنطلق نحو ضابط الأمن، كالزمبرك المعدني المنفلت، وأقول له بصوت عال:

«يا أخي، إما أن تعيد لي جواز سفري مختوماً بالموافقة على المرور إلى بلادي، وإما تختمه بالرفض!» يشاهدني محتداً، فيقول لي ببرود وكأس الشاي بيده اليسرى، والسيجارة باليد اليمنى:

«في شوية معلومات ناقصة عنك، بيدققوها! إيه، انتظر لك شوي، بيجيك!».

«ما هي المعلومات الناقصة التي تريدها مني؟ هل ستختم جوازي، أم تمنعني من المرور، فأعود إلى أوروبا؟»

لا يجيبني الضابط!

يا أخي تجاهلَني، وبقي صامتاً ينظر إلى جوازات الناس الواقفين!

وفجأة يخرج عليّ رجل من خلف الحاجز الأمني، ولكن بملابس مدنية طبعاً، فيقترب مني وكأنه يعرفني حق المعرفة، ويديرني من كتفي بلطف وكأنه صديق يلف ذراعه على كتف محبوبته، ويتجه معي إلى جانب القاعة، ويقول لي متعاطفاً بكل براءة وبرود:

«أخي، هدول جماعتك بصراحة مو مصليين على النبي! باين عليهم حاطين روسهم بالحيط! إذا بدك تاخذ جوازك، ادفع لي عشرين ليرة، وأنا أجيب لك الجواز!».

أستغرب طلبه الذي لم أستجب له طبعاً، ليس لأن الرُّشى حرام، ولكن لأن التأخير قد تم وانتهى، وهل من تأخير بعد كل هذا؟ ثم إن

المارة يدفعون عشر ليرات فقط رشوة، فكيف أرشو بعشرين ليرة؟ ثِق أنني لن أدفع له ما دمت قد دفعت كل الرسوم القانونية المفروضة!

يشاهدني الوسيط أتجاهله، وأقف صامتاً بحقد، فيقول لي وهو يبتعد ملتفتاً برأسه نحوي: «إي شو أعمل لك؟ بعد هيك، ذنبك على جنبك!».

أجلس أنتظر مهزوماً وأنا أحدث نفسي المهزومة بغيظ:

«ترى لماذا يقبضون هذه الرُّشى على باب الهوى، وعلى كل باب هوى أمني؟ وهل تقبل الدولة أن يكون وجهها مرتشياً؟ وهل الأمني المرتشي يعرف أن الراشي والمرتشي في النار؟ وهل الأمني الذي يقبض لجيبه الخاص، يبقى أميناً على سياج هذا الوطن؟ ألا تعرف الدولة أن هذا الأمني الذي يقف على وجه الحدود هو واجهة الوطن وسياجه، وأنه إذا باع ضميره بالرُّشى الصغيرة، فإنه لن يتردد في بيع وطنه كله بالرشى الأكبر؟ وهل من يقبض عشر ليراتك فيُدخلك، لا يقبض ألف ليرة، فيُدخل لغيرك الممنوعات، وقد يقبض مليارات الليرات، فيدخل إلى بلدك أشياء مذهلة لا يعرفها إلا الله..؟».

أشعر برعب كبير وأنا أتخيل هذا «الأمني المرتشي» يعمل ضد «الأمن الوطني» وأن هذه الرُّشى تسمح بتهريب الممنوعات، كل الممنوعات، وبخاصة الأسلحة، التي ستصل إلى أيدي الناقمين على هذا الفساد، وقد تسمح بإدخال الإرهابيين الأجانب، الخارجين على القانون، فتجدهم ينقضُّون على البلاد والعباد، ليضعوا لهم موطىء قدم في قلب الوطن العربي، وقد يصل السلاح إلى أيدي المعارضين لهذا

الوضع، الذي يُجبر كل تاجر، وحتى من يريد فتح محل فلافل، على أن يدفع رشوة عظمى لمن سيعطيه تصريحاً بالعمل، وإلى الحاقدين على احتكار وكالات الشركات الكبرى، لتبقى حصرياً للمقربين، فتباع بأسعار غير خاضعة للمنافسة، إلى أن يُنظِّم المظلومون أنفسهم، فيُصدِّرون البيان رقم واحد بالثورة، التي ستزلزل نظام الحكم، وقد تدمر في طريق زلزالها حضارة البلد وبنيتها التحتية والفوقية كلها! لماذا لا تعرف الدولة أن الرُّشى هي السبب في تدمير ذاتها!

أفيق من تخيلاتي بعد توهان طويل، فأعود أصرخ في وجه الموظف الأمني، مطالباً بحل قضية هذا الجواز المستعصي! لا يجيبني الأمني كما سبق، ولكنني أشعر أنني سأواجَه بأمر جلل هذه المرّة!

هل تتخيّل أنهم سيضربونني أم سيُعنِّفونني؟ أبداً والله! إنهم أهدأ مني بكثير، لالتقاط فتات عيشهم، إذ يتقدم الضابط الذي يقف خلف الحاجز المكتبي نحوي، فيبلغني خبراً صادماً لم أتوقعه قطّ. يقول بصوت خفيض وهو يجحظني بشاربيه المتلمظين، وهو يشير بقلمه إلى الخلف، لأذهب إلى الجناح الآخر: «جنابك مطلوب للمخابرات!».

لماذا هذا التفخيم الملغوم بـ«جنابك»؟ لم يتوقع جنابي (اللي بيوجعني) هذه النهاية، ولكنني أتغالظ متجاوزاً حد السكين، إذ أقول للضابط بصوت مرتفع: «مخابرات، مخابرات!».

تمرُّ عليّ لحظات أجهِّز فيها نفسي للبهدلة والإهانة..كان زميلنا «**جعارة**» الشقي في المدرسة الابتدائية، يقول لنا إن دَهنَ أَكُفِّنا بدم

الحراذين يُخدِّرها، فيقينا من وجع ضربات عصا المعلم، فلا نُجَعِّر، ولهذا سميناه «**جعارة**». ولكن هل توجد دماء حراذين تدهن جسدي كله، يا «**جعارة**»، فلا أتألم في معتقلاتهم؟

كل القصة وما فيها، مسألة (الخاوة) التي لم تدفع! ماذا تقول؟ حيونة! وإلا، لو انتبهت يا جحش لهذا الخطأ الفاحش، لكنت قد رشوت، وحشوت جوازك بالمعلوم، فلن تضطر للدخول إلى هذا الجحر الأمني الذي لا قرار له.

كنا نقرأها هكذا: «الراشي والمرتشي في النار!» قد تكون تلك النار المؤجلة أرحم من هذه المعجلة، وقد تكون تلك المؤجلة كالمَهر المؤجل، غير مؤكدة الدفع! كان جارنا أبو اشتيوي الله يجازيه يقول: «النار تعبير مجازي لا يتم تنفيذه، ذلك لأن الله غفور رحيم!».

كنا نستغرب قوله غير المقبول طبعاً، ولكن النار هنا مؤكدة التنفيذ! ما هذه الورطة التي وقعت فيها؟ انت تستاهل! لماذا لم تدفع بالتي هي أحسن..؟

أدخل إلى غرفة مَخْفِيّة خلف الحاجز، وهنا أقف أمام ضابط أمني يجلس وهو يدخن ويتحدث بهدوء مع زميله، وكأن قضية الليرات العشر التي طربقت الدنيا، وقلبت حدود باب الهوى، لا تؤثر فيه أبداً، وكأنه يقول لي: «على كندرتي، أنت، وليراتك العشر»، فيلتفتُ إليّ بطرف عينيه وكأنه يعرف قصتي؛ (من طقطق، لسلام عليكو). ومن دون أن يسألني شيئاً، يحوّلني بالإشارة إلى محقق هناك!

أقف مستسلماً أمام شاب يجلس خلف مكتبه بملابس مدنية، فيواجهني بالأسئلة السابقة نفسها، ويحقق معي عدة دقائق؛

اسمك؟

من أي بلد أنت؟

من أي قرية أنت؟

كم عدد إخوانك؟

كم عدد أخواتك؟

كم عدد أهلك؟ اذكر لي أسماءهم فرداً فرداً.

هل الوالد والوالدة أحياء يرزقون، أم...؟ هل تسكن معهم، أم...؟

ما هي دراستك؟ في أي جامعة درست؟

هل تعمل مع الدولة، أم في القطّاع الخاص؟

هل سبق لك أن سُجنت بقضية ما؟

من أي بلاد أجنبية أتيت؟

ما هي علاقتك بألمانيا؟ هل معك عناوين لأناس في ألمانيا؟

ما هو نوع سيارتك؟ وما هي سنة الصنع؟

هل تحمل أية مواد ممنوعة، مخدرات، أسلحة، منشورات مطبوعات؟

من أي حزب أنت؟ من أي تنظيم أنت؟

يا عمّي أنا ليس لي أحزاب ولا تنظيمات. لم أقل له طبعاً إن الأحزاب العربية كلها...! لم تستفد شيئاً مني، وبالفعل فلقد كنت صادقاً معه.

يقوم فيخرج معي إلى سيارتي في ساحة الجمارك..(العمى! كل هذا على شان عشر ليرات؟) ينظر يميناً ويساراً، ويتلفت نحوي باستهبال، لعله يقبض في الطريق عشرين ليرة على انفراد، ويفوز بالخاوة، التي لا يتمرد عليها لابِسُ لباسٍ في كل الحدود، ولكنها سكَّرَت معي هذه المرّة، (تنَّحتُ) كما يُتنِّح الحمار الحرون. إه! هذا ما حصل!

وبعد حوار وأخذ ورَدّ مع موظف الجمارك، راحا يفتّشان معاً كُلّ ما في السيارة من أمتعة، فلا يجدان معي شيئاً، سوى حافظة بلاستيكية كنت قد كتبت على غلافها «صور ألمانية» فكانت هذه الصور هي المشجب الذي يعلقون عليه مبرر اعتقالي، بل يعلقون جسدي كله عليه! يقول لي المحقق وهو يُقلِّب صفحاتها:

«ما هذه الصورة؟

وأين التقطت هذه الصورة؟

ومن هؤلاء الذين يقفون معك في هذه الصورة؟

هل تتعامل مع جواسيس في ألمانيا؟

من هذه الجميلة الشقراء التي تجلس إلى جوارك في هذه الصورة؟

ومن هذا الشاب الأوروبي الذي يتحدث معك في هذه الصورة؟

ومِن، إلى، عن، على، في، الباء، الكاف، اللام؟» يُقلِّب كل الصور، وهو يسألني عن مناسبة كل صورة، وأنا أجيبه باختصار.. يتعب المحقق من تقليب الصور فيقول لي:

«سنعطيك دفتراً وقلماً لتكتب عليه قصص صورك هذه كلها، وتفاصيل سفرياتك المشبوهة كاملة، بخاصة أثناء تجوالك في بلاد ألمانيا، ونحن نحذرك من أن تخبىء عنا شيئاً، حتى غرامياتك ومجونك الذي يظهر جلياً في بعض الصور».

يضع لي أحدهم كرسياً خيزرانياً قديماً، إحدى أرجله تُقلقِل لقصرها عن الأخريات، وقاعدته شبك بوص مهترىء، أمام طاولة خشبية صغيرة بُنِّية مُشخّطة مربعة، في زاوية انفرادية ملاصقة لمكتب المخابرات، ثم يأمرني بالجلوس والكتابة، فأجلس وأكتب قصة كل صورة، ومناسبة تصويرها.. وبعد مضي وقت من الكتابة، أنسى نفسي، فأشعر أنني أنسجم مستمتعاً باستعادة ذكرياتي، وأن قريحتي تنفتح لكتابة القصص، ولكن تحت إرهاب الحدود!

بعد ساعتين أنتهي من الكتابة، وأعطيه المخطوط، فيأخذ مذكراتي المضحكة المبكية، ويطّلع عليها من دون قراءة متمعنة، ثم يتجاهلني منقوعاً في زاويتي الانفرادية، لأبقى منتظراً ما سيصدر بعدها من قرارات أمنية، ولكنه يعود بعد ساعة إضافية فيفرج عني، ويعيدني إلى حضرة الضابط، الذي ينظر إليّ بغُلب، وقد نفد لديه صبر أيوب على هذه الليرات العشر، فيقول لمساعده: «ولك يا أخي إرمِ له هالجواز، خليه ينقلع ويحِلّ عنا!».

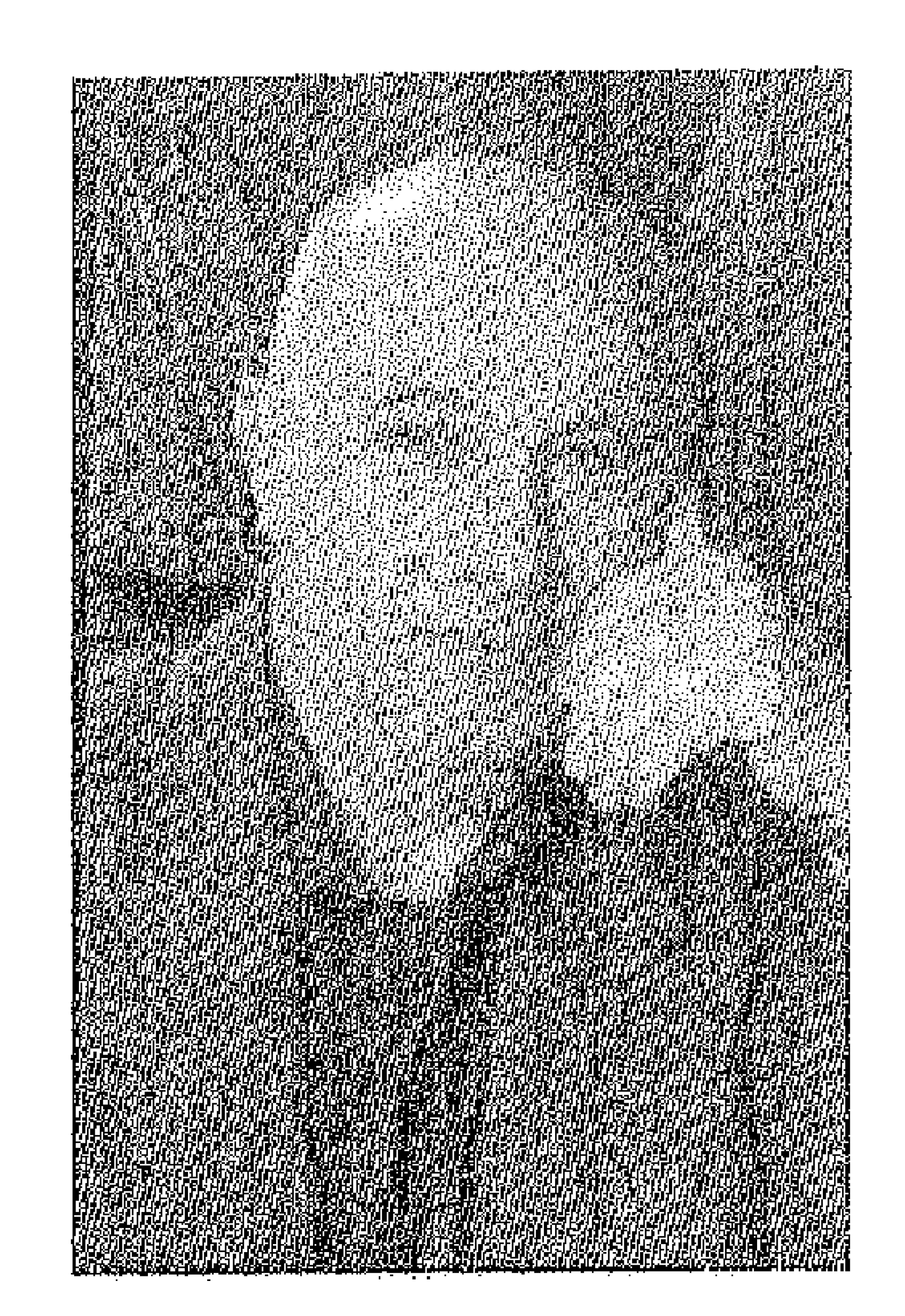
يرمى المحقق الجواز في عيني، ويقول لي:

«إي أخي، آسفين! مجرد تشابه أسماء!».

أتلقف جوازي الطائر وأنا أزيح عيني عن أوراقه المرفرفة وزاويته الحادة، ثم أخرج من (باب الهوى) «مُسوَدّ الوجه»!

هو الوجه في الحقيقة لا يسودُّ، ولكنك تخرج من هذه الدوامة وأنت (منعمي ضوّك) لا ترى ما هو أمامك، ولا من هم حولك، وكأن الدنيا سوداء مظلمة في وجهك، فيقولون خطأً: «مُسوَدّ الوجه!».

(تمت الرواية)



صبحي فحماوي- سيرة ذاتية

ـ عضو رابطة الكتاب الأردنيين، واتحاد كتاب مصر، ونادي القصة المصري، واتحاد الكتاب العرب في سوريا، والقلم الأردني الدولي، ورئيس لجنة الثقافة والفنون في منتدى الرواد الكبار، وعضو الجمعية الأمريكية لمهندسي الحدائق. مؤسس (مجلة الرواية) وهي إلكترونية.

ـ كاتب عمود بعنوان (ورقة) في جريدة «أخبار الأدب» المصرية.

ـ **له ثمان روايات هي:**

1 ـ (**عذبة**) دار الفارابي، بيروت 2005. طبعة ثالثة (كتاب الجيب) مجلة الموقف الأدبي.

2 ـ (**الحب في زمن العولمة**) روايات الهلال- القاهرة- طبعة أولى 2006، والطبعة الثانية صدرت عن دار الفارابي، بيروت 2008. (ترجمت إلى اللغة الإسبانية).

3 ـ (**حرمتان ومحرم**) روايات الهلال، القاهرة، 2007. طبعة ثانية-دار الفارابي، 2010.

- وكتب عنها عدد كبير من النقاد العرب ورويترز للأنباء.

4- (قصة عشق كنعانية) دار الفارابي، بيروت 2009.

5- (الإسكندرية **2050**) دار الفارابي، بيروت 2009.

6- (الأرملة السوداء)- روايات الهلال- 2011.

7- (سروال بلقيس) قبل الطبع.

- حصل الباحث صهيب الصمادي على شهادة ماجستير من جامعة آل البيت- 2012، لدراسته بعنوان: «التجربة الروائية لصبحي فحماوي».

- له خمس مجموعات قصص هي:

1 - (موسم الحصاد) دار الكرمل-عمان 1987.

2- (رجل غير قابل للتعقيد) المكتبة الوطنية-عمان 1997.

3- (صبايا في العشرينات) مدبولي الصغير، القاهرة 2006.

4- (الرجل المومياء) دار الفارابي، بيروت 2006 .

مثّل الفنان السوري ياسر العظمة بعض قصصها في لوحات (مرايا).

5- (فلفل حار) دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2012.

الكتب النقدية العربية الصادرة عن كتابات صبحي فحماوي:

1- كتاب أ. د. محمد حسن عبد المحسن- رئيس الأدب الحديث والدراسات العليا في جامعة حلب- بعنوان: (البنية السردية في رواية صبحي فحماوي «حرمتان ومحرم»).

2- كتاب الدكتورة سوسن البياتي من جامعة تكريت، بعنوان: (قراءة جمالية في قصص صبحي فحماوي)

3 ـ كتاب أسعد سعدون حيدر:(الفضاء القصصي عند صبحي فحماوي).

وذلك بعد أن حصل على رسالة ماجستير في دراسة قصصه.

4 ـ كتب الدكتور نبهان حسون السعدون كتاباً بعنوان: «شعرية الفضاء السرديّ - قراءة في رواية (الأرملة السوداء)» لصبحي فحماوي.

5ـ كتاب الدكتور إبراهيم الحمد (جامعة تكريت) بعنوان: (قضايا الفن الروائي عند صبحي فحماوي) وذلك بعد أن حصل على درجة دكتوراه في أعماله الروائية، في 2012، وكانت نتيجته الامتياز.

ـ شارك(بدراسة) في ملتقى الرواية العربية في القاهرة، 2010.

ـ شارك في تكريم أ. د. عبد اللطيف أبو هيف في إدلب- سوريا.

ـ شارك في مهرجان عبد السلام العجيلي الروائي - في الرقّة.

ـ عضو اللجنة التحضيرية لمؤتمر جامعة جرش الثقافي السنوي.

ـ حصل على الجائزة الأولى في التأليف المسرحي في جامعة الإسكندرية.

ـ له سبع مسرحيات، ومشاهد مسرحية، هي:

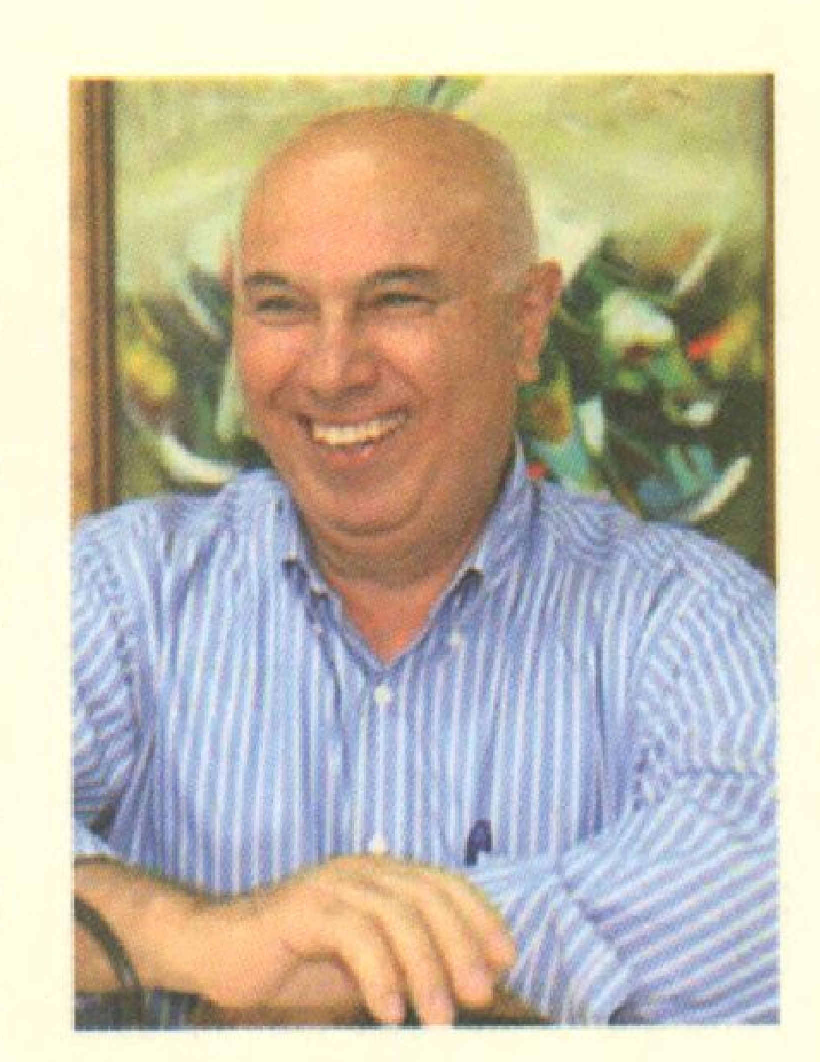
1ـ حاتم الطائي المومياء! 2ـ شخصيات مستنسخة!

3ـ في انتظار النور الأخضر! 4ـ ليلة الافتتاح

5 - نفقات منزلية! 6 - مش عيشة هذه!

7 - الجوع!

المحتويات



هذا الفرح تشعرني به زميلتي الصبيّة البرتغالية باتريشيا! قد يكون دمها العربي الأندلسي الأسمر الحامي، المشوب ببشرة قشتالية زهرية هو الذي يجعلني أذوب شغفاً في تلابيبها، وأتحسس بلقائها دفء الحنان والألفة.

أسير مع خالد ونحن نتحدث في قاعات المطار عن أهل رام الله، الذين هاجر معظمهم إلى بلاد الغرب التي تتكح القضية العربية الفلسطينية، فتتجب منها قضايا كثيرة، تضطرها لأن تحفظ ماء وجهها، وذلك بأن تلم بعض لقطاء هذه القضايا، وأن تضع في فم الجائع منهم فتات خبزها، بدل أن ترميه في البحر، فيكبر الجائع بخبزها، ويتطبع بطباعها، فيخدم بلادها!

«ولك يا خيّي، هدول اللبنانيين عيلة واحدة، بيحبوا بعض، وبيسهروا مع بعض، ولكن عندك جهات خفية، بيثيروهم بطريقة بتجنن، فبينزلوا يقوسوا على بعض، طاخ، طيخ، طاخ، طيخ!».

أستغرب هذه الألمانيا العظمى، التي تقتصد في نفقاتها بينما تهدي مجاناً إلى إسرائيل أحدث الأسلحة والغواصات الحربية المصممة لتحمل رؤوساً نووية، وتقدم لها المساعدات المليارية والمعنوية وذلك تكفيراً عما حصل في الحرب العالمية الثانية، وكأن اليهود هم الوحيدون الذين اكتووا بنار الحرب، ولم يكتوِ بها الألمان أنفسهم، ولم يُعدم شعب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل النووية الأمريكية، فلا يدفع لهم أحد، يا حرام!




ISBN 978-614-432-109-6
9 786144 321096